

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٣٩ رمضان ١٤٣١ هـ السنة الثلاثون

قيم الإسلام الحضارية

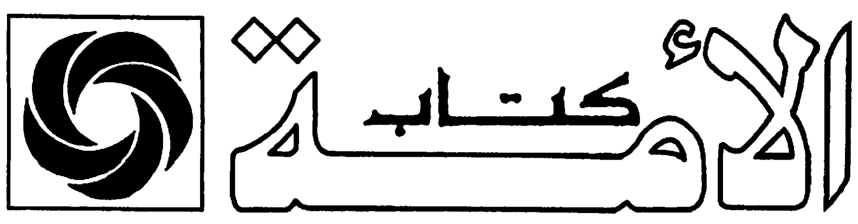
نحو إنسانية جديدة

د. محمد عبد الفتاح الخطيب

محمد عبد الفتاح الخطيب

* من مواليد جمهورية مصر العربية.
* يحمل درجة العالمية (الدكتوراه) في اللغويات، من جامعة الأزهر الشريف.
* يعمل مدرساً للغويات والفكر الإسلامي، بجامعتي الأزهر الشريف والإمارات.
* حضر عدداً من المؤتمرات، التي تُعنى بقضايا اللغة العربية، والفكر الإسلامي، والوعي الحضاري، والإصلاح والتجديد الفكري للأمة الإسلامية.
* له عدد من الكتب والبحوث المنشورة، منها:

- بين الصناعة النحوية والمعنى عند السمين الحلبي في كتابه الدر المصون في علوم الكتاب المكنون.
- ضوابط الفكر النحوي.
- حرية الرأي في الإسلام، مقاربة في التصور والمنهجية.
- البغي بالكلمات، دراسة في تحليل الخطاب الغربي تجاه الإسلام.
- البعد النفسي للعنف وأثره في تأويل النص الديني.
- تعليم العربية للناطقين بغيرها تعليماً حضارياً.
- التوظيف التقني للقرآن الكريم في تعليم العربية للناطقين بغيرها.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية- قطر

ص.ب: ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. محاولة لاستدعاء القيم الحضارية في الإسلام، ومعايرة الواقع الإسلامي بها، وتقديم قراءة جديدة لهذه القيم وكيفية إعادة تفعيلها وفاعليتها، وبيان دورها في التغيير والتجديد للواقع المتخلف، والإفادة من فشل قيم (الآخر) في تغيير واقع الأمة وانتشالها من التخلف، الذي تعاني منه، حتى ولو عايشت من حيث الشكل مظاهر حضارية من خلال استعمالها لأشياء (الآخر) والتي تبقى مظاهر حضارية مغشوشة؛ وكيف أن النجاح الحضاري والتغيير الثقافي منوط بالقدرة على التوليد والتجديد من خلال القيم الحضارية لعقيدة الأمة، والبناء على أصولها الحضارية؛ وأن هذه القيم، إذا أحسنا استرداد فاعليتها، قادرة على التجديد والتحديث، أو بناء حداثة إسلامية لا تقتصر على الداخل الإسلامي وإنما يمكن أن تشكل أنموذجاً جديداً لحضارة إنسانية على مستوى العالم.

فالكتاب يقدم رؤية ومشروعاً لتفعيل القيم الحضارية في حياة الناس يمكن أن يشكل سبيلاً للخروج من الواقع الحزين، كما يمكن أن يفتح نافذة ويلقي ضوءاً كاشفاً على عملية التوليد الذاتي، والوقاية الثقافية، ويقدم أنموذجاً حضارياً إنسانياً مؤهلاً للحوار والشهود الحضاري.

موقعنا علي الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

قيم الإسلام الحضارية
نحو إنسانية جديدة

د. محمد عبد الفتاح الخطيب

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣١هـ

آب (أغسطس) – أيلول (سبتمبر) ٢٠١٠م

محمد عبد الفتاح الخطيب

قيم الإسلام الحضارية.. نحو إنسانية جديدة

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٠م.

٢٢٤ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٣٩)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٧٠٩ / ٢٠١٠

الرقم الدولي (ردمك): ٥ - ٤ - ٧٧٨ - ٩٩٩٢١

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٧٩)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل معرفة الوحي سبيل الهداية إلى سبل السلام، ووسيلة الإخراج من الظلمات إلى النور، فقال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٦).

والصلاة والسلام على المنقذ من الضلال، الذي بما أُوحيَ إليه وضَعَ عنا إصرنا والأغلال التي كانت علينا، بعد أن لم نكن ندري ما الكتاب وما الإيمان، الذي صوّب الرؤية الدينية، وخلّص الوحي الإلهي من عبث الكهنة ورجال الدين، وجاء بالحنيفية السمحة، وأسس وأصّل للوسطية والاعتدال، بعيداً عن الغلو والتطرف والتعصب والانغلاق، وربى الأمة الوسط، ونشهد أنه بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، لتنطلق أمة الشهادة في جنبات الأرض تحمل وحي الله، وتشهد بذلك على الناس، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ

﴿أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ (البقرة:١٤٣)، وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ (الحج:٧٨)، وبذلك كان البعث الحضاري لهذه الأمة، وانتهى إليها الكتاب والميزان فتحققت لها المعيارية والمنهج القويم، ونيطت بها مهمة التقويم وبيان سبيل الاستقامة.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» التاسع والثلاثون بعد المائة: «قيم الإسلام الحضارية.. نحو إنسانية جديدة» للدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، في محاولتها الدائبة لتجديد أمر الدين، وتصويب صور التدين، واكتشاف مواطن الخلل، وتحديد مواقع القصور، وبيان أسباب التقصير، وبناء الوعي، واسترداد الفاعلية، واستدعاء معرفة الوحي لواقع الناس لتشكل البوصلة والدليل لوجهة الإنسان في تعامله مع الحياة والأحياء، وتستنفر العقل ليقوم بدوره في ضوء هداية الوحي في الاجتهاد ووضع الخطط والبرامج، وفق الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، وتنزيل قيم الوحي في الكتاب والسنة على حياة الناس، وتقويم سلوكهم بها، وبناء العقل الناقد، واستمرار المراجعة لصور التدين، والحراسة الدائمة لقيم الدين، ونفي نوابت السوء، واقتراح وسائل تجاوز فجوة التخلف، وترحيل آثارها

ودراسة أسباها، ورسم سبيل الخروج ومعاودة النهوض، واستحضار جميع التجارب، والتحقق بعبرها، ومحاولة الإجابة عن سؤال النهضة، وإنهاء حالة العطالة الثقافية والحضارية، وإحياء القيم الإسلامية، وتجديد فاعليتها لتأخذ دورها المأمول في ترقية المجتمع وتزكية أفراده وبناء مؤسساته، واستئناف الدور الرسالي لعالم المسلمين في العطاء وإلحاق الرحمة بالعالمين.

وبالإمكان القول: إن عجز ما يسمى بالنخب في الواقع الإسلامي عن الإنتاج الثقافي المأمول والمقنع وتطوير الأدوات والوسائل، التي تعيد ربط الأمة بقيمها، في الكتاب والسنة، وتعالج حالة الكلالة الحضارية، وتوقف الاجتهاد والامتداد، والخوف من التفكير والإبداع، ومحاولة الهروب إلى الماضي والتسوّر به الأمر الذي أدى بشكل سنني وطبيعي إلى استدعاء (الآخر)، والافتتان بقيمه وفلسفته للحياة وأنساقه المعرفية، وعدم الاقتصار على استيراد أشيائه والانتفاع بها وإنما الحرص على إشاعة أفكاره وقيمه وثقافته أيضاً التي هي في نهاية المطاف لا تنفك عن أشيائه التي تملأ حياتنا.

ولعلنا نرى أيضاً: أن اعتلاء المنابر المؤثرة والفاعلة في المجتمع من غير المؤهلين والمتخصصين وأصحاب الأصوات العالية المنوط بهم الأخذ بيد الأمة إلى النهوض والتجاوز ووضع الخطط والبرامج والأوعية الشرعية لحركة الأمة في ضوء قيمها، حال بمجتمعات التخلف، انتهى بهم إلى أن أصبحوا جزءاً من إشكالية التخلف نفسها، إن لم نقل: إنهم يمارسون، وعن حسن نية في

كثير من الأحيان، تكريس التخلف والعجز؛ لأنهم يعيشون وَهْم الفهم والإدراك لكل شيء، وما ندري كيف يتفق هذا الفهم وهذا الفقه وهذه العبقريات العظيمة مع واقع التخلف والتراجع الحضاري الذي لا يتوقف في حياة الأمة؟!

وليس أقل من ذلك شأناً وخطراً الذين غادروا قيمهم وتجربتهم التاريخية الحضارية، وعجزوا عن التوليد والتجديد من خلال قيمهم، وارتموا على (الآخر) واستدعوه، مع كل ما عنده، دون أي قدرة على التمييز بين النافع والضار، وما يتوافق مع قيم المجتمع ومعادلته الاجتماعية وأنساقه المعرفية، ولو أنهم كانوا في مستوى التمييز بين النافع والضار والقدرة على الأخذ والرد والمعرفة والإنكار لما وقعوا ضحايا لحضارة (الآخر)، التي أحدثت تغييراً في أشيائنا ووسائلنا ونمط حياتنا، وألغت عقولنا وأفكارنا ومحاولاتنا للنهوض وحتى مجرد التفكير والأمل والحلم بالمبادرة والابتكار والوصول إلى مرحلة القدرة على الإفادة من (الآخر) بعقل وحكمة،.

لذلك نرى أن الذين توجهوا صوب الماضي وحبسوا أنفسهم في دوائره دون القدرة على التحقق بعبرته لم يستطيعوا أن يحققوا لمجتمعهم أية نقلة حضارية، وإنما ساهموا بتوسيع دائرة أحلام اليقظة عنده، وتكريس العجز عن أي تجديد أو توليد من خلال قيمهم الحضارية التي ينتسبون إليها ويدّعون نصرها والالتزام بها؛ وأن الذين توجهوا صوب (الآخر) وألقوا بأنفسهم بالكلية

في قوالبه الحضارية الجاهزة المتولدة عن أصول وتاريخ آخر فحاولوا إقامة حاضر حضاري على أصول وماض حضاري مغاير لم يستطيعوا أيضاً أن يحركوا في رواكد التخلف شيئاً.

ويبقى المطلوب أن تتولد نخبة قادرة على استدعاء قيمها وتجربتها التاريخية الحضارية وامتلاك المعيار والميزان، وفي الوقت نفسه قادرة على الإفادة مما عند (الآخر)، وممارسة التبادل الثقافي والمعرفي، ذلك أن الإنسان المتخلف عاجز أصلاً عن الإفادة مما عند (الآخر)، فهو في حقيقة الأمر والميزان الحضاري زبون يسوّق أفكار (الآخر) لا تلميذ دارس يتعلم ممن هو أعلم منه.

ونحن بذلك لا نرمي إلى إلغاء (الآخر)، أو قطع جسور التواصل معه، والانكفاء عنه، وعدم الإفادة منه، أو التلفيق والمقاربة الحضارية على حساب قيمنا فنحاول مسخها وصبّها في قوالبه، وإنما نرى أن (الآخر) موجود وسيبقى موجوداً إلى يوم الدين، وأن التفاعل والتنامي والحراك كما يتم في إطار (الذات) أو ما يمكن أن يسمى حوار (الذات) ومن خلال نقدها ومراجعتها فهو يتم بشكل أوفر وأبعد أثراً مع (الآخر)، الذي يمكن أن يشكل الاستفزاز والتحدي، بمعناه الإيجابي، والمحرض الحضاري، الذي يلم الشمل، ويجمع الطاقات، ويشحذ الفاعلية، ويحرك القوى الكامنة، ويدعو للاستباق الحضاري، وخاصة عندما ندرك ويدرك أن ليس أحدنا بديلاً للآخر، وأن لكل إنسان وجهة هو موليها، وأن حرية الاختيار هي كرامة الإنسان، الذي أسسها

الإسلام بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وأن المطلوب هو أنسنة علاقات التعامل، وبناء المشترك الإنساني، وتوسيع دائرة التفاهم، وتكريس حقائق التعارف والتعايش، والاعتقاد بأن ذلك هو مقصد الدين، وغاية التدين؛ فالاختلاف والتنوع بل والتدافع الحضاري هو سنة من سنن الأنفس والآفاق، بها يتحصل النمو، ويتحقق الارتقاء في مدارك الكمال، ويتم من خلالها التلاقح والتناغم والتوالد والامتداد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، فإذا أبصرنا هذه الحقائق الحياتية والكونية فقد استوعبنا رحلة الحياة.

والبوصلة التي تحدد الوجهة في ذلك كله هي معرفة الوحي، فهي دليل الحياة وكيفية التعامل معها؛ ومجموعة القيم التي أكدتها معرفة الوحي جاءت لتشكل الدوافع والروافع للعقل الحضاري، كما أنها تقيم وتقوّم الميزان والمعيار للعقل البشري؛ ويبقى المطلوب فقه معرفة الوحي وإدراك أبعادها ودورها في تأطير حركة الحياة، وفقه القيم ودورها في ضبط مسيرة الحياة.

وعندي أن التجديد والنهوض يبدأ بل ينطلق من إدراك أبعاد عقيدة التوحيد وتجديد معانيها في النفس، وتحويلها من مسألة توارث اجتماعي، كحال التقاليد والعادات وأثاث المنزل وسائر الأشياء، إلى محل نظر وتفكير وتجديد اختيار واعتناق واعتقاد، ومن ثم إدراك أبعادها التغييرية في النفس والمجتمع، ووضع البرامج والمناهج التربوية والإعلامية والتعليمية والثقافية لتحقيق النقلة بالأجيال من الإرث العفوي إلى تجديد الاعتناق والاعتقاد، الذي يوصل

إلى تجديد معاني العقيدة في النفس والمجتمع، وبيان دورها في مسيرة الحياة، وضبط حركتها بقيم الدين.

ولا شك أن الجهود الطيبة المشكورة، التي بذلت من بعض رواد الإصلاح والتجديد تمحورت في معظمها حول تنقية العقيدة من البدع والخرافات ونوابت السوء، وهذا يشكل أساساً محورياً في عملية التجديد، لكن الإشكالية هي التوقف عند ذلك والإبداء والإعادة حوله، دون استكمال المشروع الإصلاحي في تجديد معاني العقيدة في النفس، واسترداد فاعليتها في الحياة، وإعمالها في تحقيق الحياة الطيبة لمعتنقيها.

إن تنقية العقيدة على قدر كبير من الأهمية الدينية والثقافية والحضارية وحتى السياسية والاجتماعية، وبدون ذلك لا يمكن أن يكون التدين السليم البعيد عن الغش والعوج ووهم العافية؛ فالتنقية قاعدة البناء الحضاري الصلبة، لكن كيف نبني استحقاقات ومعاني العقيدة في النفس والمجتمع لتحدث أثرها في التغيير والارتقاء وهداية الأمة سبل السلام؟ فتلك هي: المعادلة الصعبة والممتدة طوال الحياة الإنسانية.

وهذا البعد هو الذي عبر عنه «ابن خلدون» عند بيانه لحقيقة عقيدة التوحيد في قوله: «إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط، الذي هو تصديق حكمي فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس»، ومعناه تفعيلها لقيمه وانطلاقه من تحريك الحياة من خلال مقتضياته، استخلافاً في الأرض، وتزكية للنفس، وتعميراً للبنيان الحضاري، وشهادة على الخلق.

وبعد:

فهذا الكتاب محاولة لاستدعاء القيم الحضارية في الإسلام، ومعايرة الواقع الإسلامي بها، وتقديم قراءة جديدة لهذه القيم وكيفية إعادة تفعيلها وفاعليتها، وبيان دورها في التغيير والتجديد للواقع المتخلف، والإفادة من فشل قيم (الآخر) في تغيير واقع الأمة وانتشالها من التخلف، الذي تعاني منه، حتى ولو عايشت من حيث الشكل مظاهر حضارية من خلال استعمالها لأشياء (الآخر) والتي تبقى مظاهر حضارية مغشوشة؛ وكيف أن النجاح الحضاري والتغيير الثقافي منوط بالقدرة على التوليد والتجديد من خلال القيم الحضارية لعقيدة الأمة، والبناء على أصولها الحضارية؛ وأن هذه القيم، إذا أحسنا استرداد فاعليتها، قادرة على التجديد والتحديث، أو بناء حداثة إسلامية لا تقتصر على الداخل الإسلامي وإنما يمكن أن تشكل أنموذجاً جديداً لحضارة إنسانية على مستوى العالم.

فالكتاب يقدم رؤية ومشروعاً لتفعيل القيم الحضارية في حياة الناس يمكن أن يشكل سبيلاً للخروج من الواقع الحزين، كما يمكن أن يفتح نافذة ويلقي ضوءاً كاشفاً على عملية التوليد الذاتي، والوقاية الثقافية، ويقدم أنموذجاً حضارياً إنسانياً مؤهلاً للحوار والشهود الحضاري.

والحمد لله من قبل ومن بعد.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وسلامه على رسوله الأمين، وعلى صحابته وآله أجمعين، وبعد:

فمما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية، عاشت، وما تزال، ردحاً من الزمن في فراغ «حضاري» استدعى (الآخر) بمفاهيمه، وأنساقه المعرفية، وحداثته في «تحريك الحياة»، مع ما تبعه من تغييب، أو تجاهل، أو إهمال لقيم الإسلام، ومقولاته، ومفاهيمه، التي تضبط هذه الحركة حالاً ومآلاً، فأصبحت الأمة مدعوة، دائماً -في إطار الجدلية القائمة في حياتنا الثقافية بين «التراث» و«الحداثة»- إلى التخلي عن قيمها وأنساقها المعرفية، والتعلق بقيم الآخرين وأنساقهم المعرفية، تحت زعم التجديد والتحديث!!

ولكن مع تنامي حركة الإحباط النفسي تجاه كل الإخفاقات التي منيت بها الأمة على مختلف الصعد، ويقظة الأمة الإسلامية، وانبعاثها الإسلامي الجديد، ومع انحسار القناع عن الغرب، وفشل المناهج الغربية، و تهافت «النموذج الحداثي» الغربي، بماديته المنفصلة عن كل قيمة، وبعقلانيته المنقطعة عن كل غيب، وما ترتب على ذلك من «أزمات» في التعامل مع الإنسان والكون من حوله، استدعت التساؤل، من داخل منظومة الحداثة نفسها، عن مدى إمكانية الحديث عن منظومة قيمية أخرى «تحرك الحياة» بعيداً عن الحداثة الحالية، وأزماتها، وتطرفاتها في التعامل مع الإنسان ومع الأشياء (بدءاً من المحيط/المجال الصغير، بأزهاره وثماره، وانتهاء إلى الكون/الفضاء الكبير، ببحاره

وأفلاكه وطبيعته وكل شيء فيه)، مع ذلك كله أخذ سؤال عريض يطرح نفسه بقوة في حياة الأمة الإسلامية، وهو: كيف «نحرك الحياة» وفق قيمنا نحن وأنساقنا المعرفية، وانطلاقاً من مرجعيتنا ومقولاتنا الحضارية؟ أو بمعنى آخر: كيف نحرك الحياة وفق مراد خالق الحياة، سبحانه، في أمره ونهيه؟

وقد أخذ موضوع السؤال يجذب إليه كثيراً من أقلام الباحثين والمفكرين، فظهرت، خلال العقود الأخيرة، دراسات متفاوتة القيمة، برؤى ومداخل متنوعة، برزت في ثناياها آراء متعارضة حول: «قيم الإسلام» و«أنساقه المعرفية» التي «يحرك الحياة» من خلالها، وواقع الأمة الإسلامية واحتياجاتها، وما تعيشه من «انحسار وكلالة حضارية»، وما أثاره ذلك من انتقادات وتساؤلات حول ما يمكن أن تقدمه هذه «القيم» من «معايير» و«أطر مرجعية»، تعالج مشاكل أمتنا، ومشاكل الإنسانية من حولها، ومعالجة التحولات الجارية والمستقبلية. هذا ولا تزال هذه الدراسات تحتاج إلى مراجعة وتخصيب وإنضاج؛ حتى يتوافر للأمة الإسلامية رصيد وافر وافٍ من العلم النظري، الذي يساعد في إعادة بناء «المفاهيم» و«القيم» التي يحرك الإسلام الحياة من خلالها، وتطوير «آليات» تفعيلها في واقع الحياة.

وفي هذا السياق تأتي هذه الدراسة، لا لتثبت أن الإسلام يملك في أنساقه المعرفية أنموذجاً قيميّاً ذا طبيعة خاصة في «تحريك الحياة» يهدف إلى «ترقية الوجود»، ويبلغ الغاية في وصل الإنسان بربه، تعبداً وتعقلاً وتخلقاً، كما يبلغ الكمال في وصل الإنسان بأخيه الإنسان، تعارفاً وتراحماً وإحساناً، كما يبلغ المنتهى في التعامل مع مفردات الكون، انتفاعاً واستثماراً وائتماناً، وأن ما تعانيه

الأمة الآن من «انحسار حضاري» بل «كلالة حضارية» إنما هو راجع إلى تخليها عن هذا النموذج، وعجزها عن تفعيله، وتطوير «آليات» تنـزيله على واقعها، فلا تأتي هذه الدراسة لتثبت ذلك فحسب، بل لتثبت، من خلال التحليل والمقارنة وبناء المفاهيم والمقولات الحضارية، أننا نملك نموذجاً قيميّاً في «تحريك الحياة» يمثل «خطاباً حداثيّاً» جديداً، تحتاجه البشرية كلها، إذا فعَّلناه في حياتنا، ثم أحسنا تقديمه، والتعريف به؛ فالإسلام يملك منظومة قيمية ليست ضرورة لشهودنا الحضاري من جديد، بل وأيضاً، ضرورة لحداثة إنسانية جديدة، وإن كانت من جذور حضارة غير غربية[1]!!

وتنطلق هذه الدراسة من افتراضية مفادها: أنه إذا اعتبرنا أن الحداثة «مشروع» يحرك الحياة من خلال رؤية للكون والإنسان وتعامله مع عالم الأشياء، وأن هناك «حداثة» غير إسلامية، فلابد من أن تكون هناك «حداثة» إسلامية، لها مقولاتها ومفاهيمها الخاصة بها في «تحريك الحياة»، ونابعة من «رؤية» الإسلام المتميزة للإنسان والكون والحياة، بل إننا نرى، من وجهة نظرنا، أن وجود هذه «الحداثة الإسلامية» في «تحريك الحياة» وكونها «حداثة» للإنسانية جميعاً، نرى ذلك أمراً لازماً بالإسلام، مرتبطاً به أشد الارتباط باعتباره الدين الخاتم؛ ومن ثم فهو ليس «مشروع» ترقية للوجود

---

(١) وليس في ذلك سعي لإحلال المركزية الإسلامية محل المركزية الغربية، أي: إعادة إنتاج لمركزية معكوسة، تدعو إليها حداثة جديدة، كما يتوهم البعض؛ لأن في حداثة الإسلام من قيم: العدل والإحسان والتعارف والتراحم والمجاهدة، ما يمنع من هذه المركزية. كما سيأتي في فصل: التزكية وترسيخ الذات الإنسانية.

الإسلامي فحسب، بل للإنسانية كلها على امتداد أزمانها[1]، يعمل على «ترقية وجودها»، والارتقاء بها في «مدارج الكمال» مادة وروحاً، خَلقاً وخُلُقاً، حالاً ومآلاً، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) فـ«الشهادة» معنى يقتضي كون الأمة، من خلال إسلامها وأنساقه المعرفية وقيمه في «تحريك الحياة»، هي المرجع والميزان، الذي تتطلع إليه البشرية، حينما تفقد «المعنى»، وتضل «المقصد»، وتبتعد عن «المرجعية»!!

وقد حاولت في هذه الدراسة استخدام بعض المفاهيم، التي أراها تعبر عن رؤية إسلامية واضحة في «تحريك الحياة» وجرى التعريف بها حين استُخدمت لأول مرة، والاستدلال على صحة بنائها، من نحو: «المثل الأعلى»، و«الاستخلاف»، و«الخلافة الاقتدائية»، و«السعي الحي»، «والتزكية»، و«الاستعمار الإيماني للأرض»، و«تحصيل المعية الإلهية»، و«ترسيخ الذات الإنسانية»، و«الكدح الحضاري» ، و«الاستقامة الحضارية»، و«الكلالة الحضارية»، و«التخلف الكوني»، و«الحياة الطيبة»، و«الائتمان الكوني»، و«القوامة الكونية»، و«البعد السُنَني»، و«الائتمان على المستقبل».

---

(١) إذ من المقرر في العقيدة الإسلامية، أن زمان هذا الدين«الإسلام» ليس كمثله زمان؛ إذ هو الدين الخاتم، فلا ينحصر في زمن البعثة النبوية، ولا في الفترة التي استغرقتها حضارتها، وإنما يمتد ليشمل كل زمان يأتي بعده حتى تنتهي الحياة. ينظر في تقرير هذه الحقيقة، وشرح أبعادها الفلسفية: طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ط١ (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م) ص١٥ وما بعدها.

هذا، وقد جاءت مكونات الدراسة مرتبة ترتيباً منطقياً، بحيث تنساب باتجاه اختبار الفروض التي قام عليها البحث، فتسلسلت في: «مقدمة» تناولت التعريف بالبحث، و«تمهيد» خصصته لتحرير عنوان الدراسة، فجاء بعنوان «القيم الحضارية في الإسلام..الدلالة وبناء المفهوم»، ثم جاء الفصل الأول «الاستخلاف وتحصيل المعية الإلهية» وقد كان محوره: قيمة «الاستخلاف» وما تقوم عليه هذه القيمة في «المنظور الإسلامي» من: «عمارة الأرض»، و«عبادة الرب»، و«القيام بين الناس بالحق والعدل، والإحسان والفضل».

أما الفصل الثاني، فكان بعنوان: «التزكية وترسيخ الذات الإنسانية» وكانت مهمته بيان منهجية الإسلام في ترقية الإنسان من خلال قيمة: «التزكية» ومحوريتها في مجتمع الاستخلاف، وهي قيمة تقوم على محورين: أحدهما: «مراعاة حق النفس»، وثانيهما: «مراعاة حق الغير»، والتزكية بهذا منهج إسلامي أصيل وفريد، وقيمة مركزية في «ترسيخ الذات الإنسانية» و«ضبط حركتها في الحياة» وفق منهج الله في أمره ونهيه.

أما الفصل الثالث: «الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض»، فقد جرى فيه بيان أن «عمارة الأرض هي صنعة المؤمن» حيث المقصد العام للشريعة الإسلامية: إصلاح الأرض وعمارتها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، من خلال أبعاد أربعة: «البعد الإيماني» و«البعد الغائي» و«البعد الأخلاقي» و«البعد السُّنَني» وما يتولد عنها من قيم فرعية تضبط حركة الإنسان في تعامله مع الحياة والأحياء، هو الذي يحقق معنى «الاستقامة» الحضارية التي هي المقصد الأساس لـ«تحريك الحياة» في الإسلام.

ثم كانت الخاتمة، وكانت بعنوان: «القيم الحضارية في الإسلام، من إشكالية القراءة إلى إشكالية التفعيل» وفيها تمت مناقشة: القيم الإسلامية والواقع: من خطأ القراءة إلى خذلان التفعيل، وضرورة تفعيل هذه القيم في حياة المسلم، ورد الاعتبار إليها، تنزيلاً وحراسة وتنمية، وضرورة الاجتهاد في تطوير «آليات» هذا التفعيل، وما يتطلبه ذلك من: «تجديد» في خطابنا: العقدي، والفقهي، والقيمي.

وبعد،

فهذا مجرد مشروع لقراءة «القيم الحضارية في الإسلام»، وقد حاولت فيه التأسيس لهذه القيم والتأصيل لها، وبناء المفاهيم الحضارية من خلالها، والباحثون مدعوون إلى مواصلة المسير، ترسيخاً لهذا المنظور الإسلامي في «تحريك الحياة» وإبداعاً لـ«آليات» تفعيله، و«تشغيل» مفاهيمه؛ إيماناً منا بأن الاجتهاد العلمي رحم تتوالد، وسنة من سنن العلم النافع.

والله الموفق.

تمهيد

القيم الحضارية في الإسلام... الدلالة وبناء المفهوم

أولاً: مفهوم القيم:

كلمة «قيم» على ما يذكر اللغويون، جمع «قيمة»، ومادها «قَوَمَ»، جاء في تاج العروس: «القِيمَةُ بالكَسْرِ واحِدَةُ القِيَمِ، وهو ثَمَنُ الشَّيْءِ بالتَّقْوِيمِ، وأَصلُه الوَاوُ لأنَّه يَقُومُ مَقَامَ الشَّيء، ويُقالُ: مَالَهُ قِيمَةٌ، إذَا لَمْ يَدُمْ عَلَى شَيْء، ولم يَثْبُتْ.. واسْتَقَامَ الأمرُ: اعْتَدَلَ.. والقَوَامُ كَسَحَاب: العَدْلُ.. و القِوَامُ بالكَسْر: نِظَامُ الأمرِ وعِمَادُه ومِلاكُه الذي يَقُومُ بِه.. وكُلُّ مَنْ ثَبَتَ على شَيْءٍ وتَمَسَّكَ به، فَهُوَ قَائمٌ عليه.. والقِيَمُ كَعِنَب: الاسْتِقَامَةُ.. وتَقَاوَمُوه فِيمَا بَيْنَهُم: إذَا قَدَّرُوهُ في الثَّمَن. وإذَا انْقَادَ الشَّيْءُ واسْتَمَرَّت طَرِيقَتُه فَقد اسْتَقَامَ لِوَجْهِه.. وأمْرٌ قَيِّمٌ: مُسْتَقِيمٌ ، وخُلُقٌ قَيِّمٌ: حَسَنٌ، ودِينٌ قَيِّمٌ : مُسْتَقِيمٌ لا زَيْغَ فيه، وكُتُبٌ قَيِّمَةٌ: مُسْتَقِيمَةٌ تُبَيِّنُ الحَقَّ من البَاطِلِ.. والقَيِّمُ: السَّيِّدُ وسَائِسُ الأمْرِ»[1].

فهي مادة تتعلق، في حقلها الدلالي، بعدة معان، تدور في غالبيتها حول: قيمة الشيء وقدره أو مقداره، والتقويم والاعتدال، والاستقامة وعدم الميل، والثبات والتحكم في الأمور، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ

---

(١) ينظر في هذه المعاني، وغيرها: الإمام الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من الباحثين، ٣٣/٣٠٦.

﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠)، فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الثابت الذي لا يتغير، والمستقيم الذي لا عوج فيه، والذي يملك القيام على شؤون الحياة والإنسان، كما يملك القيمومة على الواقع كله؛ لأنه لا ينطلق من حالة طارئة قابلة للزوال تبعاً لزوال ظروفها المحيطة بها، بل من حالة عميقة في عمق المصلحة الإنسانية، ممتدة بامتدادها؛ ومن ثم كان به قيام حياة الناس، وبه يثبت توازن أوضاعهم[١].

و«القِيَم» بهذا الاعتبار، مفهوم جامع لكثير من المعاني والدلالات، التي تسوِّغ إطلاقه على: كل ما من شأنه أن يمثِّل «معياراً» و«ميزاناً» يتحرك من خلاله الإنسان، ويتصرف، وعياً وسعياً، بوحي من إشاراته وتوجيهاته، بحيث تكون هذه الحركة في استقامة وثبات، وبه يكون لهذه الحركة قَدْرُها وفاعليَّتها.

ثانياً: مفهوم الحضارة:

أما مفهوم «الحضارة» في بنيته المعجمية العربية، فهو من مادة: «حضر»، وبالرجوع إلى هذه المادة، نجدها تتعلق بعدة معان، أرجعها ابن فارس كلها إلى أصل واحد، وهو: «شهود الشيء، وإيراده، ومشاهدته»[٢]، وهو الأصل المستخدم في كل آيات القرآن الكريم للجذر حضر، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ (البقرة: ١٨٠)، وقوله تعالى:

---

(١) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني (بيروت: دار المعرفة) ص٤١٧.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢ (بيروت: دار الجيل، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ٢/٧٥ وما بعدها؛ وينظر: تاج العروس، ١١/٤٠.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ... ﴾ (النساء: ٨)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ (آل عمران: ٣٠)، أي: مشاهداً لديها، مكشوفاً عندها. وعلى هذا أصل الباب[1]: فيقال: حضر يحضر حضوراً وحضارة، من الحُضُور، أي: المشاهدة، ضدُّ المَغِيب والغَيْبَة، والحاضر: هو الشاهد، خلاف البادي، أي: الغائب، والحضارة: شهود الحضر، والإقامة فيه، والحضارة: خلاف البداوة، سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ أهلَها حَضَروا الأَمْصَارَ ، ومَسَاكِنَ الدِّيَارِ الّتِي يَكُونُ لهم بِها قَرَارٌ.

و«الحضارة» بهذا الاعتبار -أي: اشتقاقها من مطلق الحضور- تطلق، ويراد بها: كل حضور في الواقع، رام «تحريك الحياة» بكل أبعادها وامتداداتها، وعياً وسعياً، من خلال تحيُّزاته وأنساقه المعرفية (مصطلحاته ومفاهيمه النابعة من رؤيته للإنسان وعلاقته بالكون وعالم الأشياء من حوله) ثم سعى إلى تقديم هذا الحضور، بأنساقه وتحيُّزاته، على أنه نموذج قياسيٌّ للبشرية كلها، وبمعنى آخر، إن الحضارة هي: كل حضور يحرك الواقع نحو معياره، بكل تحيُّزاته وأنساقه المعرفية، كما يحرك المعيار ليوصل التزام الواقع به[2].

---

(١) وهو أصل الباب أيضاً في مادة «شهد» إذ لا تخرج عن الحضور، يقول ابن فارس: «الشين والهاء والدال أصل يدل على حضور، وعلم وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه عن الذي ذكرناه»، مقاييس اللغة، ٣/٢٢١.

(٢) وفي هذا السياق، يفهم ما ذهب إليه المفكر الإسلامي الكبير، مالك بن نبي، رحمه الله، من ضرورة التفرقة بين «الحضور» و«الوجود»، ورأى أن الأمم قد «توجد» مكتفية بذاتها، منغلقة على نفسها، أو مفعولاً بها، غير مؤثرة فيما حولها، ولكنها لن تكون «حاضرة» إلا إذا خرجت من حيز «الوجود»، إلى حيز «الحضور»، بما يعنيه ذلك من: الشهود والوعي والتأثير، وطرح رؤية للعالم، وتجاوز للذات، ومحاولة الإسهام بـ«فاعلية» في «تحريك الحياة». فالحضور: مشاركة وتأثير وفاعلية، وليس انفعالاً وتلقياً، أو تكراراً واجتراراً، أو انغلاقاً وتقوقعاً. ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط٤ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤م) ص٢١ وما بعدها.

وبهذا يصبح مفهوم «الحضارة» معنىً حيادياً[1]؛ إذ يطلق على كل حضور في الحياة كانت هذه صفاته؛ ومن ثم يصبح لكل حضارة تعريفها الخاص بها، بناءً على نموذجها المعرفي الكامن فيها، وقيمها التي أبدعتها، ومذاقها الخاص الذي يميزها، وبهذا، أيضاً، يتبيَّن أن ما يميز أية حضارة، ليس هو جملة المعارف والصنائع التي تُحدثها، في أثناء تحريكها الحياة، بقدر ما هو جملة المعايير والموازين «القيم» التي تحيط بهذه المعارف والصنائع، وتوجهها، ومن هذا التمايز في «القيم» يأتي «التدافع الحضاري» الذي به تستمر الحياة، وتدوم فاعليتها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ...﴾ (البقرة:٢٥١).

ووفقاً لهذا الأصل، نستطيع أن نعرف الحضارة الإسلامية، بأنها: «كل حضور، يسعى إلى «تحريك الحياة» وفق رؤية الإسلام للإنسان والكون والحياة، ومقاصده في «تحريك الحياة»، ومن خلال نموذجه المعرفي الخاص به، والقائم على: وصل الإنسان بربه، وكذلك وصل الإنسان بأخيه الإنسان، ثم الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون، انتفاعاً واستثماراً وائتماناً»[2].

---

(١) أي: لا يحمل معنىً قيمياً في ذاته وأصل بنائه؛ فلا يدل على رُقيٍّ، أو غيره، ولا توصف الحركة الحضارية بالسلب أو الإيجاب إلا من خلال مقصودها، ومآلات أحوالها. ينظر في تحقيق هذا المصطلح، وتتبع سيرورته: نصر محمد عارف، الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، ضمن: بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، إشراف: د.علي جمعة، ود. سيف الدين عبد الفتاح، ط١ (القاهرة: دار السلام، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ١/٢٦٠-٣٠١.

(٢) هذا هو التعريف الذي تدور حوله دراستنا، خلافاً للتعريف التقليدي لـ«الحضارة الإسلامية» والذي يدور حول: خبرة المسلمين وإنجازاتهم، وخلافاً للتعريف الذي يدور حول التراث التاريخي، والإنجاز المادي والفني، وتاريخ الفكر والنُظم.

ثالثاً: البناء التنظيري لمفهوم: «القيم الحضارية في الإسلام»:

وتأسيساً على ذلك كله يمكن القول: إن مفهوم: «القـيم الحـضارية في الإسلام» في بنائه التنظيري، يطلق، ويراد به في هـذه الدراسـة: «المعـايير والموازين الموجهة لحركة الإنسان، والضابطة والحاكمة للفعل الحضاري، بكل تنوعاته وامتداداته، وفق رؤية الإسلام ومقاصده في «تحريك الحياة» تحـصيلاً للمعية الإلهية، وترسيخاً للذات الإنسانية، واستقامةً في التعامل مـع مفـردات الكون وعطاءاتها، من خلال فقه شغوف بـ «التـوازن والتجـرد»، و«أداء الحقوق» و«مراعاة الحرمات ورفيع الأذواق»، و«أخلاق البذل و الإيثـار»، و«اصطناع المعروف»، و«ابتغاء الفضل وبذله»، و«محاربة الطغيان الحضاري»، و«الاستئثار العمراني»، وبعيداً عن ألوان التضليل والبغي الحضاري، وأخلاقياته في تحريك الحياة».

وهو بذلك يعد مفهوماً «منظومة»[1] يحـرك في إطـاره مجموعـة مـن الدلالات المحورية، أهمها:

١- أن «القيم الحضارية في الإسلام» تمثل «المنطق الداخلي» الذي يشكل الأمة الإسلامية، وبه قامت حضارتها وتطـورت، كمـا يـشكل «الوقايـة

---

(١) «المفهوم المنظومة» مصطلح يشير إلى أن «المفهوم» ليس مفرداً، بل يستبطن في بنائه «منظومة» متكاملة من المفاهيم، والدلالات، بحيث لا يمكن فهمه أو تلمس قيمته في بنية العلم إلا من خلال تحليل ما يرتبط بهذا المفهوم من «مقولات» وما يتعالق معه من مفاهيم، ينظر: سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام.. مدخل القيم، ط١ (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص٦١١.

الحضارية» أي: القوة المانعة للمسلم من الذوبان في (الآخر)، فهذه القيم بمقدار ما تشكل قوة دافعة للنهوض، واستعادة الفاعلية، في أيام «الشهود»، بمقدار ما تشكل قوة، ووقاية حضارية، مانعة من الذوبان، في أيام «الوهن». وأي تفكيك للحضارة الإسلامية من هذا «المنطق» يعد لوناً من العبث، بل ويعد مدخلاً من مداخل «الانهزام» و«الاستلاب» الحضاري، و«التبعية» لغيرنا!! كما أن أي تفلت في «تحريك الحياة» من هذا «المنطق» فكراً وحركةً، يسلب عن هذا «التحريك» صفة الإسلام؛ ومن ثم فإن أي «تحريك للأمة» يعمل على إعادة الفاعلية لها، لابد أن يحتكم إلى هذا «المنطق» وتنزيله على الواقع، وإلا فشلت محاولات هذا «التحريك» حالاً أو مآلاً، كما هو مشاهد!!

٢- أن «القيم الحضارية في الإسلام» تمثل «معياراً» و«إطاراً مرجعيّاً» حاكماً وضابطاً لحركة المسلم في الحياة، فهي ليست «رؤية» تقرر ما يجب أن يكون فقط، ولكنها «رؤية» ذات صلة بالواقع، فلا يتسم الواقع بسمة الإسلام، ولا يأخذ مشروعيته منه، إلا إذا التزم بـ«المعيار» و«الإطار المرجعي» الذي يتم من خلاله «تحريك الحياة» في مسيرها وصيرورتها. والإسلام، في هذا المجال، يقدم ثلاثة مفاهيم، تمثل قيمه الكبرى في تحريك الحياة، وهي: «الاستخلاف» الذي يحدد مسار هذه الحركة، وفق مراد الله في أمره ونهيه، و«التزكية» المتحكمة في وسائل هذه الحركة، بحيث يُراعى فيها: «حق النفس» و«حق الغير»، و«الاستقامة» التي هي انضباط حركة المسلم في هذه الحياة وفق منهج الله وشرعته، فتكون حركته، علماً وعملاً، منطلقة من معارف الوحي، ومنضبطة بمقاصده، ومناهج الاستمداد منه، حتى تكون كل

أقواله وأفعاله، وأحواله ونياته، واقعة لله، وبالله، وعلى أمر الله. فهي مفاهيم ثلاثة: «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستقامة» جميعها يشكل «منظومة» واحدة[1]، ويمثل «قيماً محورية» تؤصل السعي الحضاري للمسلم[2]، كما يمثل «ضوابط أساسية» لاستمرار حضارته، في عطاء لا ينضب، وفاعلية لا تموت.

٣- أن «القيم الحضارية في الإسلام» تشكل «المقاصد الحركية للإسلام»، و«مصالحه في تحريك الحياة»؛ ولذلك يعبر عن هذه القيم في أصول الفقه الإسلامي، تارة بـ«المقاصد» (حفظ الدين الذي هو الإطار المرجعي التأسيسي للأمة/ وحفظ النفس الفردية والجماعية/ وحفظ الكيان واستمراره في إطار العمارة الإنسانية وتنمية الموارد البشرية/ وحفظ المال وما يقوم عليه من عمليات التنمية والعمران/ وحفظ العقل وما يحمله من عناصر التكوين الثقافي وترسيخ عناصر القيم المتعلقة به) وتارة أخرى، بـ«المصالح» (المنافع التي قصدها الشارع والتي يتحقق بها صلاح الإنسانية في الحال، وفلاحها في المآل، أي: سعادتها في الدارين، ابتداءً وانتهاءً)، فـ«المقاصد» و«المصالح»، بهذا المفهوم، ليستا إلا تجسيداً للقيم الإسلامية، وتحديداً لمجالات الإعمال لها.

٤- أن «القيم الحضارية في الإسلام» بدلالاتها الثلاثة السابقة، في إطار مفاهيم: «الاستخلاف»، و«التزكية»، و«الاستقامة»، وفي إطار «المقاصد»

---

(١) انظر: سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام.. مدخل القيم، ص١٧٨.

(٢) وكلها مشدودة إلى القيمة المركزية العليا الحاكمة في الإسلام، وهي: قيمة «التوحيد» بمعنى نفي الشريك عن الله سبحانه، ذاتاً وأوصافاً وأفعالاً، إذ تنبثق منه مبدأ وقاعدة، وتعود إليه مقصداً وغاية، فكل سعي في الحياة، اقتداء واستمداداً، إنما هو منطلق منها، راجع إليها، وإلا فلا يوصف بالإسلام.

و«المصالح»، تشكل بمجموعها، روح شرعة الإسلام ومنهاجه، فهي مرتبطة بها وجوداً وعدماً؛ إذ من خلال هذه القيم يظهر تمايز الشرعة الإسلامية عن غيرها، كما أن ليس اتباع «الشرعة» في أوامرها ونواهيها إلا تجسيداً لهذه القيم، وتفعيلاً لها، وهو المعنى المستبطن في قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ... ﴾ (المائدة:٤٨).

٥- أن القيم لها مركزيتها في البناء الحضاري الإسلامي: فمن أصول البناء الحضاري في الإسلام: أن يدرك المسلم أنه ليس بالسائب، وأنه لا يكتشف طريقه عبر عقلانية محضة، وإنما هو محكوم، بعد نصوص القرآن الكريم، بالحديث النبوي، يخضع للصحيح منه، ولابد، ذلك... أو التخبط، كما قال مالك بن أنس، رحمه الله: «ما قلت الآثار في قوم إلا كثرت فيهم الأهواء»[1]، ويجمع ذلك كله حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[2] أي: لا يكون العبد مؤمناً حتى يخرج عن داعية هواه؛ ليكون «عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً»[3]، وهو ما يشير إليه قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢)، فما من شيء-كما يقول الراغب الأصبهاني-:

---

(١) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ط٢ (السعودية: دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ) ١/٣٨٣.
(٢) قال ابن حجر (فتح الباري، ١٣/٢٨٩): «أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين». وهذا الحديث يدل على أن من مقاصد الشريعة الإسلامية: «إخراج المكلف عن داعية هواه» فاتباع الأهواء يؤدي إلى المذموم شرعاً؛ لأن الاسترسال في تلبية أهواء النفس يعوّد المكلف العمل على إرضاء نفسه، دون التزام بأحكام الشرع وتوجيهاته.
(٣) الشاطبي، الموافقات، تحرير وتحقيق الشيخ عبد الله دراز (بيروت: دار المعرف) ٢/١٦٨.

«إلا وإذا تعاطاه الإنسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى، كان الإنسان في تعاطيه عابداً لله، مستحقاً لثوابه، كما قال النبي ﷺ لسعد: «**إنَّكَ لَتُؤْجَرُ فِي كلِّ شيءٍ حتى اللقمةَ تَضَعُهَا فِي فِيّ امرأتِكَ**[1]» ومخاطبته لسعد بذلك لما عرَف منه أنه يراعي في أفعاله حكم الله تعالى. وعلى هذا الوجه قال ﷺ: «**ما من مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْساً، ثُمَّ يُؤكل منه شَيْءٌ إلا كان له صَدَقَةٌ**[2]»[3]؛ فليس في أفعال المسلم، إذن، ما لا حكم له في دينه، إما منصوصاً عليه بذاته، أو قابلاً للاستنباط مما هو منصوص عليه، أي: لا ثغرة حكمية في أفعاله؛ إذ «لله تعالى في كل فعل يتحراه الإنسان عبادة، سواء كان ذلك الفعل واجباً، أو ندباً، أو مباحاً»[4]، مما يؤكد أن الحضارة الإسلامية، منذ تأسيسها القرآني والنبوي، كانت حضارة قيم ومفاهيم، وليست حضارة صور وأشكال، غايتها تنمية الإنسان، في سعيه الحضاري، والارتقاء به في مراتب الكمال العقلي والخُلقي، من خلال دعوتها إلى:

- «تحصيل المعية الإلهية» بالانضباط بمعيار الدين، والعمل على «مقتضى الشرع الإلهي»، فيؤمن المسلم بوجود الألوهية وراء كل شيء، فيعلم أن الحق

---

(١) ورد الحديث بروايات مختلفة، انظر: صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ٣٠/١، حديث رقم: ٥٦؛ وفي صحيح مسلم، كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث، ١٢٥٠/٣، حديث رقم: ١٦٢٨.

(٢) ورد الحديث في صحيح البخاري، بروايات مختلفة في موضعين، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ٨١٧/٢، حديث رقم: ٢١٩٥، وكتاب الأدب، باب: رحمة الناس بالبهائم، ٢٢٣٨/٥، حديث رقم: ٥٦٦٦. وأخرج نحوه الإمام مسلم، كتاب: المساقاة.

(٣) الراغب الأصبهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تقديم وتحقيق د. عبد المجيد النجار، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص١٥٥.

(٤) المرجع السابق.

يخاطبه في كل شيء، وأن هذه المخاطبة مستمرة استمرار الحياة، فحيثما توجه وجد ربه، مراعياً أمره ونهيه. ويعلم أن رؤية الله له لا تنقطع؛ ومن ثم فهو في كل أعماله مطالب بأن يراقب نفسه، ويراقب ربه، فهو دائر بين «تلقي الخطاب» من الله في كل شؤون حياته، و«تحمل الرؤية» من الله في كل أعماله. والقيم، في إطار تلك المعية الإلهية، ترتقي من رتبة «الأوامر والنواهي» التي تقهر الإرادة، إلى رتبة «المعاني الجمالية» التي تملأ الوجدان، فتجد الإنسان من خلالها يتفنن في الإتيان بالخُلق تفنن الحاذق المُلهَم، حتى يوشك أن يخرج الفرد، في إطار القيم الإسلامية، عن أُفقه الإنساني إلى أفق يعلوه؛ حيث «وضعُ النفس تحت الحقوق» و«الثباتُ على أصول الشريعة، وكليات العقيدة وجزئياتها» ويتأسس على ذلك أن مرجع تلك «القيم» في التصور الإسلامي، إذن، ليس إلى «الرأي والهوى» وليس إلى «العقل البشري» بلا قاعدة ولا ضابط، وليس إلى «المصلحة» كما يتصورها الناس غير محكومة بأصل من دين الله، وليس إلى أي اعتبار آخر، غير اعتبار واحد هو «الوحي» المعصوم، بما يضعه من ضوابط وموازين تتحكم في كل شأن من شؤون الحياة؛ فالمسلم لا يستفيد من الدين «مقاصدَه» فقط، بل يستفيد -أيضاً- «وسائلَه» في البلوغ إليها!! وهذا يمنحها: صفة الثبات والرسوخ، وقدرتها على الإنتاج في كل زمان ومكان؛ لأنها قيم مقررة من الشارع الحكيم سبحانه، الذي يضمن «صحة المقاصد» و«نجاعة الوسائل» على الدوام، كما يمنحها صفة القبول والإلزام، والعمل بمقتضاها انتظاماً ومواظبة، فممارسة المسلم لأي عمل، انطلاقاً من هذه القيم، وتوظيفاً لها، والتقيد بها في جميع جهاته الظاهرة والباطنة، إخلاصاً

وتقرباً إلى الله، هي مناط الشرعية؛ إذ للإسلام في كل وجه من وجوه تلك القيم أمرٌ ونهي، وإيجابٌ وتحريم، وإباحة ومنع، ولعل ذلك سبب تسميتها في الفقه الإسلامي بـ(الآداب الشرعية)، ومن هنا فإن توظيف تلك القيم في الممارسة من قبل الفرد، أو المجتمع، أو النظام السياسي في الدولة، هو أساس شرعيته الحقيقية[1]، وهذا يعطي شعوراً عميقاً بالمسؤولية تجاه الالتزام بها.

- كما تتضح مركزية القيم في البناء الحضاري الإسلامي من خلال دعوتها إلى: «ترسيخ الذات الإنسانية» بـ«مراعاة حق النفس» تزكية لها، و«تصحيح السلوك»، أصلاً، ومقصداً، ووسيلة. والعمل على «مراعاة حق الغير» إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً؛ إذ الأصل، في منهج البناء الحضاري الإسلامي، أن نمنح الحقوق لا أن نسلبها، وأن ندع المقابل يرضى لا أن يسخط؛ ومن ثم فإن الواحد من أبناء الأمة الإسلامية لا همّ له إلا الأدب مع مَن وما سواه؛ ومن ثم يرفض الإسلام، في منهجيته لتحريك الحياة، أية قيمة تستلب إنسانية الإنسان باستعباده واستذلاله، أو لا تجسد إنسانيته، بل لا تجسد كمال الإنسانية فيه حيث الغاية في كمال الأخلاق بتزكية النفس مقصداً وسلوكاً، كما يرفض الإسلام أية حركة تتم في غيبة «المقاصد الإنسانية الكلية» التي تقوم، في الإسلام، على مقصد «التعبد» وما يدعو إليه من: «الاتزان» و«الاعتدال» و«التجانس» و«عدم الإغراب» و«الجري مع الفطرة»، و«مراعاة: حقائقِ النفس، وحقائقِ الغير، والقدرةِ العقلية، والتحملِ الجسدي، وحاجات الغرائز»؛ ولذا؛ فإن الإسلام

(١) حامد عبد الماجد قويسي، الوظيفة العقيدية في الدولة الإسلامية، ط١ (القاهرة: دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص٢١٧.

في «تحريك الحياة» يلزم أفراده ومؤسساته، بحشد من القيم والمعايير والضوابط، أو (الآداب الشرعية) التي تمثل (مدونة) أخلاقية[1] لا تجد لها نظيراً في تاريخ البشرية؛ فتعرِّف المعروف (كل المنافع التي من شأنها أن ترتقي بإنسانية الإنسان، أو على الأقل تحفظها) وتنكر المنكر (كل المضار التي من شأنها أن تنحط بهذه الإنسانية)، حتى الأحكام الشرعية -التي تضبط حركة المسلم التعبدية- فإنها لا تنفك عن القيم الأخلاقية، فجانبها الأخلاقي يؤسِّس الجانب الفقهي، كما أن جانبها الفقهي يوجِّه الجانب الأخلاقي[2] مما يمكن القول معه: إن للحكم الشرعي -في الإسلام- بنيتين متكاملتين: إحداهما فقهية، والثانية قيمية أخلاقية تضبط من سلوك الفرد باطن الأعمال التي تعود بالصلاح، أو الفساد عليه أو على غيره، مما يورث المسلم أكمل تخلق[3]، وهذا ما يؤكده الإمام الشاطبي بقوله: «والشريعة كلها إنما هي تخلُّقٌ بمكارم الأخلاق؛ ولهذا قال عليه السلام: «**إنما بعثت لأتمم مكارم**[4]

(١) فهي، إذن، أخلاق «ربانية» مستفادة من الوحي قولاً، ومن الرسول ﷺ اقتداء واتساء به؛ ومن ثم فأخلاق المسلم ينبغي أن تكون على مقتضى «التخلق الرباني» لا على مقتضى «التخلق الاجتماعي» الذي يستفيده الإنسان من سلوك من حوله، ولا مقتضى «التخلق النفساني» الذي يحدِّثه به ضميره.

(٢) يقول القاضي عياض: «إن أحكام الشريعة، أوامرَ ونواهيَ، تقتضي حثاً على قُرَب ومحاسن، وزجراً عن مناكر وفواحش، وإباحة لما به صلاح هذا العالم وهذه الدار لبني آدم، وأبواب الفقه وتراجم كتبه كلها قائمة على هذه الكلمات»، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ص٩٢.

(٣) ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط٣ (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م) ص١٠٦.

(٤) وفي رواية: «صالح» والحديث رواه أحمد، والبيهقي في الشعب، والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، وصححه الألباني، ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥م) رقم ٤٥، ١١٢/١.

الأخلاق»[1]، ويقول ﷺ: «إنّ الله كريمٌ يُحبُّ الكرمَ، ومعاليَ الأخلاق، ويبغضُ سَفْسَافَها»[2]، قال الإمام الحرالي: «مكارم الأخلاق» هي «صلاح الدين والدنيا والمعاد، الذي جمعها في قوله ﷺ: «اللهم أَصْلِحْ لي دِينِي الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ التي فيها مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتِي التي فيها معادي، واجعل الْحَيَاةَ زِيَادَةً لي في كل خَيْرٍ، واجعل الْمَوْتَ رَاحَةً لي من كل شَرٍّ[3]»[4]، فالمقصود الشرعي من الرسالة ، هو، مقصود أخلاقي «وقوله ﷺ: «لأتمم» إشارة طريفة إلى أن رسالة الإسلام القيمية رسالة استئناف واستصحاب ومواصلة، لا رسالة ابتداء وانقطاع، فهي تنظر إلى ما أبدعه الإنسان في كل زمان ومكان من قيم عظيمة، وأخلاق عالية تحقق «المقاصد الإنسانية» فتضمها مباشرة إلى منظومتها، ثم تواصل سيرها

---

(١) الموافقات، ٢/٧٧.

(٢) أي: رديئها وحقيرها، والحديث رواه الحاكم في المستدرك بسندين عن طريق سهل بن سعد الساعدي، ثم قال: «حديث صحيح الإسنادين جميعاً ولم يخرجاه» المستدرك، ١/١١٢.

(٣) صحيح مسلم (كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عُمل ومن شر ما لم يُعمل، ٤/٢٠٨٧، حديث رقم: ٢٧٢٠).

(٤) أبو الحسن الحرالي المراكشي، مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل، تقديم وتحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي، ط١ (الدار البيضاء-المغرب: مطبعة النجاح، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م) ص٥٧. و«مكارم الأخلاق» بهذا المفهوم الشامل، هي ما يسميها الإمام الراغب الأصبهاني بـ«مكارم الشريعة» وعليها عقد كتابه: الذريعة إلى مكارم الشريعة، وقد نبه إلى الفرق بين«أحكام الشريعة» التي مبدأها الأحكام التكليفية التي تتعلق بالأمر والنهي، وبين «مكارم الشريعة» التي مبدأها: طهارة النفس، واستعمال العفة والصبر والعدالة، ونهايتها: التخصص بالحكمة والجود والحلم والإحسان.

في هذا الكون الفسيح؛ بحثاً عن قيم حضارية سامية تتحقق بها إنسانية الإنسان وكرامته»[1].

- ومن خلال تلك القيم- التي تقوم على «تحصيل المعية الإلهية» و«ترسيخ الذات الإنسانية»- ومركزيتها في البناء الحضاري الإسلامي، يحقق المسلم معنى «الاستقامة» في العلم والعمل، فتكون كل أقواله وأفعاله، وأحواله ونياته، واقعة لله، وبالله، وعلى أمر الله[2]، وهو ما نسميه بـ «الاستعمار الإيماني للأرض». وبهذا تكون هي «القيم الكونية» بحق، وليس سواها؛ إذ إنها قيم تبلغ النهاية في وصل الإنسان بربه، والكمال في وصل الإنسان بأخيه الإنسان، والغاية في أي بناء حضاري علماً وعملاً، فهي قيم، في فقهها الحضاري، موصولة بحبال ثلاثة: حبل يصلها بالله (الاستخلاف وتحصيل المعية الإلهية) وحبل يصلها بالناس (التزكية وترسيخ الذات الإنسانية) وحبل يصلها بالكون (الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض)؛ وهذا ما يظهر بيانه في الفصول التالية.

---

(١) فقد حضر الرسول ﷺ حلفاً في الجاهلية، عقد في دار عبد الله بن جدعان؛ لمحاربة الظلم، ونصر المظلوم، وكف الظالم، وقال بعد الإسلام: «لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت» وهو ما يعرف بـ«حلف الفضول» أو«حلف المطيبين» وهذا القول يدل على تجويز الاقتباس من قيم الحضارات الأخرى غير الإسلامية، لما لا يصادم حقائق الإيمان، وأحكام الشرع ومقاصده، ينظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود، ٨/١٠١؛ والحديث في مسند الإمام أحمد، ١/٩٣، رقم: ١٦٥٥، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال النبي ﷺ:«شهدت حلف المُطَيَّبِينَ مع عمومتي، وأنا غُلَامٌ، فما أُحِبُّ أن لي حُمْرَ النَّعَمِ وأني أنكثُهُ» وصحح الحاكم إسناده في المستدرك، ٢٣٩، حديث رقم: ٢٨٧٠.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ٢/١٠٥.

الفصل الأول

الاستخلاف وتحصيل المعية الإلهية

الأصل في تحريك الحياة:

البناء الحضاري الإسلامي هو بناءٌ موصولةٌ فيه الأرض بالسماء[1]، والإنسان فيه «ليس إلهاً ينازع «الآلهة» وتنازعه!، وليس كذلك حيواناً جاءت سيادته على الأرض مصادفة، وقد يقوم مقامه في هذه السيادة غداً قط أو فأر! وليس آلة تحسب قيمته بقوة «الأحصنة» التي يساويها في قوة التحريك والإدارة. وليس عبداً للمادة، ولا هو لوحة تطبع فيها المادة «أو الطبيعة» ما تريد، وليس عبداً للآلة، تُصرِّفُ حياته وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هي وتتقلب، وليس «نمرة» ولا مجموعة «نُمر» تتحرك داخل القطيع، بلا شخصية مميزة، ولا كيان فردى خاص»[2]، بل هو معطى إلهي، خلقه الله في أحسن تقويم، وحدد له وظيفته في الأرض، بأن جعله «مستخلَفاً» فيها، و«مؤتمناً» عليها، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

---

(١) بخلاف الإنسان في «منظومة القيم الكونية» أو «قيم الحداثة» فهو ينظر إلى الأرض دائماً، لا إلى السماء، وحتى المسيحية -بوصفها الدين الذي آمن به هذا الإنسان الغربي مئات السنين- لم تستطع أن تتغلب على تلك النـزعة الأرضية، بل بدلاً من أن ترفع نظره إلى السماء، استطاع هو أن يستنـزل إله المسيحية من السماء إلى الأرض ويجسده في كائن أرضي.

(٢) سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ط٩ (بيروت- القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٨م) ص١٧٤.

﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠)، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ...﴾ (فاطر:٣٩)، وهو ما يوضحه الرسول ﷺ بقوله: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[1].

فهذا هو الأصل في حركة الإنسان في الحياة، وقد أجمل هذه الحركة، الراغب الأصبهاني فذكر أن «الفعل المختص بالإنسان ثلاثة: عمارة الأرض، المذكورة في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١)، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره.وعبادته المذكورة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته، في أوامره ونواهيه، وخلافته المذكورة في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٢٩)، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة، باستعمال مكارم الشريعة. ومكارم الشريعة هي الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم، والإحسان والفضل. والقصد منها: أن يبلغ بذلك إلى جنة المأوى، وجوار رب العزة تبارك وتعالى»[2].

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، حديث رقم: ٢٧٤٢، ٢٠٩٨/٤.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، ط١ (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، ٢٠٠٧م) ص٨٢-٨٣؛ (والراغب، وإن كان جعلها ثلاثة أفعال مختلفة، فإننا نراها فعلاً واحداً راجعاً إلى ما يمكن تسميته بـ«الخلافة الاقتدائية»).

مفهوم «الاستخلاف»:

فـ«الاستخلاف»[1] هو القيمة المحورية الناظمة لقيم البناء الحضاري الإسلامي، وهو المفهوم الإسلامي الذي يحدد العلاقة التي تربط الإنسان بخالقه من جهة، وتربط الإنسان بالأرض وعالم الأشياء من جهة ثانية، وبأخيه الإنسان من جهة ثالثة[2]، فهو تصور كامل لحقيقة الوجود، والكون، والإنسان، والحياة، فالمستخلِف هو الله تعالى، والمستخلَف هو الإنسان وأخوه الإنسان، والمستخلَف عليه هو الأرض وما عليها ومن عليها. و«الاستخلاف» بهذا المعنى مفهوم يؤطر حركة الإنسان (الخليفة) في الحياة، وهو يعني أمرين:

---

(١) معظم علماء الإسلام على أن «الخلافة» معناها: خلافة الإنسان عن الله، في سياسة الكون، وتعمير الحياة، وفق مراده في أمره ونهيه سبحانه، اقتداء واستمداداً. والاستخلاف هنا إنما هو استخلاف رباني، أعطاه الله تعالى للإنسان تشريفاً وتكريماً، وليس استخلاف عجز أو حاجة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، انظر: الإمام الراغب في المفردات، ص١٥٦؛ وينظر في الخلاف حول جواز القول بخلافة الإنسان عن الله: الإمام ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ١/١٥١ وما بعدها، ففيه كلام مفيد وتفصيل رشيد.

(٢) فالبناء في الحضارة الإسلامية يبدأ من الله وينتهي إليه.وبهذا يتمايز البناء الحضاري في الإسلام، الذي يحدد علاقة الإنسان بما سواه بناء على مسلمة «الاستخلاف» عن البناء في الحضارة الغربية، الذي يحدد علاقة الإنسان بالطبيعة، وبالآخر، وبالله «أو الغاية النهائية من الوجود» بناء على مسلمات ثلاث، هي: مسلّمة ديكارت، التي تجعل «الإنسان سيداً ومالكاً للطبيعة»، ومسلّمة هوبز، التي تجعل «الإنسان ذئباً بالنسبة للإنسان»، ومسلّمة مارلو، التي تجعل «الإنسان المنمي لقدراته العقلية إلهاً يسود جميع العناصر، ويهيمن عليها» ومن خلال هذه المسلمات الثلاثة تم القضاء على الأبعاد السامية للإنسان، والرفض لكل القيم المطلقة، ينظر: رجاء غارودي، الإسلام والحداثة، ترجمة: د. العربي كشاط، ضمن بحوث: الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، ط١ (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ص١٦٨.

أولهما: أن الإنسان الخليفة حـــر، ولا سيادة لإنسان على آخر ابتـــداء، فلا مشروعية لأي ألوان التحكم، أو أشكال الاستغـــلال وسيطرة الإنـــسان على الإنسان، فلا سيـــد ولا مـــالك ولا إله لهـــذا الكون وهذه الحياة بكـــل من فيها وما فيها إلا الله سبحـــانه وتعـــالى، والقيم جميـــعاً مشـــدودة إليـــه بدءاً وعـــوداً، وفي البدء والعود حركة دائبة فاعلـــة: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٢-١٣).

وثانيهما: أن دور الإنسان في هذه الحركة إنما هو دور «الاســـتخلاف»، و«الاستئمان»، و«التفاعل»، و«أداء الواجب»، وفق منهج الله في أمره ونهيه، وأي علاقة «تنشأ بين الإنسان والكون فهي، في جوهرها، ليست علاقة مالك بمملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها. وأي علاقة تنشأ بـــين الإنسان وأخيه الإنسان، مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك، فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدياً لواجبـــه بهـــذه الخلافة، وليست علاقة سيادة، أو ألوهية، أو مالكية»[١].

وهذا معناه: أن الإنسان، في مفهوم الاستخلاف، عابد مسؤول، مستحضر على الدوام لإرادة الله وقدرته، وهو سيد في الكون بعمارته، لا ســـيد عليـــه بالاستعلاء والتسلط، والقهر والغزو، وهو «أعز وأغلى من كل شيء مـــادي..

(١) المدرسة القرآنية، ص١٢٩.

ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي.. دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول، فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها.. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبيًا كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغِّر، بقدر ما تعظِّم في دور الآلة وتُكبِّر»[1] وكل تحريك للحياة ينافي هذا المقصد «الاستخلاف» مكتوب له الفشل، إن لم يكن سبباً في استشراء الفساد والظلم ، وضياع الإنسان، وعذابه في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً.

ويقوم مفهوم «الاستخلاف»، في تحليلي واستقرائي، على مقولات رئيسة، كل مقولة منها تمثل «قيمة»، و«بعداً إيمانياً»، و«منطقاً للممارسة» يتحكم في «السعي الحضاري» للمسلم، فإذا اتخذها المسلم، وعياً وسعياً، أثرت في طرائق تفكيره وفي حركته وسعيه، مما يجعل هذا المفهوم «الاستخلاف» مختلفاً عن أي مفهوم آخر يُسيِّرُ حركة الحياة في الأرض. وهذه المقولات هي:

أولاً: الخلافة الاقتدائية:

فخلافة الإنسان في الأرض ليست خلافة مطلقة، بل هي «خلافة اقتدائية» بالله تعالى، غايتها: تحقيق «مقصد العبادة في الأرض» وفق مراد الله وحده في أمره ونهيه، في جميع الأمور دقيقها وجليلها؛ ومن ثم فإن صفاته تعالى من: العدل، والعلم، والقدرة، والرحمة بالمستضعفين، والانتقام من الجبارين.... وكذلك أمره سبحانه في «فهم مقاصد الحياة» و«فقه حركتها ومحرِّكاتها»، و«إقامة الحق والعدل» و«نصرة المستضعفين في الأرض»، و«بث التوحيد

---

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٦٠.

وإخضاع كل سعي في الحياة لما يوجبه» كل ذلك قيم تستحكم في مجتمع الخلافة، وأهداف للإنسان الخليفة، ينبغي له تحقيقها، وأن يخضع لها في تعامله مع الخالق، وفي تعامله مع الخلق؛ وفي هذا المعنى يقول الإمام الشاطبي: «فالمطلوب منه (أي: الإنسان الخليفة) أن يكون قائماً مقام من استخلفه يُجري أحكامه ومقاصده مجاريها»[1]، وهذا يقتضي أن يكون المسلم في سعيه الحضاري لقيادة الكون، وإعماره اجتماعياً وطبيعياً، محكوماً بقيم (الاستخلاف) التي تؤطر الإنسانَ بفلسفة تكريمٍ كليةٍ مستوعبة، والكونَ والطبيعةَ بفلسفة تسخيرٍ وإعمارٍ لخير الإنسانية.

فالإنسان، في تحريكه للحياة، ليس مخوَّلاً أن يتحرك فيها بهواه، الذي كثيراً ما يجمح إلى الفساد، أو باجتهاد منفصل عن توجيه الله الذي استخلفه واسترعاه، بل «يكون في كل منشط مادي أو معنوي متجهاً إلى الله تعالى، يستجلي مراده ويتحراه، ويبتغي مرضاته، ويَجِدُّ في الفوز بها. وبهذا المعنى تكون حركة الإنسان على الأرض، في كل اتجاهاتها الفردية والجماعية، المادية والمعنوية، حركة عبادة لله تعالى... إن هذا المعنى يعطي إذن للتحضر الإسلامي بعداً خاصاً به، يميزه عن سائر أنماط التحضر الأخرى؛ إذ هو يدرجه جملة في إطار العبودية لله، فهو، إذن، في كل عناصره ومظاهره، مسيرة نحو الله تعالى، وهو تبعاً لذلك يقاس في ارتقائه وهبوطه بمقياس الاقتراب من الله والبعد منه.. ولا نعلم أن حضارة أخرى تشارك الحضارة الإسلامية في هذا المعنى»[2].

---

(١) الموافقات، ٢/٣٣٢.

(٢) عبد المجيد النجار، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية: فقه التحضر الإسلامي، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩م) ١/٥٢.

ومعنى ذلك: أن العمران وبناء الكيان الحضاري يستمد قواعده الإيمانية الأخلاقية، والثقافية العرفانية، والجمالية الفنية، والتقنية المادية من هذه الرؤية الكلية الثابتة؛ فالله عز وجل، في البناء الحضاري الإسلامي، هو هدف الإنسانية جميعها، وغاية لتحركها الحضاري الصالح على الأرض، تسير بالمعاناة والجهد إليه سبحانه، محاولة، في سعيها، التخلق بمعاني أسمائه وصفاته[1]، والتحلي بكمالاتها على قدر الإمكان[2]؛ باعتبارها قيماً تستحكم في مجتمع الخلافة، وأهدافاً للإنسان الخليفة وكلما اقترب خطوة نحو هذا الهدف، وحقق شيئاً منه انفتحت أمامه آفاق أرحب، وازداد عزيمة وجذوة لمواصلة الطريق؛ لأن الإنسان المحدود لا يمكن أن يصل إلى الله المطلق، ولكنه كلما توغل في الطريق إليه اهتدى إلى جديد، وامتد به السبيل سعياً نحو المزيد، في شعور دائم بالافتقار إلى الخالق على أن يلاقيه، فلا يرى شيئاً إلا ويرى الحق فيه، ولا يعرف شيئاً إلا ويعرفه به، مما يمد الحركة الحضارية للإنسان بوقود لا ينفد، وهي تسير في طريق: أوله «الله سبحانه» المحيي، وآخره «الله سبحانه» المميت.

---

(١) يعبر عن ذلك بعض المتصوفة بمصطلح: «التخلق بأخلاق الله» مستدلين بما روي من أثر: «تخلقوا بأخلاق الله تعالى» وهو أثر باطل، كما قال ابن القيم في مدارج السالكين، ٢٤١/٣. ويروى قريباً منه: «إن لله تعالى مائة خلق من أتى بواحد منها دخل الجنة»، ينظر: عمدة القاري، ١٢٥/١؛ وكنز العمال، ٣٣/١؛ وفيض القدير، ٤٨٢/٢)، وهو حديث ضعيف، ينظر: الكامل في ضعفاء الرجال، ٢٩٧/٥؛ وجاء في علل الدارقطني، ٣٨/٣: أنه «غير ثابت».

(٢) انظر: الإمام أبو حامد الغزالي(المقصد الأسنى، ص٤٥-٤٦) حيث تحدث عن حظوظ المقربين من معاني أسماء الله تعالى.

ثانياً: السعي الحي[1]:

والمراد بـ«السعي الحي»، في الأداء الحضاري، كل سعي في الكون موجهاً بقصد التعرف على المكوِّن أفعالاً وأوصافاً، حريصاً على «التوفيق الإلهي» و«العون الرباني»، متخذاً «المنظومة القيمية الإيمانية» وسيلة، فيصل العلم بالأخلاق، والعقل بالغيب، والدنيا بالآخرة، وصلاً حقيقيّاً، في عبودية شاملة لله تعالى، وهذا ما وضحه النبي ﷺ لصحابته رضوان الله عليهم أجمعين، حينما مر عليهم رجل، فرأوا من «جَلَده ونَشَاطه، فَقَالُوا يا رَسُولَ اللَّه، لو كان هذا في سَبِيلِ اللَّه؟! فقال رسول اللَّه ﷺ: **إن كان خَرَجَ يَسْعَى على وَلَده صغاراً فَهُوَ في سَبِيلِ اللَّه، وَإِنْ كان خَرَجَ يَسْعَى على أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ في سَبِيلِ اللَّه، وَإِنْ كان يَسْعَى على نَفْسه يُعِفُّهَا فَهُوَ في سَبِيلِ اللَّه، وَإِنْ كان خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ في سَبِيلِ الشَّيْطَان**»[2]، وهو مقتضى قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩).

وهذا السعي الحي يعد ضابطاً أساسيّاً من ضوابط الحضارة؛ لاستمرارها في عطاء لا ينضب، وفاعلية لا تموت، فهو يضبط حركة الحياة، ويحافظ على

---

(١) «السعي الحي» هو نتيجة «لاستجابة الفاعلة» لأمر الوحي قرآناً وسنة، وهذا المفهوم مستفاد من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤) فكل سعي يرتبط بالله ورسوله، وتتصل فيه الحياة بالدين، وتتأكد معه هيمنة الشرعة والارتباط بأحكامها، لهو سعي يُحيي ويَحيا به الإنسان.

(٢) الحديث من رواية كعب بن عُجَرة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ٤/٣٢٥: «رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال الكبير رجال الصحيح» وروى نحوه البيهقي في سننه الكبرى.

ديمومتها واستمرارها؛ بما يضفيه على حركة الإنسان من غائية وقصد؛ إذ يوسع الإنسان من نظرته إلى الحياة، فلا يقصرها على الدنيا، وملذاتها المادية، بل يجعل وراءها حياة أوسع وأبقى ،لا عناء فيها ولا شقاء هي:«الآخـــرة» وارتباطهـــا بإيثار مرضاة الله تعالى؛ مما يفرض على الإنسان نظرة أعمق وأشمل إلى مصالحه ومنافعه، فتتعادل في حساباته المصالح كلها، وتتوازن في مفاهيمه القيم الفرديـــة والاجتماعية، قيم المادة وقيم الروح، ويجعل- بمقياس مرضاة الله- من الخسارة العاجلة لبعض حقوقه وحرياته الظاهرة ربحاً حقيقياً في هذه النظـــرة العميقـــة، ومن الأرباح العاجلة خسارة حقيقية في نهاية المطاف، مادام كل عمل ونشاط في الحياة الدنيا يُعوَّض عنه بأعظم العوض وأجَلّه في الآخرة، وهو ما يوضـــحه قوله تعـــالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء:١٨- ١٩)

فالعبد لا يزال رابحاً على ربه أفضل مما قدم له، وذلك على قاعدة: «من تـــرك شيئاً لله أعاضه الله خيراً منـــه» والتي جاء تأصيلها في حديث رســـول الله ﷺ في مسند الإمام أحمد من حـــديث أبي قَتَادَةَ وأبي الدَّهْمَاءِ، قَالاَ:«أَتَيْنَـــا علـــى رَجُلٍ من أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقُلْنَا: هل سَمِعْتَ من رسول اللّٰه ﷺ شَيْئاً؟ قـــال: نعـــم سَمِعْتُهُ يقول: **إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً لِلَّهِ عز وجل إلا بَدَّلَكَ الله بِهِ ما هو خَيْـــرٌ لك منه**»[1]، وهذا لا يتحقق في ظل أي فهم مادي لقيم الحياة، بل لا يتحقـــق

(١) مسند الإمام أحمد، ٣٦٣/٥، حديث رقم:٢٣١٢٤.

إلا في ظل الإسلام الذي يربي في المسلم قيم: «التقوى» و«الورع» و«الإيثار» و«تصحيح النوايا» و«الانتصاف من النفس» و«تعميق الحساسية الإيمانية».

وهذا «السعي الحي» في البناء الحضاري الإسلامي، مغاير لطبيعة السعي في النمط الغربي، طينيِّ المَنْبَت، المُنْبَتِّ عن الله غايةً له، وعن منهجه وسيلة، فإن آفاقه أصبحت محدودة بحدود منبته المادي؛ حيث يقوم على «التحكم في الظواهر» و«قلب المفاهيم» و«إشباع الرغبات والملذات» و«التنقل في مراتب المادة» و«الانقطاع عن الخالق» و«الظلم والعدوان» و«بخس الناس أشياءهم» و«الإخلاد إلى الأرض» وهي أمور لا امتداد فيها، حتى نستطيع أن نسمي السعي إليها بـ« السعي الميت»[1]؛ فالساعي فيها إما ساع إلى هلاك، وإما إلى جمود، فيكون كالميت المقبور؛ ولذلك فإن المنخرطين فيه لا يلبثون أن يشعروا بأن مشروعهم قد وصل إلى سقفه، وانه استنفد أغراضه، فتنتهي الآمال لانتهاء الغاية، وينفد الوقود المحرك للحياة فلا يبقى، إذن، إلا «القلق» و«الهم» و«اليأس من الحياة» و«ضياع المعنى لكل شيء»، ويطلق على هذا اللون من السعي في المنظور الإسلامي:«زينة الحياة الدنيا» إذ سرعان ما تنقلب على أصحابها وبالاً وشقاءً[2]، يقول تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٦) ويقول

---

(١) استمداداً من قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ ...﴾ (الأنعام: ١٢٢).

(٢) يقول غارودي:«العلم والتقنيات وسائل مدهشة في خدمة غايات إنسانية، لكن «علماً» ما، وأعني به تنظيماً للوسائل، منفصلاً عن حكمة ما، أي: عن تأمل في الغايات، يصبح أداة تدميرية للإنسان»، وعود الإسلام، ص١١١.

سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤)، كما يطلق عليه:«المعيشة الضنك»، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه:١٢٤)، فالإنسان، في هذا اللون من السعي-«السعي الميت» المجتلب لـ«زينة الحياة الدنيا» و«المعيشة الضنك»- يفقد قيمه كلها، وسعياً وراء «مثله الأعلى» الذي اشتقه من طموحه المحدود، ونظراته القاصرة، فكان «الضياع» و«التيه»[1]، يقول رسول الله ﷺ، في مقارنة دقيقة بين هذين النمطين من السعي:«من كانت الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِناهُ في قَلْبِه، وَجَمَعَ له شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيا وَهِيَ رَاغمَةٌ. وَمَنْ كانت الدُّنْيا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بين عَيْنَيْه، وَفَرَّقَ عليه شَمْلَهُ، ولم يَأْتِه من الدُّنْيا إلا ما قُدِّرَ له»[2]، وهذا معنى قوله:

---

(١) فالمستعرض لآي القرآن الكريم، يدرك أن الأمة التي تتخذ «مثلها الأعلى» من «الطموح المحدود» و«النظرة المستقبلية القاصرة» تمر بمراحل أربع، أولها: مرحلة فاعلية هذا المثل، والمرحلة الثانية: حين يستنفد هذا المثل طاقته وقدرته على العطاء، يتحول إلى تمثال، ويتحول أصحابه إلى سادة وكبراء لا إلى قادة، ويتحول الجمهور إلى مطيعين منقادين لا إلى مشاركين في الإبداع والتطوير، والمرحلة الثالثة: مرحلة الامتداد التاريخي لهؤلاء، والمرحلة الأخيرة: أن تفقد الأمة ولاءها لمثلها الأعلى، ويسيطر عليها مجرموها، وتعيش في تيه لا تستطيع الخروج منه، ينظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص١٤٣ وما بعدها.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه من حديث أنس بن مالك ﷺ (سنن الترمذي، ٦٤٢/٤، حديث رقم:٢٤٦٥).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠) وقولـه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨) والوصول إلى ذلك «لا يمكن إلا بأن يستضيء العقل بنور الشرع، معتمداً على من له الخلق والأمر»[١].

ثالثاً: الحركة المسؤولة:

فإذا كانت الخلافة –في مفهومها الشامل والمتوازن– تعني: تعمير الدنيا وَفق سنن الله ومنهجه، وتمكين الإنسان من التمتع بجميع خيرات الأرض، كما تعني: قدرة الإنسان على اختيار سلوكه بنفسه، فإنها بهذا المعنى مصحوبة بالمسؤولية، بل مؤسسة عليها، «مسؤولية» ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ (القيامة:١٤-١٥) فـ«الاستخلاف» الذي هو منهج رباني في «تحريك الحياة» لن تكتمل فعاليته إلا إذا استشعر الإنسان المسؤولية باتجاه الكون والإنسان والحيوان والحياة، وأنه سيجازى على كل حركة يتحركها في الحياة، إما ثواباً وإما عقاباً، يقول رسول ﷺ: «**دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فلم تُطْعِمْهَا، ولم تَدَعْهَا تَأْكُلُ من خَشَاشِ الأرض**»[٢] ، ويقول ﷺ أيضاً: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فإن**

---

(١) تفصيل النشأتين، ص١٣٩.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث رقم: ٣١٤٠؛ وأخرجه مسلم، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم: ٢٦١٩.

اسْتطَاعَ أن لاَ يَقُومَ حتى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وفي رواية: فَلْيَغْرِسْهَا»[1] قال الإمام المُناوي في شرح الحديث: «وفيه تنبيــه على أن من حق المؤمن ألا يذهب عنه، ولا يزال عن ذهنه، أن عليه من الله عيناً كالئة، ورقيباً مهيمناً، وأجلاً قريباً حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب، وأحسن احتشاماً، وأوفر تحفظاً منه مع الملأ»[2]، ودون ذلك يصبح الالتزام بالشرعة والمنهاج دون ضابط أو مقصد أو غاية.

ولقد صور لنا رسول الله ﷺ مسؤولية العبد عن كل ما يأتيــه في هــذه الحياة، فعن عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، يقول:«سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسؤول عن رَعِيَّتِهِ ؛ الإِمَامُ رَاعٍ ومسؤول عــن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ وهو مسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِهَا ومسؤولة عن رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ ومــسؤول عــن رَعِيَّتِهِ. قال: وَحَسِبْتُ أَنْ قد قال: وَالرَّجُلُ رَاعٍ في مَالِ أبيه ومــسؤول عــن رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ»[3]، فهذا الحديث يبيِّن، كما قال ابن حجر، أن كل مؤمن «مرعيٌّ باعتبار، راعٍ باعتبار، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعياً لجوارحه وحواسه؛ لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده»[4]، وعن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، من حديث أنس بــن مالــك، ١٩١/٣٣، حــديث رقــم: ١٣٠٠٤؛ والإمام البخاري في الأدب المفرد، ١٨٦/١، حديث رقم: ٤٧٩.

(٢) فيض القدير، ١٢/٢.

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٤) فتح الباري، ٣٨١/٢.

أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قال: «قال رسول الله ﷺ:«**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يوم الْقِيَامَةِ حتى يُسْأَلَ عن: عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟**»[1]. مما يفترض المسؤولية، والإحساس بالواجب، كما جاء في الحديث الآخر:«**إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**»[2].

وهذا الشعور العميق بالمسؤولية تجاه الله عزوجل يقتضي:

أولاً: مراعاة قيم الاستخلاف «من جانب الوجود»، وذلك من خلال: التوجه إلى السلوك ومراقبته، مراقبة الذات، ومراقبة الأعمال، فلا ينفك قول الإنسان عن فعله، ولا ينفك علمه بالأشياء عن معرفته بالله، ولا تنفك زيادته في المعرفة عن الإصلاح في الكون؛ إذ يستشعر العبد روح العبادة في كل شيء. ويصبح ملتزماً بالقيم الخلقية والمثل العليا التي يربيه الدين على احترامها، فتنضبط بذلك مطالبه من حقوقه ورغباته، حتى مع مخالفيه، مما يحقق له الصلاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة، والأمن والاستقرار لمجتمعه.

وثانياً: مراعاة قيم الاستخلاف «من جانب العدم»، وذلك من خلال القيام بكل ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع، ورد انحراف الواقع إلى

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال:«هذا حديث حسن صحيح»، سنن الترمذي، ٦١٢/٤، حديث رقم:٢٤١٧.

(٢) صحيح ابن حبان، ٣٤٥/١٠، حديث رقم: ٤٤٩٣؛ وسنن النسائي الكبرى، ٣٧٤/٥، حديث رقم:٩١٧٣، قال الإمام المناوي في فيض القدير، ٢٣٨/٢: «وزاد في رواية: **فأعدوا للمسألة جواباً**، قالوا: وما جوابها؟ قال: **أعمال البر**. خرجه بن عدي والطبراني قال ابن حجر: بسند حسن. واستدل به على أن المكلف يؤاخذ بالتقصير في أمر مَن في حكمه».

المعيار في حدود الطاقة والاستطاعة، عملاً بمقتضى قوله ﷺ: «مَن رأى مِنكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[1] وهذا يجعل النفس أبداً قلقة متحفزة لبذل جهد مع الباذلين، وفي حالة الاستنفار والاستعداد للدفاع عن كل حركة في الحياة، بنفي العبث عنها، والقضاء على التحيز الأعمى للمصلحة الخاصة، وتستبسل في سبيل ذلك، بل وتزيح عن طريقها كل سعي لا يتفق وشرط «الاستخلاف» يحكم الإنسان في ذلك «منطق ركاب السفينة» في المثال الرائع الذي ضربه النبي ﷺ في تحمل المسؤولية، فعن النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الْقَائِمِ على حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فيها كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إذا اسْتَقَوْا من الْمَاءِ مَرُّوا على من فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لو أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقاً ولم نُؤْذِ من فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أَرَادُوا هَلَكُوا جميعاً وَإِنْ أَخَذُوا على أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جميعاً**»[2].

وثالثاً: تحرير الإنسان من الانشداد إلى الدنيا وزينتها؛ إذ إن مراعاة قيم «الاستخلاف» وما يتأسس عليها من معان إيمانية، وما تدعو إليه من إقامة الحق والعدل، وتحمل مشاق البناء الصالح «بحاجة إلى دوافع تنبع من الشعور بالمسؤولية والإحساس بالواجب، وهذه الدوافع تواجه دائماً عقبة تحول دون

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشركة.

تكونها أو نموها، وهذه العقبة هي الانشداد إلى الدنيا وزينتها والتعلق بالحياة على هذه الأرض مهما كان شكلها؛ فإن هذا الانشداد والتعلق يجمد الإنسان في كثير من الأحيان، ويوقف مساهمته في عملية البناء الصالح؛ لأن المساهمة في كل بناء كبير تعني كثيراً من ألوان الجهد والعطاء، وأشكالاً من التضحية والأذى في سبيل الواجب، وتحملاً شجاعاً للحرمان من أجل سعادة الجماعة البشرية ورخائها، وليس بإمكان الإنسان المشدود إلى زخارف الدنيا والمتعلق بأهداب الحياة الأرضية أن يتنازل عن هذه الطيبات الرخيصة، ويخرج عن نطاق همومه اليومية الصغيرة إلى هموم البناء الكبيرة؛ فلا بد لكي تجند طاقات كل فرد للبناء الكبير من تركيب عقائدي له أخلاقية خاصة تربي الفرد على أن يكون: سيداً للدنيا لا عبداً لها، ومالكاً للطيبات لا مملوكاً لها، ومتطلعاً إلى حياة أوسع وأغنى من حياة الأرض، ومؤمناً بأن التضحية بأي شيء على الأرض لا قيمة له تحضير بالنسبة إلى تلك الحياة التي أعدها الله للمتقين من عباده»[1].

ومن ثم كان الإسلام حريصاً على تحرير الإنسان من الخضوع لأي أمر أو منهج غير منهج الله في أمره ونهيه، فالإنسان في المنظور الإسلامي، كما يقول ابن خلدون «رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له، والرئيس إذا غلب على رئاسته، وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه، وري كبده»[2]، كما كان الإسلام حريصاً على بيان منزلة الدنيا من

---

(١) منابع القوة في الدولة الإسلامية، ص٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ١/ ١٤٨.

الآخرة، وأن أحوال الدنيا ترجع كلها، عند الخالق، على اعتبارها بمصالح الآخرة، وتعميق ذلك في وعي المسلم؛ ليعلم أن ما يفوته من لذات الدنيا لا نسبة له إلى ما يفوته في الآخرة من النعيم، حيث إن الآخرة هي الجزاء الحقيقي والحياة الحقيقة، وكل سعي في الدنيا إنما هو سعي للحصول على الجزاء الحقيقي في الآخرة، أو بعبارة أدق: سعي ممتد، يصل ما بين الحياة الدنيا والآخرة، وأي سعي يخالف ذلك- بأن تملأ الدنيا شغاف قلب العبد، وتستقطب وجدانه بحيث لا يشغله عنها شيء، ولا نظر إلى غيرها- هو سعي لا قيمة له عند خالق الحياة والأحياء، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤)، يقول سيد قطب: «وهكذا يجمع في آية واحدة جميع اللذائذ، والمطامح، والرغائب، ونقط الضعف في نفس الإنسان؛ ليضعها في كفة، ويضع في الكفة الأخرى حُبَّ الله ورسوله، وحب الجهاد في سبيله؛ لتكون التضحية كاملة، والتخلص من أوهاق-أحبال- الشهوات كاملاً؛ فالنفس التي تتحرر من هذا كله، هي النفس، التي يتطلبها الإسلام، ويدعو إلى تكوينها، لتستعلي على الضراوة المذلة، وتملك قيادها وأمرها، وتنزع إلى ما هو أكبر وأبعد مدى من الرغبات الوقتية الصغيرة»[1].

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص٤٢.

ويوضح ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «مَن أصبَحَ والدُّنيا أكبرُ همِّه فلَيْس مِن اللهِ في شيءٍ، وَمَن لم يتقِ اللهَ فلَيْس مِن اللهِ في شيءٍ، وَمَن لم يهتمَّ للمسلمينَ عامةً فلَيْس مِنهُم»[1]، كما يوضح ﷺ في حديث آخر أن «حُبُّ الدُّنْيَا» هو «الْوَهْنَ» الذي يمنع من «فاعلية الأمة» ويقلص من «شهودها الحضاري» ويعطيها: «قابلية للاستخفاف والطاعة»، فيقول ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، فقال قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ من صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ في قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ. فقال قَائِلٌ: يا رَسُولَ اللَّهِ، وما الْوَهْنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[2].

فالمسلم لابد من أن تكون همته مرتبطة بالله، وبعطائه في الآخرة، ويتجانس مع آداب الإيمان، ويصبر على الشدة المصاحبة لذلك؛ حتى يستطيع أن يتحرر من مغريات الأرض، وأن «يحرك الحياة» لصالح الإسلام وفق منهجية «الاستخلاف»، فلا يُرى البتة إلا وهو يقطع مرحلة من مراحل الخلافة في

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، من حديث حذيفة رضي الله عنه، كتاب الرقاق، ٣٥٢/٤، حديث رقم:٧٨٨٩؛ وقد أورد نحوه الطبراني في الأوسط: «عن أبي ذر قال: قال النبي: **من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله في شيء، ومن لم يهتم بالمسلمين فليس منهم، ومن أعطى الذل من نفسه طائعاً غير مكره فليس منّا**» قال الطبراني: «لا يروى هذا الحديث إلا بهذا الإسناد تفرد به يزيد بن ربيعة»، المعجم الأوسط، ١٥١/١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ١١١/٤، حديث رقم:٤٢٩٧؛ وأورد نحوه الإمام أحمد في المسند، ٢٧٨/٥؛ والطبراني في المعجم الكبير، ١٠٢/٢.

الأرض، والتعمير فيها، محققاً قول الله تبارك وتعـالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (الحج:٤١).

فهذه المقولات: «الخلافة الاقتدائية»، و«السعي الحي في تحريك الحياة»، و«الحركة المسؤولة» تعطي لمفهوم «الاستخلاف» ذاتيته ودلالاته الكاملة، كما أنها تضع «الحدود الفاصلة بين الوضع الذي يمكن أن يطلـق عليـه مفهـوم «الاستخلاف» وذلك الوضع المفارق له، والذي يطلق عليه-طبقـاً لمعطيـات مفهوم الاستخلاف- الجاهلية»[1]، بالإضافة إلى أنها تبرز الفارق الكـبير بـين القيم التي تتحكم في سعي الإنسان في المنظور الحـضاري الغـربي(الأنجلـو-أمريكي) «قيم الهيمنة والإذعان» حيث «الأصولية المادية» المجردة، المنقطعة عن «الغيب» و«قيم الوحي» في التوجيه والهداية، وبين قيم الـسعي في المنظـور الحضاري الإسلامي، «قيم الاستخلاف» حيث الارتباط في كل سعي بقـيم الوحي، فينظر الإنسان إلى السماء قبل أن ينظر إلى الأرض، ويؤخذ بعالم الغيب لاكتشاف عالم المادة والحس.

ففي إطار هذه المقولات الثلاثة يُعد «الاستخلاف» قيمة محورية تـتحكم في السعي الحضاري للمسلم، وتحقق الاتساق بين «الفعل البشري» و«المقصد

---

(١) نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة.. دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، ط١ (فرجينيـا: المعهـد العـالمي للفكـر الإسـلامي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص٢٥٥.

الإلهي» من وجود الكون، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متوجهة إلى الله، منضبطة بمعيار الدين، وعاملة على «مقتضى الشرع الإلهي»: كيف هو عند أمر الله ونهيه؟ وكل ذلك ينتج عنه أن المسلم في سعيه الحي للبناء الحضاري، يحصل على «المعية الإلهية» التي تعني: «التوفيق الإلهي» في صحة المقاصد، و«العون الرباني» في نجاعة الوسائل، مما يعينه على تنفيذ مراد الله في الأرض، وإجراء أحكامه فيها، ائتماراً بما أمر وانتهاء عما نهى، فيستحق وصف «الخليفة» كما ورد عن رسول الله ﷺ فيما رواه ثوبان:«**مَن أَمَرَ بالمعْروفِ، ونَهَى عن المُنكرِ، فهُو خليفةُ اللهِ في الأرضِ، وخليفةُ كتابِه، وخليفةُ رسولِه**»[1].

(١) أورده صاحب كنز العمال، ٣/٣٥، حديث رقم: ٥٥٦٤، وقد أورده ابن عدي، في كتابه: الكامل في ضعفاء الرجال،٦/٨٤، من حديث كادح بن رحمة القرني، ثم قال: «عامة ما يرويه غير محفوظة، ولا يتابع عليه في أسانيده ولا في متونه، ويشبه حديثه حديث الصالحين فإن أحاديثهم يقع فيها ما لا يتابعهم عليه أحد».

الفصل الثاني

التزكية وترسيخ الذات الإنسانية

مفهوم التزكية ومحوريته في مجتمع الاستخلاف:

«التزكية» من أصول القيم الحضارية في الإسلام التي يجب تعزيز الوعي بها؛ إذ إنها تمثل «كليات مرجعية» تعصم الفعل الحضاري للإنسان من الطغيان والاستكبار في الأرض، كما أنها تحمي الحضارات من الزوال السريع، والأفول المحتوم، و هي أولى الوسيلتين في عملية التغيير، وإنشاء مجتمع «الاستخلاف»[1]، وأهمهما على الإطلاق؛ لأنها تمثل «منهجية» إسلامية في ترقية الذات الإنسانية وترسيخها، من خلال تربية الإنسان المنوط به أمر الخلافة في الأرض، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)، فبتزكية النفس يتم تزكية الواقع، ومن ثم يعد التغيير الداخلي مقدمة ضرورية للتغيير الخارجي[2]، الذي ينعكس على سعي الإنسان في «تحريك للحياة» وفق مراد الله في أمره ونهيه، فبحركة الإنسان الداخلية، من خلال حريته الملتزمة، يتحرك التاريخ، ويتطور الزمن، وتتغير مظاهر الحياة، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ (النجم:٣٩-٤١)؛

---

(١) الوسيلة الثانية، هي: «الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض» وعلى بيانها ينعقد الفصل الثالث من هذا البحث. وهذا يؤكد ما ذكرته من قبل من أن منظومة المفاهيم الإسلامية، تمثل وحدة مترابطة، يشد بعضها بعضاً في تعالق وتكامل، ولا يمكن الوقوف فيها على حقيقة المفهوم كاملاً إلا بالنظر فيما يتعالق معه، ويتفاعل من مفاهيم أخرى.

(٢) يقول المفكر الفرنسي غارودي: «كل ثورة مآلها الإخفاق إذا تطلع الإنسان إلى تغيير كل شيء إلا تغيير نفسه!!» وعود الإسلام، ص٨٣.

ومن ثم نستطيع القول: إن الحضارة الإسلامية «حضارة إنسانية» تعتمد على «حركة الإنسان» المهتدي بهدايات الخالق العظيم، وهي حركة في اتجاهين متوازيين متكاملين، حركة في داخل الإنسان نفسه من أجل تنميته وتطهيره والصعود به في مراتب الكمال ومدارج الخير، وحركة في الأرض والطبيعة لاستثمارهما والتفاعل معهما، بعيداً عن الرؤية الصادرة عن المادة، والتي تجعل الإنسان سلعة خاضعة لمقاييس الاستخدام والاستغلال، في دنيا منفصلة عن آخرة.

ولأهمية هذه «التزكية» في التغيير، والفعل الحضاري للإنسان الخليفة، وجدنا الأحكام المكية، على حد تعبير الإمام الشاطبي: «مبنية على الإنصاف من النفس، وبذل المجهود في الامتثال بالنسبة إلى حقوق الله، أو حقوق الآدميين»[1] إذ كان ذلك، في بداية الإسلام، مطلباً أساسيًّا لبناء الإنسان الخليفة، ومقصداً ضرورياً من مقاصد الشريعة ذاتها، بل هي ركن من الأركان الأربعة التي بعث النبي الأعظمﷺ لتحقيقها وتكميلها، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢)؛ ولهذا عقد الإمام الراغب مبحثاً في كتابه الذريعة إلى مكارم الشريعة[2]، بعنوان: «كون طهارة النفس شرطاً في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته» قال فيه: «لا يصلح لخلافة الله تعالى، ولا يكمل لعبادته، وعمارة أرضه، إلا من كان طاهر النفس، قد أزيل رجسه ونجسه؛ فللنفس نجاسة، كما أن للبدن نجاسة.. إنما لم يصلح لخلافة الله تعالى إلا من كان طاهر النفس؛ لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة

(١) الموافقات، ٤/٢٣٦.
(٢) ص٨٦.

البشر في تحري الأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل، فكل إناء بالذي فيه ينضح»، وهذا معناه: أن القيم التي تحقق مقصود الخلافة للأمة، وتحقق تقدمها هي تلك القيم التي تزكي الإنسان، وتزيد في تخلفه، ولا يجوز استبعاد ذلك في أي بناء حضاري؛ ومن ثم لا أبعد إذا قلت: إن الشريعة بأحكامها وتكويناتها المختلفة ومطلوباتها ليست إلا قيماً جوهرية، وأن هذه القيم، في مجملها، راجعة إلى تزكية الإنسان في تعاملاته مع نفسه، وتعاملاته مع غيره، على وفق مقتضى قوله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1] ومن ثم كان المسلم مطالَباً في سعيه الحضاري «دائماً أن يمارس عملية العكوف على الذات؛ لتربيتها على أمر الله، وأخذها بشرع الله، ولا نعني بذلك ضرباً من السلبية، والهروب من الحياة، وفقدان التوازن الاجتماعي، وذلك بالانسحاب من المجتمع، والانقطاع إلى الرياضيات الروحية في الكهوف والجبال، وممارسة الزهد الأعجمي بترك التعامل مع الحياة، وإنما نرى أن ميدان الذات وتزكيتها أكبر من ذلك بكثير، إنه الحياة بكل ما فيها من جوانب الخير والشر، إنها التربية الميدانية التي لا تتم إلا من خلال الممارسة والمعايشة الاجتماعية، والمعاناة اليومية والتحديات المحيطة، واستشعار هذه التحديات، وعدم الذوبان والسقوط أمامها، وإنما الصلابة والاستيعاب وحسن المواجهة، وإن اختلفت فيها مساحة الكر والفر حسب الظروف ومقتضى الحال، ذلك أن التربية الذاتية، أو العكوف على تربية الذات بهذا المعنى، هو الذي تفرد به الإسلام عن سائر الأديان، بزهدها ورهبانيتها وسلبياتها»[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) عمر عبيد حسنه، نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٨١.

بناء المفهوم:

«التزكية» في البناء الحضاري الإسلامي، مفهوم يستجمع معاني: «النمو» و«الخيرية» معاً، يقول الإمام الراغب مبيناً معنى «تزكية النفس»: «تنميتها بالخيرات والبركات»[1]، فهو مفهوم ذو أبعاد قيمية تقوم على أمرين: أولهما: «التطهير»، أو «التخلية» للنفس من كل عوارض القدح، ونوازع الشر، وشوائب الكلالة، التي تتعاور عليها؛ وثانيهما: «الترسيخ»، أو «التحلية» بكل ما فيه «صفاء» النفس، و«بركتها» و«صلاحها»[2].

فالتزكية تخلية (من الرذائل) وتحلية (بالفضائل) بما يستوجب للنفس الصلاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة، فاختار لها ما به كمالها، ودفع الرذائل عنها، ويقابلها مفهوم «التدسية» القائم على «الخفاء» و«الإغواء» و«الإفساد» للنفس بما يستوجب لها الخيبة في الدنيا، والخسران في الآخرة، ويجمع المفهومين قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٧-١٠).

وبالرجوع إلى الدلالات الأصلية لمفهوم «التزكية»[3] نجده قائماً على مجموعة من الدلالات، نجملها فيما يأتي:

---

(١) المفردات، ص٢١٣.

(٢) هناك عدة مفاهيم أخرى، تدل على مفهوم «التزكية» وتتعاور معه في الدلالة على «التطهير» و«الترسيخ» في المنظومة الإسلامية، أشهرها اثنان، هما:
الأول: «المجاهدة» أو «الجهاد الأخلاقي» بمعنى: استفراغ الوسع والجهد في ترقية الذات، تعاملاً مع النفس، وتعاملا مع الغير، والصعود بها إلى مراتب الخير، والوقوف بها ضد نوازع الشر، انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٤ وابن حجر، فتح الباري، ١١/٣٣٨.
الثاني: «سياسة النفس» بمعنى: القيام على النفس بما يصلحها، انظر الراغب، الذريعة، ص٨٤.

(٣) أجمع ما رأيت في هذا، كلام الراغب، رحمه الله تعالى، في كتابه المفردات، ص٢١٣، فقد ذكر أن: أصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله عز وجل، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية...

١- أن «التزكية» بمفهومها الإسلامي متعلقة بـ«التكريم» الذي جعلت منه الشرعة الإسلامية أمراً إلهياً لا يرد عليه النقض، ولا تطوله عناصر الاختيار في التهاون فيه، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)، فبمقتضى التكريم الواجب للإنسان عليه أن يسعى ليزكي نفسه، ويرتقي بها، ويطهرها من كل عوارض القدح التي تتنافى ومقتضيات هذا التكريم، أو تنسلخ به عن حقيقته الإنسانية، فعليه «أن يفعل الفعل الحضاري بما يقتضيه ذلك التكريم المرتبط به لا انفصام له، والتكريم حركة فاعلة تجعل الإنسان سيداً في الكون بفعله وتفاعله وتفعيله، لا عليه بالقهر والسيطرة في حركة غاضبة أو طاغية مستكبرة، هي على الضد من المقصود بالتكريم؛ فالتكريم حالة إنسانية ليست بالطغيان، أو الاستكبار، وليست بالإذعان والخنوع والذل، وليست بالتهور أو الطيش أو الهوى المحض، إنها حركة واعية فاعلة ذات بصيرة تفعل كل ما يقتضي زيادة تكريمها وكرامتها، دون إفراط يحدث حالة نوعية إنسانية أخرى تتسم بالطغيان والكبر والبطر، أو تفريط يحدث حالة من عقلية قطيع لا تعرف من سلوك سوى الإذعان... وفقدان التكريم هو بداية لفقد الإنسان ذاته، بل هو فقد لكل قيمة إنسانية يكون مدارها الاستخلاف، فإن قيم القوة والغطرسة تفقد الإنسان كل قيمة حقيقية وجوهرية في حق الذات والغير معاً، وقيم الهوان والوهن تفقد الإنسان، كذلك، كل قيمة حقيقية وجوهرية في حق الذات والغير معاً»[١].

---

(١) سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ص١٤٢.

٢- أن «التزكية» تنبع من الذات الإنسانية، بل هي التي تظهرها -بخلاف «التدسية» التي تخفي حقيقة الذات الإنسانية- حيث يسعى الإنسان إلى تطهير نفسه من عوارض القدح، وترقية كِيانه، وإصلاح وجوده الإنساني. فهو مفهوم يدفع الإنسان، في سعيه الحضاري، إلى الالتزام بالقيم النافعة الصالحة، من خلال: «مراعاة حق النفس» فيطهرها، وتصحيح السلوك، أصلاً، ومقصداً، ووسيلة. والعمل على «مراعاة حق الغير» إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً، فيتأدب معه، دافعاً عن نفسه كل القيم التي تفسد وجوده، ولا تتفق ومقتضيات ذاته الإنسانية، مما يؤكد تمايز النظرة الإسلامية للإنسان عنها في النموذج الغربي «الأعمى، الذي لا مقصدية إنسانية له» على حد قول غارودي[1] فالإنسان، في المنظور الإسلامي، بلا تزكية كلا إنسان، والأمة بلا تزكية كلا أمة!!

٣- أن «التزكية» عملية متجددة، دائمة، لا تنتهي أبداً؛ فـ«التزكية» لا تعني أبداً أن إنساناً ما قد وصل إلى درجة لا منتهى بعدها، أو أنه وصل إلى الغاية القصوى في تطهير نفسه - بخلاف النموذج الإنساني الأكمل ﷺ- وإنما دلالات «التزكية» و«التطهير»[2] تعني: التجدد، والمراجعة، والمراقبة، والتقويم، وهو ما يقتضي جهداً ارتقائيًا دائماً في رتب متعددة؛ إذ «التزكية» لا تنفك عن عمل، والعمل لا ينتهي إلا بانتهاء الأجل؛ ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها، فهو دائم التنقل من حال

---

(١) وعود الإسلام، ص٨٢.

(٢) فكلاهما من الفعل: «زكّى» و«طهّر» على وزن «فعّل» وهو وزن يدل في العربية على الاستمرار والاستقرار والعمق والرسوخ.

زكي إلى حال أزكى منه، فلا يركن إلى كد، ولا يقف عند حد، حتى يلاقي ربه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق:٦).

٤- أن مفهوم «التزكية» وطبيعة القيم المتعلقة به، وما يقابله من مفهوم «التدسية» يجعل أمر الإنسان بين يديه؛ فيتحمل تبعة مصير، في الدنيا بالصلاح في عمله، والبركة في سعيه، أو الفساد في عمله، والخيبة في سعيه ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦) كما يتحمل تبعة مصيره في الآخرة ثواباً أو عقاباً، ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (طه:٧٦)، مما يثير في حس الإنسان كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه، وهي تبعة ثقيلة لا ينبغي أن يغفل صاحبها أو يغفو!

٥- أن «التزكية» بهذا المفهوم تشعر الإنسان بالحاجة الدائمة، في حركة الحياة، للرجوع إلى «الموازين الإلهية»[١] الثابتة، واستحضارها في سعيه الحضاري، في تعامله مع نفسه، وتعامله مع غيره، فتقتضي التلازم بين «الحق» و«الواجب» بل تعتبر «الحق» قيمة خادمة على الدوام؛ ليظل الإنسان على يقين أن هواه لم يخدعه، و لم يضلله، فلا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل «إلهه هواه»، وبذلك يظل قريباً من الله، يهتدي بهديه،

---

(١) ويمكن أن نطلق على هذه «الموازين الإلهية» في تربية النفس: «فقه الباطن» وهو الفقه الذي يختص بأعمال القلوب، والذي يأتي معضداً ومكملاً لـ«فقه الظاهر» الذي يختص بأعمال الجوارح.

ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق، مستبطناً قيم التوحيد والربوبية، ليكون تجانسٌ وتوافقٌ بين اختياراته في «تحريك الحياة» وبين القدر الرباني السائر، ومعنى ذلك: أن «التزكية» في مفهومها الإسلامي لا يمكن أن تتم بعيداً عن الله، أو تتصف بها أية حركة لا تتم وفق مراد الله في أمره ونهيه[1].

فـ«التزكية» بهذه الدلالات، وما هو في معناها، تعد بعداً محوريّاً في عملية التغيير، وإقامة مجتمع «الاستخلاف» حيث التفاعل مع معطيات الله في الكون ومسخراته، وحيث يكون العبد «ربانيّاً» في الدنيا يعمل من أجل الآخرة، فيحقق «كمال العمارة» في الأرض، ويستحق «الخلافة» عن الله، و«الشهادة» على الخلق، مهتدياً بمنهج الله الموحَى إليه، الذي يضبط الفعل الحضاري المتعلق بالإنسان، حقوقاً وواجبات، سعياً ومسيرة، فكراً وحركة، وسائلَ وغاياتٍ، وذلك من خلال فعل «التزكية» الذي يُعنى «بمراعاة حق النفس» و«بمراعاة حق الغير» ليصل الإنسان إلى درجة الكمال بـ«ترسيخ الذات الإنسانية» فيه، وتفصيل ذلك ما يلي:

أولاً: التزكية بمراعاة حق النفس:

و«التزكية» هنا تقوم على الاجتهاد في تحصيل جملة من الأفعال تتحكم في حركة المسلم في الحياة، تؤدي إلى «تصفية النفس» و«ترقية الذات» و«ترسيخ علاقتها بالله» من خلال: «إخلاص العبودية» و«دوام المراقبة» له، وغير ذلك مما يعرف بـ«أصول مكارم الأخلاق» كما سماها الإمام الشاطبي، ثم قال: «ولم تزل هذه الأصول يندرس العمل بمقتضاها؛ لكثرة الاشتغال بالدنيا،

---

(١) وبهذا يفترق مفهوم «التزكية» الذي يقدم رؤية إسلامية واضحة لتنمية الإنسان وتطهيره، عن مفهوم «التربية» الذي هو معنى «حيادي» لا يحمل أيّاً من هذه المضامين والدلالات.

والتفريع فيها، حتى صارت كالنسي المنسي، وصار طالب العمل بها كالغريب المقصي عن أهله، وهو داخل تحت معنى قوله ﷺ[1]: «**بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غريباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[2].

وهذه الأصول يمكن إجمالها في ثلاثة، هي:

الأصل الأول: تمام التخلق، حيث الغاية في الالتزام بـ «تحسين الخُلق مع الله» بأن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذراً، وأن كل ما يأتي منه، سبحانه، يوجب شكراً[3]، و«تحسين الخُلق مع الخَلق» وذلك ببذل المعروف لهم، وكف الأذى عنهم، وهذا يقتضي: «أمن الخلق منك، ومحبة الخلق لك، ونجاة الخلق بك»[4]، كما يقتضي أن يكون المسلم دائم السعي «في نفع نفسه، واستقامة حاله بنفع غيره»[5].

و«تمام التخلق» على مراتب[6] أعلاها: درجة «المروءة» التي تعني: القيام بأمر الله ونهيه، والتقرب إلى الله بأعلى الأخلاق وأشرفها، وجماع ذلك: «حفظ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً، ١/١٣٠، حديث رقم: ١٤٥.

(٢) الموافقات، ٤/٢٣٧؛ وينظر: الاعتصام، ١/٩٢.

(٣) مدارج السالكين، ٢/٣٢٤.

(٤) المرجع السابق، ٢/٣١٧.

(٥) الموافقات، ٢/١٧٩.

(٦) يرى د. طه عبد الرحمن أن رتب الأخلاق تختلف، فتنزل مراتب أربعة، أدناها مرتبة:«الإنسانية» إذ تدل على مجرد قيام خاصية التخلق بالكائن البشري، تليها مرتبة:«الرجولة» التي هي عبارة عن الارتقاء بهذا التخلق درجات، ثم مرتبة: «المروءة» التي هي بلوغ الكمال في الرجولة نفسها، وتعلوها جميعاً مرتبة:«الفتوة» التي هي أشرف الرتب الأخلاقية، ويتصف بها من حازوا مكارم الأخلاق أجمعها، حيث كمال التدين، وكمال القوة، وكمال العمل معاً. ينظر: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ط٢ (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م) ص١٧٣-١٨٣.

الدين، وصيانة النفس»[1]، و«درجة الفتوة» ومعناها «أخلاق الإيثار»، وهـــي «أن يكون المرء أبداً في أمر غيره لله تعالى»[2].

الأصـــل الثاني: تمام التعقـــل، أو ما يعرف بـــ«حياة العقل»[3] بمعـــنى: ألا يعقل العبد شيئاً إلا وهو يعقله عن الله، وفق أمره ونهيه، فيكون عقله موافقاً للشرع ومقاصده، مخالفا للهوى ومفاسده، وهو ما يعرف بـــ«معقود العقـــل» فقد روى ابن أبي الدنيا، بسنـــده عن ابن عمر، قـــال: قال رســـول الله ﷺ: **«لا يعجبكم إسلام امرئ حتى تعرفوا معقود عقله»**[4].

فهناك فارق، في المنظور الإسلامي، بين عقل يعقل الأشياء عن نفسه، وعقل يعقلها عن ربه، فالثاني هو الذي يهتدي بالله، لا بهواه، إلى معرفة «المقاصد النافعة» واستخدام «الوسائل الناجعة»، يقول الإمام المُناوي[5]: «دين المرء عقله، ومن لا عقل له لا دين له؛ لأن العقل هو الكاشف عن مقادير العبودية، ومحبوب الله ومكروهه، وهو الدليل على الرشد، والناهي عن الغي. وكلما كان حظ العبد من العقل أوفر فسلطان الدلالة فيه أبعد؛ فالعاقل من عقل عن الله أمره ونهيه فائتمر بما أمره وانـــزجر عما نهاه[6] فتلك علامة

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ط٤ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ) ١٠/٣٧٦.

(٢) الإمام السيوطي، معجم مقاليد العلوم، تحقيق، د. محمد إبراهيم عبادة، ط١ (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤ م) ١/٢٢٠.

(٣) مدارج السالكين، ١/٤٤٧.

(٤) ابن أبي الدنيا، العقل وفضله، تحقيق: لطفي محمد الصغير، ط١ (الرياض: دار الرايـــة، ١٤٠٩هـ) ص٣٤.

(٥) فيض القدير، ٣/٥٣٥-٥٣٦.

(٦) حول: «فضل العقل»، انظر الإمام المحاسبي، فهم القرآن ومعانيه، تحقيـــق: حســـين القوتلي، ط٢ (بيروت: دار الكندي - دار الفكر، ١٣٩٨هـ) ص٢٤٦؛ وحـــول مفهـــوم العقل، في المنظور الإسلامي، وفي المناهج العقلانية المجردة، انظر: طه عبد الـــرحمن، سؤال الأخلاق، ص٧٤.

العقل»، وهذا مقتضى ما جاء عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «يَا عُويمر ازْدَدْ عقلاً تَزدَدْ من ربِّك قرباً. قَالَ: قلتُ بأبي أنتَ وأمِّي، وكيفَ لِي بذلك؟ قال: اجتنبْ مَحارمَ الله، وأدِ فرائضَ الله تكنْ عاقلاً، وتنفلْ بالصَّالحــات منَ الأعمالِ تَزْددْ بها في عاجلِ الدُّنيا رفعةً وكرامةً، وتَنلْ بهَا من ربِّكَ القُربَ والعزةَ»[1]، ولا ترى صاحب عقل متهاوناً بالدين إلا «اسْتِثْقَالاً لِمَا تَضَمَّنَهُ الدِّينُ مِنْ التَّكْلِيف، وَاسْتِرْذَالاً لِمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنْ التَّعَبُّد وَالتَّوْقِيف.. وَلَنْ تَرَى ذَلِكَ فِيمَنْ سَلِمَتْ فِطْنَتُهُ، وَصَحَّتْ رَوِيَّتُهُ؛ لأَنَّ الْعَقْلَ يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ هَمَلاً أَوْ سُدًى، يَعْتَمِدُونَ عَلَى آرَائِهِمْ الْمُخْتَلِفَة، وَيَنْقَادُونَ لأَهْوَائِهِمْ الْمُتَشَعِّبَة لِمَا تُؤَوِّلُ إلَيْهِ أُمُورُهُمْ مِنْ الاخْتِلافِ وَالتَّنَازُعِ، وَيُفْضِي إلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ مِنْ التَّبَايُنِ وَالتَّقَاطُعِ، فَلَمْ يَسْتَغْنُوا عَنْ دِينٍ يَتَأَلَّفُونَ بِهِ وَيَتَّفِقُونَ عَلَيْه. ثُمَّ الْعَقْلُ مُوجِبٌ لَهُ أَوْ مَانِعٌ وَلَوْ تَصَوَّرَ هَذَا الْمُخْتَلُّ التَّصَوُّرَ أَنَّ الدِّينَ ضَرُورَةٌ فِي الْعَقْلِ، وَأَنَّ الْعَقْلَ فِي الدِّينِ أَصْلٌ، لَقَصَّرَ عَنْ التَّقْصِيرِ، وَأَذْعَنَ لِلْحَقِّ وَلَكِنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ فَضَلَّ وَأَضَلَّ»[2].

فالعقل الكامل هو ما كان مفضياً إلى القرب من الله، تدبراً، وهو ما كان من النظر متجهاً إلى إدراك الغايات والمآلات، واعتباراً، وهو ما كان من النظر محققاً للعبور من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المقصدية، من أحكـام النظـر إلى أسرار العبر. ومتى ما وضعنا هذا في الاعتبار -الربط بين العقل والشرع- عرفنا أن العقل المرتبط بالله هو أتم عقل يمكن أن يمتلكه الإنسان، وبـذلك يلـزم أن

---

(١) أخرجه الترمذي في النوادر، ينظر: فيض القدير، ٨٦/١، وزوائد الهيثمي، ٨٠٨/٢، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر، باب العقل وفضله، ١٢٤/١٢.

(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٤٥.

تكون عقلانية الإسلام أسمى عقلانية ممكنة، كما يلزم أن يكون عقل المسلم أسمى عقل ممكن، متى اهتدى في حياته بهدي ربه[1].

الأصل الثالث: تمام التعبد، بمعنى: استحضار العبودية لله في كل شيء، والتدرج في منازل القرب من الحق سبحانه، كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: «قال رسول الله ﷺ: إنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[2]، فمن تمام التعبد أن يؤمن العبد بوجود الألوهية وراء كل شيء، و«يعلم» أن الحق يخاطبه في كل شيء، وأن هذه المخاطبة مستمرة استمرار الحياة، فحيثما توجه وجد ربه، مراعياً أمره ونهيه. ويوقن أن رؤية الله له لا تنقطع؛ ومن ثم فهو في كل أعماله مطالب بأن يراقب نفسه، ويراقب ربه، فلا يرى إلا الله سبحانه، ولا يعرف إلا هو، ولا يفر إلا إليه هو، ولا يحيا إلا متوجهاً إليه هو، فيصلَ إلى مرتبة «الإحسان» التي سئل عنها النبي ﷺ فأجاب: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ**»[3].

ويعين المتعبد على بلوغ تلك المرتبة «تمام التعبد» جملة من أعمال القلوب، أهمها:

---

(١) سؤال الأخلاق، ص١٦٢.

(٢) صحيح البخاري (كتاب: الرقاق، باب: التواضع، ٥/٢٣٨٤، حديث رقم:٦١٣٦).

(٣) سبق تخريجه.

- **الإخلاص**، وهو «تصفية الفعل» بمعنى: إشهاد الله تعالى على كل فعل يأتي به العبد، وتجريده عن أن يشوبه باعث لغير الله؛ حتى يتولاه بالتسديد، فلا يعرض له الباطل، ولا يدخل عليه الإحباط، وبه تصير أعمال العباد «كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً»[1]، وهذا مقتضى قوله ﷺ: «**مَن أعْطَى للّه تَعَالَى، وَمَنَعَ للّه تَعَالَى، وَأحَبَّ للّه تَعَالَى، وَأَبْغَضَ للّه تَعَالَى، وَأَنْكَحَ للّه تَعَالَى، فَقَد استَكْمَلَ إيمَانَهُ**»[2]، وهذا المفهوم من شأنه أن يخرج كل حركات الإنسان من دائرة العبث إلى دائرة المعنى، ومن اعتبار الشكل إلى اعتبار المضمون، ومن النظر في الأحوال إلى استشراف المآلات، كما جاء في حديث أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، رضي الله عنه قال: «جَاءَ رَجُلٌ إلى النبي ﷺ فقال: أَرَأَيْتَ رَجُلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الأجْرَ وَالذِّكْرَ مَالَهُ؟ فقال رسول اللّه ﷺ **لا شَيْءَ لَه**، فَأَعَادَهَا ثَلاثَ مَرَّات يقول له رسول اللّه ﷺ **لا شَيْءَ له**، ثُمَّ قال: **إنَّ اللّهَ لا يَقْبَلُ من الْعَمَلِ إلاّ ما كان له خَالصاً وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»[3].

---

(1) المرجع السابق، ١/٨٣.
(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند، حديث رقم: ١٥٦٥٥؛ وأورد نحوه الإمام الترمذي في سننه، ٤/٦٧٠، حديث رقم:٢٥٢١، وقال: «حديث حسن». وأورده الحاكم في المستدرك، حديث رقم:٢٦٨٤، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».
(3) أخرجه الإمام النسائي في سننه، ٦/٢٥، حديث رقم: ٣١٤٠، والطبراني في الأوسط، ٢/٢٥، والكبير، ٨/١٤٠.

- الحياء، هو ضد «الوقاحة» والمراد به: عقل النفس عن الرذيلة، فهو المبدأ الأخلاقي الأبرز، والمقوِّم الأول، الذي يحفظ علاقات الإنسان في تعامله مع (الآخر) والحقيقة أنه ليس في مكارم الأخلاق خلق يجمع بين «جلب الإيمان بالله» و«درء وصف الوقاحة» في كل حركات الإنسان، وسعيه في الحياة، مثلما يجمعها خلق «الحياء»؛ وإذا كان «الوقح» يشعر بأنه استوفى (الغير) حقه، وهو لم يوفه شيئاً، فإن «الحيي» على العكس من ذلك، يشعر بأنه قصر في حق (الغير)، وإن وفاه حقه؛ ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «**الحياءُ وَالإيمانُ قُرِنَا جَميعاً، فَإذَا رُفِعَ أحدُهُما رُفِعَ الآخَرُ**»[1]، ويقول: «**إنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً، وَخُلُقُ الإِسْلامِ الْحَيَاءُ**»[2]، ويقول الإمام الراغب: «الحياء أول ما يظهر في الإنسان من أمارة العقل، والإيمان آخر مرتبة العقل، ومحال حصول آخر مرتبة العقل لمن لم يحصل له المرتبة الأولى، فبالواجب إذا كان من لا حياء له، فلا إيمان له»[3]، وإنما كان للحياء تلك المنزلة في منظومة القيم الإسلامية؛ لأنه هو المانع من اقتراف القبائح، والاشتغال بمنهيات الشرع، ومستهجنات العقل، قال الإمام المناوي: «الحياء هو الدين كله؛ لأن مبدأه ومنتهاه يفضيان إلى ترك القبيح، وترك القبيح خير لا محالة، فكان لا يأتي إلا بخير، ولأن من استحيا من الخلق قل شره وكثر خيره وغلب عليه السخاء والسماح الموصلان

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٧٣/١، حديث رقم: ٥٨، قال: «هذا حديث صحيح على شرطهما فقد احتجا برواته ولم يخرجاه بهذا اللفظ».

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، ٩٠٥/٢، حديث رقم: ١٦١٠، وابن ماجه في سننه، ١٣٩٩/٢، حديث رقم:٤١٨١، والطبراني في الصغير والأوسط والكبير.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٢٨٣.

إلى ديار الأفراح، وأشفق أن يرى أحد في دينه خللاً أو في عمله زللاً فمن ثم كان فيه كمال الدين... الحياء خير كله؛ لأن مبدأه انكسار يلحق الإنسان مخافة نسبته إلى القبيح، ونهايته ترك القبيح، وكلاهما خير. ومن ثمراته مشهد النعمة والإحسان؛ فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه وإنما يفعله اللئيم، فيمنعه مشهد إحسانه إليه ونعمته عليه من عصيانه حياء منه أن يكون خيره وإنعامه نازلاً عليه ومخالفته صاعدة إليه، فملك ينـزل بهذا وملك يعرج بهذا فأقبح به من مقابلة»[1].

وهذا المفهوم من شأنه أن يضبط حركة العبد؛ لأن «الحياء» فيه «سداد العقل»؛ إذ إنه يعقل النفس عن كل رذيلة، كما أن فيه «دوام الحياة» فالحياء، كما يقول ابن القيم، «من الحياة ومنه الحيا للمطر، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم»[2]، وفيه كذلك «السلامة من الآفات» إذ الحياء من الذات يمنع من آفة الشعور بالتفوق، والحياء من الغير يمنع من آفة الشعور بالاغترار، والحياء من الله يمنع من آفة الشعور بالعظمة[3].

- **الورع**، وهو البعد عن الآثام ظاهراً وباطناً[4] وقطع مألوفات النفس، وصدها عن هواها خاصة[5]، ففي حديث أبي ذر، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ

---

(١) فيض القدير، ٤٢٧/٣.
(٢) مدارج السالكين، ٢٥٩/٢.
(٣) طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص١٥٣-١٥٦.
(٤) مدارج السالكين، ٥١٤/١.
(٥) الموافقات، ١٠٦/١.

قال: «لا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، ولا وَرَعَ كَالْكَفِّ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ»[1]، كما قال ﷺ لأبي هريرة، رضي الله عنه: «يا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أَعْبَدَ الناس، وَكُنْ قَنِعاً تَكُنْ أَشْكَرَ الناس، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَأَحْسِنْ جِوَارَ من جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ؛ فإن كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[2]، وإنما كان في «الورع» تمام التعبد؛ لأنه يتطلب «تزكية القلوب» و«تصحيح النوايا» و«تعميق الحساسية الإيمانية» و«الأخذ بالعزيمة» و«الاحتياط من الشبهات» و«اعتماد مبدأ محاسبة الذات» الذي يقوم على: مراقبة الأفعال، ورد الحق إلى أهله، وإصلاح الضرر، والتوبة النصوح، والصدق مع الآخرين. وأن «يخرج العبد من طلب حظوظ السيادة على الكون إلى أداء حقوق العبودية لسيد الكون». ولا شك أن من يُربى على ذلك فإن سيطرته على «حركة الحياة» تكون وشيكة.

- **الصبر**، هو: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه[3]، وهذا معناه: مقاومة العوائق، وتحمل مشاق التزكية، ومجاهدة الأهواء، بالصبر على أوامر الله وعن نواهيه؛ وإذا علم أن «قصد الشارع من وضع الشرائع إخراج النفوس عن أهوائها وعوائدها»[4] فلا مقام يعين على ذلك إلا مقام «الصبر» فهو الذي يحفظ على العبد استدامة ذلك،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، ٢/١٤١٠، حديث رقم:٤٢١٨.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، ٢/١٤١٠، حديث رقم:
(٣) المفردات في غريب القرآن، ص٢٧٣.
(٤) الموافقات، ١/٣٣٦.

ويحمله على الاحتمال، فيصبر على أفعال الخير والصالحات حتى يزداد إقبالاً عليها، كما يصبر عن أفعال الشر والمخالفات حتى يزداد إدباراً عنها؛ ومن ثم كان هو أصل المجاهدة، وعمود تزكية النفس، وكل مقام من مقاماتها لا يتحقق من دونه[1]، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ (العصر: ١-٣)، ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «ما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ من الصَّبْرِ»[2]، إذ من خلاله لا يثبت الإنسان على إتيان المأمورات وترك المنهيات فحسب، بل أيضاً، يثبت على ما ينزل به من مصائب وشدائد، ناظراً إليها على أنها بلاء من الله ليختبر قوة إيمانه، ويعلم صدق جهاده، يقول رسول الله ﷺ: «عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ؛ إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً له»[3].

- **التقوى**، وهي جعل النفس في وقاية من عذاب الله، وذلك بإحكام ما بين الإنسان والخلق، وإحكام ما بين الإنسان وخالقه[4]، وهذا معنى قلبي

---

(١) يقول الإمام ابن القيم في مدارج السالكين، ٢٨/٢: «والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات».

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري في صحيحه، كتاب:الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، ٥٣٤/٢، حديث رقم: ١٤٠٠، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر، ٧٢٩/٢، حديث رقم: ١٠٥٣، ولفظه: «وما أُعطِيَ أحدٌ من عطَاءٍ خَيْرٌ وأوسَعُ من الصَّبْرِ».

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، ٢٢٩٥/٤.

(٤) المفردات في غريب القرآن، ص٥٣٠.

ينشأ عن طاعة الله ائتماراً فتكون واعظاً، وعن طاعته انتهاءً فتكون زاجراً، وأدنى درجاتها: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وسخطه وغضبه وقاية، فلا تلقي بنفسك في ذل الشهوة، وأعلى درجاتها: التبري من كل شيء سوى الله تعالى، وذلك بمراقبة الله، ومحاسبة النفس، وإحسان المرء ما بينه وبين الله، وما بينه وبين الموجودات. وهي بهذا المفهوم، مِلاك الأمر كله، وأصل الأصول؛ لأنها عنوان تمتع الشخص بقيم التزكية، وإرادة تمتيع غيره بها، كما أنها المنطق الأخلاقي الذي يؤطر حركة المسلم في الحياة، ولا يمكن التفاوض بشأنها، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٢٧)، وهي مناط التفاضل بين البشر، ومعياره الوحيد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)، وهي زاد المسلم في تحريكه للحياة، ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: ١٩٧)، ومن ثم كانت وصية الله للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (النساء:١٣١)، كما كانت وصية رسول الله ﷺ للمسلمين أجمعين، فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلاً جَاءَهُ، فقال: أوصني. فقال: سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عنه رَسُولَ اللَّهِ ﷺ من قَبْلِكَ، فقال: أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ؛ فإنه

رَأْسُ كل شيء، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ؛ فإنه رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّـهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؛ فإنه رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ وذكرك في الأَرْضِ»[1]، وهو ما جاء أيضاً في وصيته ﷺ للصحابي الجليل أبي ذر: «اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْـتَ، وَأَتْبِـعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ الناس بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[2].

فهذه الأصول الثلاثة: «تمام التخلق» و«تمام التعقل» و«تمام التعبد» تمثل أصول مكارم الأخلاق، وهي دقائق وأصول لأعمال القلوب، أو كما يقـول الإمام ابن القيم: «فهذه الأركان الثلاثة هي أركان السير وأصول الطريق، التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع، وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف؛ فإن عـدم الإخـلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلف، وإن لم يبذل جهده ويوحد طلبه سار سـير المقيد، وإن اجتمعت له الثلاثة فذلك الذي لا يجارى في مضمار سيره، وذلـك فضل الله يؤتيه من يشاء»[3].

فمن خلال هذه الأصول الثلاثة يتم تزكية الإنسان الخليفة، الذي يستطيع أن يحقق مفهوم «الاستخلاف» ويستعمر الأرض وفق منهج الله في أمره ونهيه،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٨٢/٣، حديث رقم:١١٧٩١، ورواه أبو يعلى في مسنده، ٢٨٣/٢، بلفظ: «عليك بتقوى الله؛ فإنه جماع كل خيـر» قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ٢١٥/٤: «ورجال أحمد ثقات وفي إسناد أبي يعلى ليث بن أبي سليم وهو مدلس».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مدارج السالكين، ٩٧/٢.

ويحرك الحياة على مقتضى «التخلق الرباني» بحيث تسري الحياة الخُلُقية سرياناً في كل ذرة من ذرات بدنه، وكل معنى من معاني روحه، وقد وجد هذا الإنسان في عصور الإسلام الأولى، وسيوجد في أي عصر، إذا ما أُعد الإنسان إعداداً وفق هذا المنهاج في التزكية، حيث يكون العبد في كل أحواله «ربانيّاً»[1] مشتغلاً بالله، مدركاً أن كل اشتغال بغيره ينبغي أن يذكره بالله دائماً وأبداً، متعاملاً فيه فلا يبقى جانب من جوانب حياة المسلم خارجاً عن مراعاة حق الله فيه، مع دوام الافتقار إليه، حتى يصير العمل الشرعي وصفاً راسخاً لا ينفك عن مجموعة حركاته، قولاً أو فعلاً، إشارة أوحالاً، فيسير في «تحريك الحياة» دائراً بين «تلقي الخطاب» من الله في كل شؤون حياته، و«تحمل الرؤية» من الله في كل حركاته، فتكون صلة الإنسان بربه ناظماً لصلاته الأخرى كافة، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢)، فيحصل له «أُنسٌ» يمده بقوة تتغذى بها روحه، ويجد للعمل بسببه حلاوة تستحثه على مزيد من التقرب، و«سَكِينَةٌ» تمكنه من آداب التعامل مع النفس فيراجعها، ومع الغير فيسالمه، ومع الشرع فيرتاح لخدمته، ومع الكون فيتفاعل معه، فيتحقق له «الصلاح» في الحال، و«الفلاح» في المآل.

---

(١) قال الإمام العيني: «الرباني: المتألّه، العارف بالله تعالى»، عمدة القاري، ٢/٤٣. وينظر: مختار الصحاح، وتاج العروس، باب: الراء.

ثانياً: التزكية بمراعاة حق (الغير)[1]:

إذا كان المسلم في سعيه الحضاري يتحكم فيه مبدأ: «الطاعة في العبادة» فإنه أيضاً يتحكم فيه مبدأ: «الطاعة في المعاملة» التي تعني: تزكية النفس بمراعاة حق الغير،في إطار إشكالية «الأنا» و«الآخر» وَفق المنهج الإلهي الذي لا موضع فيه إلا (للعدل) وامتداده (الإحسان) الذي يؤطر حركة المسلم في علاقته بالآخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، قال العلماء: إن هذه الآية الشريفة، أجمع آية في القرآن، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية، لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى[2]، ولما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية على المشركين، قال فصحاؤهم: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال[3].

فسلوك المسلم مع (الغير) وفق منهج التزكية، يتحكم فيه مجموعة من المعايير، هي جماع تلك «الطاعة في المعاملة» بما فيها من دوافع وضوابط، وما ينبثق عنها من مقاصد ووسائل، أهمها:

١- معيار «العدل»، وهو المعيار المحور في قيم التعامل مع (الغير)، فلا ترى القيم الأخرى إلا في سياقه، فجميعها مشدودة إليه بدءاً وعوداً،

---

(١) المراد بـ(الغير): كل ما سوى الذات، سواء أكان هذا (الغير) هو الآخر المسلم المنتسب إلى القيم الأصيلة والمبادئ العليا التي جاء بها الإسلام، أم كان الآخر المفارق في العقيدة والقيم..
(٢) الشيخ مرعي المقدسي، قلائد العقيان، تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، ط١ (دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص٧٥.
(٣) المرجع السابق، ص٧٧.

ومقتضاه: أن يحفظ العبد حق (الغير) كما يحفظ حق (الذات)، وفقاً للمبدأ الإسلامي: «أن لكل خَلق حقاً أو حقوقاً تخصه»، والعدل هو أن يحفظ العبد تلك الحقوق، مراعاة وتأدية، كما يحفظ حق نفسه، أو «توفير الحقوق في المعاملة، بأن تعطي ما أُمرت به من حق الله، وحقوق العباد كاملاً موفراً» كما يقول الإمام ابن القيم[1]، وهو المفهوم من قول النبي ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى يُحبَّ لأَخيه ما يُحبُّ لنَفْسه**»[2]، وقوله ﷺ: «**فَمَنْ سَرَّهُ منْكُمْ أن يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وأن يَدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتُدْرِكْهُ مَوْتَتُهُ وهو يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إلى النَّاسِ الذي يُحبُّ أن يُؤتَى إليه**»[3].

و«العدل» هنا لا يقف عند سقف مقام «المعاملة» بل يتعداه إلى مقام «الحكم»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (النساء:٥٨) فالحاكم إذا تجاوز العدل الدقيق الصارم كان كمن يتصرف في حق غيره، نقصاً واعتداء، وذاك هو الظلم بعينه، وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: فِيمَا رَوَى عن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قال: «**يا عِبَادِي إني حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فلا تَظَالَمُوا**»[4]، وهذا الحديث يوجب على المسلم في كل حركته: «دوام التجرد من أسباب الظلم» و«دوام التوجه إلى الله المتحلي بالعدل»، إنه إطار للحركة الدائمة الصالحة والمصلحة.

---

(١) مدارج السالكين، ٤٧٦/١.
(٢) متفق عليه.
(٣) مسند الإمام أحمد، ١٦١/٢، حديث رقم: ٦٥٠٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، حديث رقم: ٢٥٧٧.

وهذا المعيار في التعامل «العدل» يؤسس لـ«فقه شغوف بأداء الحقوق» كما جاء في أحاديث الحقوق، وأشهرها الحديث المتفق عليه، أنَّ أَبَا هُرَيْـرَةَ، رضي الله عنه، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: حَقُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ خَمْسٌ «رَدُّ السَّلامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ»[1]، كما يؤسس لـ«فقه شغوف بمراعاة الحرمات» التي بينها حديث أبي هُرَيْرَةَ، قال: «قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى ها هنا، وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[2]، وجماع ذلك: «حسن المراعاة، ودوام المراقبة، وتعظيم حرمة (الغير)»[3].

ومما ينبغي التنبه إليه هنا: أن العدل المؤسس «لفقه شغوف بأداء الحقوق»، وآخرَ «شغوف بمراعاة الحرمات» لا يؤسس لحقوق المسلم على المسلم، فقط، بل إنه يؤسس: أن لغير المسلم أيضاً من الحقوق ما ينبغي أن تحترم وتُراعى، وأن يحافظ على حقهم في الاختلاف والمغايرة، بل أوجب الإسلام حراسة هذه المغايرة وهذا الاختلاف، والذود عنهما وحمايتهما، بجعل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الأمر باتباع الجنائز، ٤١٨/١، حديث رقم ١١٨٣. وأخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: من حق المسلم للمسلم، ١٧٠٤/٤، حديث رقم:٢١٦٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، حديث رقم: ٢٥٦٤.

(٣) المرجع السابق، ٣٨٠/١٠.

ذلك ديناً لا يجوز الخروج عنه[1]، يقول رسول الله ﷺ: «**ألا من ظَلَمَ مُعَاهِداً، أو انْتَقَصَهُ، أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أو أَخَذَ منه شيئاً بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يوم الْقِيَامَةِ**، وزاد في رواية البيهقي: وأشار رسول الله ﷺ بأصبعه إلى صدره، «**ألا ومَن قتل مُعَاهِداً له ذمةُ الله وذمةُ رسولهِ حرَّم اللهُ عليه ريحَ الجنةِ ، وإنَّ ريحَها لَتوجَدُ من مسيرةِ سبعينَ خريفاً**»[2].

وقاعدة: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا»[3]، هي الأساس الدستوري الإسلامي، الذي لا يجوز الاجتهاد معه، حتى إن الإسلام لم يعرف مصطلح «الأقلية»، وإنما عرف مصطلح «الأمة الواحدة» بجميع أطيافها، وهذا

---

(١) بخلاف حقوق الأقليات في الدول التي تتغنى بالديمقراطية، فهي حقوق خاضعة لرأي الأغلبية، ولا ضمان لثباتها، وهذا ما نلاحظه الآن في الاستفتاءات التي يقوم بها الأوربيون، بين الفينة والأخرى، لحرمان الأقلية المسلمة من التميز في ثيابها(حيث يمنع الحجاب) ومن التميز في شعائر دينها حيث تمنع المآذن، بناء على استفتاءات الأغلبية!!

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، ٣/١٧٠، حديث رقم:٣٠٥٢، والبيهقي في سننه الصغرى، ٨م١٥٤، حديث رقم:٣٧٦٦، والكبرى، ٩/٢٠٥، حديث رقم: ١٨٥١١.

(٣) وقارن ذلك الموقف الإسلامي مع من يخضعون لحكمه من غير المسلمين، حيث أمن لهم كل حياتهم وأعطاهم من الحقوق ما للمسلمين، واعتبر ذلك ديناً لا يجوز الخروج عنه، قارن ذلك بموقف اليهودية والمسيحية، المحرفة، من (الآخر)، حيث العبودية والظلم، كما جاء في سفر إشعياء، الإصحاح ٤٩، والخطاب لصهيون:«بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك» وفي التلمود: «إن الكتاب المقدس يعلمنا أن نقدر الكلب أكثر من غير اليهودي، فكل يهودي يريق دم غير يهودي، فإنما يقدم أضحية للرب»!! واقرأ ما فعلته الحضارات الأخرى مع الأقليات، فنحن حمينا تلك الأقليات، أما عندهم فقد أبيدت، أو عوملت معاملة ما زالت تلطخ تلك الحضارات بالعار، فكان شعارهم: «إما التنصير وإما الإبادة». ينظر في تفصيل شيء من ذلك: مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، د. رقية العلواني، والله ليس كذلك، للألمانية زيجرد هونكه، والوثنية والمسيحية، لألكسندر كرافتشوك، والمسيحية والسيف للمطران كازاس، وعلى خطى الصليبيين، لجان جوبيير، ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، للأستاذ محمد عبد الله عنان..

ما توضحه «الوثيقة» أو «الصحيفة» أو «الكتاب»[1]، الذي كتبه الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وبين يهود، حيث وادعهم فيه، وعاهدهم، وأقرهم فيه على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، و لم يقتصر الأمر على مجرد الاعتراف بهم، بل امتد إلى اعتبارهم، في إطار الدولة الواحدة، لبنة من لبنات الأمة الإسلامية، بالرغم من اختلاف عقيدتهم، ما داموا قد اختاروا الإسلام اختياراً حضاريّاً يعيشون في كنفه، وإن لم يختاروه اختياراً عقديّاً، ومن ثم فلهم كل الحق في صنع هذا الاختيار الحضاري، والمشاركة في إدارته، وفق منهج الإسلام في ذلك، يقول الإمام القرافي: «إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا، وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام، وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له: أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك؛ صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة، وحكى في ذلك إجماع الأمة»، ومن ثم يجب «الرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم، على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم، لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يُجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد

---

(١) ينظر في تفاصيل تلك الوثيقة: أحمد قائد الشعيبي، وثيقة المدينة الدلالة والمضمون، كتاب الأمة، قطر، ع ١١٠.

لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم...فإن ذلك من مكارم الأخلاق، إلا أنه ينبغي أن يكون لا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، بل امتثالاً منا لأمر ربنا عز وجل، وأمر نبينا ﷺ»[1].

و لم يقف الإسلام بهذا الأفق عند هذا الحد، وإنما امتد ليشمل المتدينين بأفكار ومذاهب وضعية، وعاملهم معاملة أهل الكتاب، وهذا ما عليه الفقه الإسلامي، يقول الإمام القرطبي: «الوصاة بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلماً كان أو كافراً، وهو الصحيح، والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه، روى البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ قال: **ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**، وروى عن أبي شريح أن النبي ﷺ قال : **والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**، قيل يا رسول الله: ومن؟ قال: **الذي لا يأمن جاره بوائقه**. وهذا عام في كل جار، وقد أكد عليه السلام ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات»[2]، وكل ذلك مقتضى قول تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)، ومقتضى هديه ﷺ في احترام حق (الغير)، مهما كان، باعتبار مطلق إنسانيته، فعن عَبْد الرحمن بن أبي لَيْلَى، رضي الله عنه، قال: «كان سَهْلُ بن حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بن سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا

---

(١) الفروق مع هوامشه، ٣/٢٩-٣٠.

(٢) تفسير القرطبي، ٥/١٨٤.

بجنَازَةٍ فقَامَا، فَقيلَ لَهُمَا: إنَّهَا من أهْلِ الأرض، أيْ من أهْلِ الذِّمَّة، فَقَالا: إنَّ النبي ﷺ مرَّتْ به جنَازَةٌ فقَامَ، فَقيلَ له: إنَّها جنَازَةُ يَهُوديٍّ، فقال: أَلَيْسَتْ نَفْساً»[1]، ومن الهدي النبوي في ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير، نقلاً عن الحافظ ابن عساكر: «أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبي ﷺ فقال : الإيمان هاهنا، وأشار إلى لسانه، والنفاق هاهنا وأشار إلى قلبه، ولا أذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: **اللهم اجعل له لساناً ذاكرً، أو قلباً شاكراً، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصيِّر أمره إلى خير.** قال: يا رسول الله، إنه كان لي صاحب من المنافقين وكنت رأساً فيهم، أفلا آتيك بهم؟ فقال: **من أتانا استغفرنا له، ومن أصر على ذنبه فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد ستراً**»[2].

٢- معيار «الإحسان»[3]، فإذا كان «العدل» هو أن يراعي العبد حق (الغير)، معاملة وحكماً، كما يراعي حق نفسه، فإن «الإحسان» هو تقديم حق (الغير) على حق «النفس» أو على حد تعبير الإمام الشاطبي: «إسقاط حظوظ النفس» و«القيام على قدم العبودية»[4] وأدنى ذلك: ملاحظة الخير في أفعال (الغير)، وفي أعلاه التضحية بالنفس من أجل (الغير)، وفي أوسطه الصبر على أذى (الغير)، والتماس العذر له، والعفو عن مساءته، ومكافأة الإساءة

---

(١) متفق عليه.

(٢) تفسير ابن كثير، ٣٨٥/٢، والحديث أورده الإمام السبكي في طبقات الشافعية الكبرى، ١٢٢/١. وهو في مسند الشهاب، ٨٤/٢.

(٣) ليس المراد بـ«الإحسان» هنا إحسان العبودية، الذي هو أعلى مراتب الدين، كما جاء في الحديث: «أنْ تَعْبُدَ اللّهَ كأنّكَ تَرَاهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ»، بل المراد هنا «إحسان المعاملة» الذي هو أعلى مراتب «الخلق» في التعامل مع «الخلق».

(٤) الموافقات، ٢٤٠/٤.

بالإحسان، فلا يكون تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان مجرد تحصيل خـدمات منه، أو توصيلها إليه، وإنما جلب صلاح له أو استجلابه منه، ودفع فساد عنـه أو استدفاعه به[1]، وهذا مقتضى قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ على كل شَيْءٍ**»[2]، يقول الإمام القرطبي في شرح هذا المعنى: «فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى إن الطائر في سجنك، والسِّنَّوْر في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك»[3].

وهذا المعيار في التعامل «الإحسان» يؤسس لـ«فقه شغوف باصـطناع المعروف» فقد ذكر الحافظ ابن أبي الدنيا بسنده: «عن النبي ﷺ قال: **عَلَيكم باصْطناعِ المعروفِ؛ فإنه يمنعُ مصارعَ السوءِ، وعَليكم بصدقةِ السرِّ؛ فإنها تُطفئُ غضبَ اللهِ عز وجل**»[4]، و عَنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُـلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: «يا رَسُولَ اللَّه، أيُّ النـاس أَحَـبُّ إلى اللَّـه؟ وَأيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إلى اللَّه؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: **أَحَبُّ الناس إلى اللَّـه تَعَـالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى اللَّه تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عـلى مُـسْلِم، أو تَكْشِفُ عنـه كُرْبَةً، أو تَقْضِـي عنه دَيْناً، أو تَطْرُدُ عنـه جُوعـاً، وَلأَنْ أَمْشِيَ مع أَخٍ في حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَي من أَنْ أَعْتَكِفَ في هذا الْمَسْجِد - يَعْنِـي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ- شَهْراً وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَه، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَـهُ**

---

(1) طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص٢١.
(2) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الصيد والذبائح، حديث رقم:١٩٥٥.
(3) تفسير القرطبي، ١٠/١٦٦.
(4) ابن أبي الدنيا، قضاء الحوائج، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم (القاهرة: مكتبـة القـرآن) ص٢٥؛ وأورد نحوه البيهقي في شعب الإيمان، ٧/٤٤٥، حيث رقم: ١٠٩٢٧.

وَلَوْ شاءَ أنْ يُمْضيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يوم الْقِيامَةِ، وَمَنْ مَشَى مع أخيهِ في حَاجَةٍ حتى يَتَهَيَّأَ له أَثْبَتَ اللّهُ قَدَمَهُ يوم تَزُولُ الأَقْدَامِ»[1]، و«اصطناع المعروف» الوارد في الهدي النبوي، يمكن أن نسميه بمبدأ: «اقتحام العقبة»[2] الذي يقوم على «تحقيق حرية الغير» و«سد حاجته وعَوَزه»، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ (البلد:١١-١٨).

كما يؤسس«الإحسان» لـ«فقه شغوف بأخلاق الإيثار» وهو فقه يقوم على وجهين، ذكرهما الإمام الشاطبي[3]:

- **الوجه الأول:** إسقاط الاستبداد والدخول في المواساة على سواء «وذلك بأن يرى العبد غيره مثل نفسه، وكأنه أخوه أو ابنه أو قريبه أو يتيمه، أو غير ذلك ممن طلب بالقيام عليه ندباً أو وجوباً، وأنه قائم في خلق الله

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٩١/٨:«أخرجه الطبراني في الثلاثة، وفيه مسكين ابن سراج وهو ضعيف».

(٢) «الاقتحام» هو الدخول في الشيء بقوة، ومن غير روية، ولا نظر إلى المشاق. و«العقبة» هي مرقى صعب من الجبال، والمراد بها هنا كما تفسرها الآية الكريمة: الصالح الذي يستحق أن يبذل الإنسان الجهد في عمله، أو موانع من أحوال لا يصل إليها إلا الصالحون، كما يقول الإمام الراغب في المفردات، ص٤٣، فـ«العقبة هي العمل الذي يرتقي به الإنسان، أي: الذي تتحقق به التزكية الإنسانية، ومعلوم أن لفظ «التزكية» اختص بالدلالة على التنمية العملية للإنسان، و«اقتحام العقبة» هو الدخول بقوة في هذه التزكية»، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص٢٣٤.

(٣) الموافقات، ٣٥٣/٢-٣٥٥.

بالإصلاح والنظر والتسديد فهو على ذلك واحد منهم، تحقيقاً لقول النبي ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ»[1]، وقوله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كان في حَاجَةِ أَخيه كان الله في حَاجَتِه، وَمَنْ فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عنه كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ الله يوم الْقِيَامَةِ»[2]، فإذا صار الأمر كذلك لم يقدر العبد على أن يستبد بشيء لنفسه دون غيره ، ممن هو مثله بل ممن أمر بالقيام عليه، كما أن الأب الشفيق لا يقدر على الانفراد بالقوت دون أولاده وهو محمود جداً، وقد فعل ذلك في زمان رسول الله ﷺ، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إذا أَرْمَلُوا في الْغَزْوِ، أو قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا ما كان عِنْدَهُمْ في ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ في إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ»؛ فَهُمْ مِنِّي وأنا منهم[3]؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان في هذا المعنى الإمام الأعظم، وفي الشفقة الأب الأكبر؛ إذ كان لا يستبد بشيء دون أمته؛ وفي مسلم عن أبي سعيد قال : بَيْنَمَا نَحْنُ في سَفَرٍ مع النبي ﷺ إِذْ جاء رَجُلٌ على رَاحِلَةٍ له، قال: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَميناً وَشِمَالاً فقال رسول اللّه ﷺ: «من كان معه فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِه على من لا ظَهْرَ له، وَمَنْ كان له فَضْلٌ من زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ على من لا زَادَ له. قال: فذكر من أصناف

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

الْمَالِ ما ذَكَرَ حتى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ»[1]، وفي حـــديث ذي دلالة موحية، يجعل الرسول ﷺ، كل ما زاد عن الحاجة، ولا يبذل لمن يحتاجه فهو للشيطان، فعن سَعِيدِ بن أبي هِنْد قال: قال أبو هُرَيْرَةَ : قال رسول اللّه ﷺ: **«تَكُونُ إبِلٌ لِلشَّيَاطِينِ، وَبُيُوتٌ لِلشَّيَاطِينِ، فَأَمَّا إبِلُ الشَّيَاطِينِ فَقَـــدْ رَأَيْتُهَـــا يَخْرُجُ أحدكم بِجُنَيْبَات معه قد أَسْمَنَهَا فلا يَعْلُو بَعِيراً منها، وَيَمُرُّ بأَخِيهِ قد انْقَطَعَ بِهِ فـــلا يَحْمِلُهُ. وَأَمَّا بُيُوتُ الشَّيَاطِينِ فـــلم أَرَهَا**، كان سَعِيـــدٌ يقول لا أُرَاهَا إلا هذه الْأَقْفَاصُ التي يَسْتُرُ الناس بِالدِّيبَاجِ»[2].

وهذا الحديث النبوي الشريف «بذل الفضل» يؤسس لأصل فقهي، وهو: «أن الضرورات تحيل أعمال المروءة إلى واجبات!!» و«أنه إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد!!»[3]؛ ومن ثم قرر الفقهاء: «لو كان رجلان في بادية، فمرض أحدهما وجب على الآخر تعهده»[4]، وهذا من النمط العالي في الفقه الإسلامي الذي تحتاج إليه الأمة في تحريكها للحياة.

- **والوجه الثاني:** الإيثار على النفس، وهو أعرق في إسقاط الحظـــوظ؛ وذلك أن يترك حظ نفسه لحظ غيره، اعتماداً على صحة اليقين، وإصابةً لعـــين التوكل، وتحملاً للمشقة في عون الأخ في الله على المحبة من أجله، و«هو مـــن محامد الأخلاق، وزكيات الأعمال، وهو ثابت من فعل رسول الله ﷺ، ومـــن خلقه المَرْضي، وقد كان عليه الصلاة والســـلام أجود الناس بالخـــير، وأجود

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: اللقطة، حديث رقم:١٢٧٨.

(٢) أخرجه أبو داود، حديث رقم:٢٥٦٨؛ والبيهقي في سننه الكبرى، حديث رقم: ١٠١١٩.

(٣) وذلك مضبوط بأحكام المصالح، والضرورات، وطرائق الحكمة.

(٤) المنثور في القواعد، للإمام الزركشي، ٣/٣٠.

ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة، وقالت له خديجة: إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق. وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منه، وجاءه رجل فسأله فقال: **ما عندي شيء ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه.** فقال له عمر: ما كلفك الله مالا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ ذلك فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم النبي ﷺ وعرف البشر في وجهه وقال: **بهذا أمرت.** ذكره الترمذي»[1]. وهذا اللون من «أخلاق الإيثار» يعين عليه ثلاثة أشياء، ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين[2]، الأول: «تعظيم الحقوق»؛ فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها. الثاني: «مقت الشح»؛ فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار. الثالث: «الرغبة في مكارم الأخلاق» وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره؛ لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق».

٣- **معيار «التراحم»**، وهو من أهم مبادئ «الطاعة في المعاملة»، وقد قرر علماؤنا، رحمهم الله، أن «كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله»[3]، ومداد هذا من قوله ﷺ: «**على كل مُسْلِم صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يا نَبِيَّ اللَّهِ فَمَنْ لم يَجِدْ؟ قال: يَعْمَلُ بيده فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ، قالوا:**

---

(١) الموافقات، ٢/٣٥٥.
(٢) ١/٢٩٩.
(٣) التفسير الكبير، ٢٧/٥٦.

فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قالوا: فَـإِنْ لم يَجِـدْ؟ قـال: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيُمْسِكْ عن الشَّرِّ فَإِنَّهَا له صَدَقَةٌ»[1]، قـال العـلامة ابن حجر: «ومحصل ما ذكر في حديث الباب: أنه لا بد من الشفقة على خلق الله، وهي إما بالمال أو غيره ، والمال إما حاصل أو مكتسب، وغير المال إما فعل وهو الإغاثة وإما ترك وهو الإمساك»[2] ؛ فالأصل في المنظور الإسـلامي، أن الموجودات، على اختلافها، يرحم بعضها بعضاً؛ تخلقاً باسم «الـرحمن» مـن أسمائه تعالى[3]، فيكون حظ العبد من اسم «الرحمن»، كمـا يقـول الإمـام الغزالي: «أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله، عـز وجل، بالوعظ والنصح، بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإزراء، وأن يكون كل معصية تجري في العالم كمصيبة لـه في نفسه، فلا يألو جهداً في إزالتها بقدر وسعه؛ رحمة لذلك العاصي أن يتعـرض لسخط الله، ويستحق البعد من جواره. وحظه من اسـم الـرحيم: ألاّ يـدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلا ويقـوم بتعهده ودفع فقره إما بماله أو جاهه أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن بسبب حاجته؛ رقـة عليـه وعطفاً حتى كأنه مساهم له في ضـره وحـاجته»[4]؛ ومن ثم جاء في الهدي

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: على كل مسلم صدقة، ٥٢٤/٢، حديث رقم: ١٣٧٦.
(٢) فتح الباري، ٣٠٨/٣.
(٣) ينظر في ذلك، ما كتبه الدكتور طه عبد الرحمن، في كتابه: روح الحداثة، المدخل إلـى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص٢٤٤.
(٤) الإمام أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، ط١ (قبرص: دار الجفان والجابي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ٦٤/١.

النبـــوي أن: أَبَا هُرَيْرَةَ، رضـــي الله عنه، قـــال: «قَبَّلَ رســـــول اللّـــه ﷺ الْحَسَنَ بن عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بن حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِساً، فقال الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً من الْوَلَدِ ما قَبَّلْتُ منهـــم أَحَداً، فَنَظَرَ إليـــه رســـول اللّـــه ﷺ، ثُـــمَّ قـــال: من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»[1]، قال العلامة ابن حجر: «قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكـــافر، والبـــهائم المملوك منها وغير المملوك»[2]، وهكذا يتضح أن «التراحم» لا يقـــوم بـــين الآدميين فحسب، بل إنه أيضاً يقوم بينهم وبين الأشياء مـــن حـــولهم، حـــتى الأشياء الساكنة والجامدة؛ فالمسلم، المتخلق باسم «الـــرحمن» يـــرحم أخـــاه المسلم؛ مراعاة لأخوة الدين فيه، ويرحم غير المسلم؛ حفظاً لقيمة الإنسانية فيه، ويرحم غير الإنسان رحمته للإنسان؛ حفظاً لقيمة الوجود فيه، كما أنه يـــؤثر الكونية المأخوذة من الرحمة على كل كونية أخرى، متعلقاً بحق اسم الرحمن فيه!! وهذه المعاني من الرحمة كلها مداد قوله تعالى، في وصف رسالة النبوة الخاتمـــة، وتحديد هدفها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وهذا «التراحـــم» هو معيـــار السلوك الراقي، الذي ينمي في الـــنفس، عند التعامـــل مع (الغـــير)، جوانب: الاعتـــدال والوســـطية، والـــذوقيات وإرهـــاف الحِس، ورِقة الشعور وهـــدوء النفس؛ فاســـم «الـــرحمن» هـــو، بالذات، الاسم الإلهي الذي يزودنا بالقدرة على خُلق «التواصل» و«التعارف» بيننا، ويدفع تحديات الانفصـــال، التي ابتلي بـــها هذا الزمان، فهـــو يقـــضي

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري، ١٠/٤٤٠.

بإيجاد عالم تكون فيه العلاقات بين الأحياء والأشياء جميعاً، علاقات بين أقرباء، أقرباء فيما بينهم، وأقرباء من الرحمن الذي يتجلى عليهم، لا بقهره، وإنما برحمته، بحيث تكون الواجبات فيما بينهم، لا واجبات الأجانب، بل واجبات الأقارب، التي يكون سبيلها سبيل الرفق دون العنف[1]، ففي صحيح مسلم[2]: «عن هِشَامِ بن حَكِيمِ بن حِزَامٍ، قال: مَرَّ بِالشَّامِ على أُنَاسٍ، وقد أُقِيمُوا في الشَّمْسِ، وَصُبَّ على رؤوسهم الزَّيْتُ، فقال: ما هذا؟ قِيلَ: يُعَذَّبُونَ في الْخَرَاجِ، فقال: أَمَا إني سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: **إنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ في الدُّنْيَا**»، بل إن «التراحم» بين الناس هو سبب تنزل رحمة الله عليهم، يقول رسول الله ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ**»[3]؛ ومن ثم حكم علماؤنا أن كل ما يؤدي إلى «غير رحمة» خارج عن الدين، غير معتبر به في ميزان الإسلام؛ لأنه ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب والتراحم والتعاطف والتحابب، فالشريعة «عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا، فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عن الْعَدْلِ إلَى الْجَوْرِ، وَعَنْ الرَّحْمَةِ إلَى ضِدِّهَا، وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنْ الْحِكْمَةِ إلَى العبث، فَلَيْسَتْ من الشَّرِيعَةِ، وَإِنْ أُدْخِلَتْ فيها بِالتَّأْوِيلِ؛ فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بين عِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بين خَلْقِهِ»[4].

---

(١) روح الحداثة، ص٢٦١.
(٢) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، حديث رقم: ٢٦١٣.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، حديث رقم: ١٩٢٤، وقال:«هذا حديث حسن صحيح».
(٤) إعلام الموقعين، ٣/٣.

٤- **معيار المجاهدة**[1]، فالأمة الإسلامية شديدة العناية بمراعاة حق (الآخر)، أفراداً وأمماً، كما أنها شديدة العناية بمحاورته، في إطار يحافظ على المقصود الكوني استخلافاً واستعماراً، لكنها في المقابل تجاهد (الآخر)، وتدافع ظلمه، إن هو حار فجار. ففجور (الآخر)، في المنظور الإسلامي، لا يمكن الاستسلام له، بدعوى التعايش والتعارف؛ إذ ذلك يفرض أشكالاً من العلاقات بين الأفراد، أو الأمم والحضارات، لا يرضى عنها الإسلام، مثل: (التبعية/ والخضوع والخنوع/ والاستسلام والطغيان/ والقابلية للاستخفاف والطاعة/ وعلاقات التمركز والاستئثار/ وعلاقات الهيمنة والسيطرة)[2] فكلها أشكال من العلاقات لا تتفق ومقتضيات «الاستخلاف» و«الاستعمار» كما لا تحقق معاني«خيرية الأمة» أو «شهودها» أو «فاعليتها الحضارية»، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وهذا ما يؤكده الهدي النبوي، فقد روى النسائي وابن ماجه من حديث عائشة، رضي الله تعالى عنها، قالت: «دَخلتْ زينبُ بنتُ جحشٍ، فسبَّتني ، فَرَدعَها النبي ﷺ فأَبَتْ، فقال لي:

(١) المراد بـ«المجاهدة»: المبالغةُ واستفراغُ ما في الوُسْعِ والطاقةِ من قولٍ أو فعلٍ أو نية، فتشمل جهاد النفس والهوى والشيطان، كما تشمل جهاد الآخر، بالقلب عدمَ رضاً بما يفعل، وباللسان، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وبالعلم إقامة للحجة عليه، كما تشمل قتاله، فـ«المجاهدة» مصطلح أعم من مصطلح «القتال» في الفقه الإسلامي.

(٢) سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ص٣٦٠.

سُبِّيها، فَسَببتُها حتى جَفَّ ريقُها في فَمِهَا، فرأيـــتُ وجْهَـــهُ ﷺ يتَهَلَّــلُ»[1]، فالمسلم مطالب أبداً بأن يجاهد أية حركة في الحياة لا تتفق ومعـــايير العـــدل والإحسان والتراحم، ومحاولة إخضاع (الآخر) لها، تنميطاً ،استتباعاً، أو تخريباً وتدليساً، أو استضعافاً وطغياناً.

والجهاد وفق هذا المنظور ليس نقضاً لمبدأ «التعـــارف» أو «التعـــايش» كما يصوره بعض الحانقين على الإسلام، بل بالعكس من ذلك فهو الـــضامن لتحقيق هذا «التعارف» و«التعايش» بين الناس!! فهو دفاع عن الأرض والقيم سواء بسواء، كما أنه عملية تصحيح وتغيير للعلاقات الظالمة الشائهة والطغيان الحضاري الذي تقوم به القوى الغاشمة ضد الأمم المستضعفة، وهو المعنى الذي توضحه مقولة ربعي بن عامر، رضي الله عنه: «إن الله ابتعثنا، والله جاء بنـــا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الـــدنيا إلى ســـعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2]، فالجهاد وفق هذه الرؤية التي توضحها مقولة ربعي «حركة تقويمية تغييرية وتصحيحية، إنـــها لا تقـــف من عناصـــر أو حالات أو مواقف الظلم موقفاً سلبيّاً، وإنما تعبر بذلك عن جملة من الفاعليات يمكن نظمها في العملية الجهادية، في إطار إعادة العلاقـــات إلى أصـــولها، وإلى عناصر حركتها الفاعلة؛ لبناء كيانية دولية، تقوم على قاعدة من العمران الشامل الحقيقي، بحيث يخرج عن حـــد العمـــران الزائف (عناصر الزخرف الحضاري)

---

(١) أورده ابن حجر في الفتح، باب: الانتصار من الظالم، ٥/٩٩، والعيني في عمدة القاري، ٢٩١/١٢.

(٢) تاريخ الطبري، ٤٠١/٢، وتاريخ ابن خلدون، ٥٣٠/٢.

أو العمران الجزئي العنصري (الطغيان الحضاري) و(الاستئثار العمراني). الجهاد وفق هذا التصور تخلية بين الإنسان وحركة اختياراته»[1].

فالأمة الإسلامية المجاهدة لا تجاهد من أجل فرض عقيدها على (الآخر)؛ فإن هذا مناف لمبدأ قرآني يمثل دستوراً إسلامياً لا يمكن الاجتهاد معه، وهو قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦)، بل تجاهد حماية لمبدأ «حرية الاختيار»، فإذا كنا نحرم على أنفسنا إكراه الناس على «الإيمان بالرشد»، فلا أقل من أن نجاهد من يكرههم على «الإيمان بالغي»، وعندما تتدخل أي إرادة بشرية محاولة فرض نمط واحد على الناس بالإكراه، فإن الإسلام يفرض على المسلم الجهاد؛ حماية لحق الناس في الاختيار، ومعاملتهم بالعدل والإحسان، فالأمة المجاهدة هي وحدها التي تملك أن تمنع الإكراه في الدين، وأن تمتنع عنه[2]؛ ومن ثم قرر الهدي النبوي أن «**الجِهَادَ ماضٍ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[3]، إذ هو الضامن، ما بقيت الحياة، لتحقيق خُلق الإنسانية في تعامل الأشخاص والأمم بعضهم مع بعض، بما يحفظ للإنسان كيانه واستمراره، وقيامه بوظيفته، أو بمعنى أدق رسالته، وتفاعله الحضاري، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة:١٩٣) والفتنة، في أدق مدلولاتها

---

(١) العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ص٤١٤.
(٢) ينظر في تفصيل ذلك: محمد جلال كشك، خواطر مسلم، ص١٩-٢٧.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، ١٨/٣، من حديث أنس، رضي الله عنه.

ومفهوماتها: التدليس والتلبيس على الإنسان، و«إكراه الإنسان على ما لم يختره أو يقتنع به، ومنعه من حقه في الاختيار، وفي ذلك إعدام لإنسانيته. وإلغاء إنسانية الإنسان أشد وأخطر، من الناحية العملية والنفسية من إعدام جسده وإنهاء حياته، يقول تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة:٢١٧)»[١].

كما قرر الهدي النبوي طبيعة هذا الجهاد، وأنه ينبغي أن يكون وفق مراد الله في أمره ونهيه، ووفق «الوظيفة الحضارية للأمة»، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: «أن رَجُلاً قال: يا رَسُولَ اللَّه، الرَّجُلُ يُرِيدُ الْجِهَادَ في سَبِيلِ اللَّهِ وهو يَبْتَغِي عَرَضَ الدُّنْيَا، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: لاَ أَجْرَ له، فَأَعْظَمَ الناسُ ذلك، وَقَالُوا لِلرَّجُلِ عُدْ لرسول اللَّهِ ﷺ لَعَلَّهُ لم يَفْهَمْ، فَعَادَ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ يُرِيدُ الْجِهَادَ في سَبِيلِ اللَّهِ وهو يَبْتَغِي عَرَضَ الدُّنْيَا، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: لاَ أَجْرَ له؛ ثُمَّ عَادَ الثَّالِثَةَ فقال رسول اللَّهِ ﷺ: لاَ أَجْرَ له»[٢]، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: «جاء رَجُلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ في سَبِيلِ اللَّهِ؟ قال: **من قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ في سَبِيلِ اللَّهِ**»[٣]، فجملة «في سبيل الله» ضابط منهجي، وإطار قيمي

---

(١) عمر عبيد حسنه، لا إكراه محور رسالة النبوة، ط٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٢/٢٩٠، حديث رقم: ٧٨٨٧، وروى نحوه الحاكم في المستدرك، ٢/٩٤، حديث رقم:٢٤٣٦، وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، حديث رقم: ٢٦٥٥؛ وصحيح مسلم، كتاب: الإمارة، حديث رقم:١٩٠٤.

فارق بين حركة الجهاد القائم على حفظ العمران، ورعاية المقاصد (حفظ: الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال)، ورفع الإصر والأغلال عن البشر جملة، وفق نظرة الإسلام للإنسان والكون والحياة، وبين حركة القتال من أجل العدوان والطغيان، أو خدمة أغراض دنيوية، أو إقامة علاقات الظلم والاستتباع الشائهة، أو محاولة حضارة ما فرض قيمها ونموذجها الحضاري على الآخرين، وفي ضوءٍ من هذا يُفهم حديث الإمام أحمد في مسنده، عن حذيفة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال، محذراً أمته من مغبة الاعتداء، ومن مخاطر إحلال القوة قيمة، بدلاً من البحث عن قوة القيمة وتفعيلها، فقال ﷺ: «**إنَّ قَوْماً كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ، قَاتَلَهُمْ أَهْلُ تجبرٍ وَعَدَدٍ، فأظهر الله أَهْلَ الضَّعْفِ عليهم، فَعَمَدُوا إلى عَدُوِّهِمْ فاستَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ، فَأَسْخَطُوا اللّهَ عليهم إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ**»[1]، قال الإمام ابن كثير: «ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء، فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم (أي: استعبدوهم بعد أن مكنهم الله عليهم، واتخذوهم أدوات في تنفيذ أغراضهم غير المشروعة) أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء، فانقلب نصره لهم سخطاً. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً»[2].

وبهذا يكون الجهاد في منظومة القيم الإسلامية، على خلاف الاعتقاد السائد، لا فضيلة شجاعة شأنه شأن القتال، وإنما فضيلة إحسان شأنه شأن

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٤٠٧/٥، حديث رقم:٢٣٥٠٩، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، ٢٣٣/٥: «أخرجه أحمد، وفيه الأجلح الكندي وهو ثقة، وقد ضُعف، وبقية رجاله ثقات».

(٢) تفسير ابن كثير (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ) ٢٢٧/١-٢٢٨.

الإيثار، وما ذاك إلا لأن جهادنا، حركةً واختياراً، جهاد من أجل خير الإنسانية ونصرها، لا من أجل خير الذات ونصرها، وشتان بين النصرتين!![1]؛ إذ فيه قد يضحي المسلم بنفسه من أجل حفظ حق (الغير) في ممارسة اختياراته، وتهيئة المناخ لأصول العمران والاستخلاف؛ ومن ثم أحاطه الإسلام بمنظومة قيمية مصاحبة له، وحاكمة لحركته ابتداء وانتهاء، مثل:(جعله خياراً استثنائياً وضرورة تُقدر بقدرها وتُراعى في ظروفها ضمن دائرتي الحفظ والعمران/وتحريم العدوان والاعتداء/ وقطع أسباب الاستعباد فهو وسيلة تحريرية لا وسيلة استعباد أو استكراه/ وعدم استئصال شأفة الخصم أو تخريب كياناته وعناصر وجوده واستمراره/ والإبقاء على كل أصول استمرار العمران الحضاري) وغير ذلك مما لا تجد له نظيراً في تاريخ البشر[2]؛ إذ يجب إعمال قيمنا حتى في الحركة الحربية، مما يؤكد أننا لم «ننشر ديننا بالسيف، هذا سخف مبشرين، وعملاء قد تم غزوهم، ولقد مرت على البشرية فترة كان سيفنا وحده هو الذي يتكلم، ولو شئنا، لما بقي غير مسلم في الأرض الممتدة من فيينا إلى الفلبين، ولكننا نستطيع القول: إنه بحماية سيوفنا وحدها أمكن لشتى الأقليات أن تعيش وتستمر إلى اليوم، أليس جديراً بالملاحظة أن الأرض التي سادها الإسلام هي التي تعج اليوم بشتى التجمعات الدينية والمذهبية والقومية واللغوية؟!! بينما صُفِّيَت الأقليات بالسيف والدم في معظم البقاع التي سادتها الحضارات الأخرى، وفي مقدمتها

---

(١) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص٢٦٥.

(٢) العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ص٤١٥، وينظر ما كتبه الدكتور يوسف القرضاوي، في كتابه: فقه الجهاد دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، ط١ (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٩م) فصل: الدستور الأخلاقي للحرب في الإسلام، ١/٧٢٥-٧٥٤.

الحضارة الغربية التي روجت هذا السخف عن طبيعة الجهاد في الإسلام... هؤلاء لم يتركوا شبراً في الكرة الأرضية إلا وصبوا عليه الدمار والخراب؛ من أجل أهداف توسعية واستغلالية وعنصرية»[1].

إن مفهوم «المجاهدة» إذن ، يتحرك ضمن منظومة قيمية منفتحة على قيم (العدل، والإحسان، والتراحم) فهناك صلة حميمة، في المنظور الإسلامي، بين مفهوم «المجاهدة» والعدل وإقامة العمران من جهة، وبينه وبين الإحسان والتراحم من جهة أخرى، إنه تحرك «استخلاف» يُراعى به وفيه حق الغير وحق الذات جميعاً، ومداد هذه المعاني كلها على قول الله عزوجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩)، وهكذا فالعدل، والإحسان، والتراحم، ونصرة المستضعفين على الأرض حقائق تملأ ضمير الحضارة الإسلامية، وليست عناوين تُفعَّلُ وتُستَثْمَر وَفقاً للمصلحة الخاصة، كما دأبت على ذلك هيئة الأمم المتحدة، وكل الهيئات الدولية عادة، وبذلك يكون المسلم وحده، القادر في أي مكان، وفي أي زمان، على إعادة دور عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، الذي انطلق مع إخوانه من جزيرة العرب؛ لنصرة المظلومين والمستضعفين في الأرض، ولتحرير الإنسان من استغلال أخيه الإنسان. وللوقوف ضد النزعة العدوانية في الفطرة البشرية، واستمراء الظلم، وغمط الحق، والقسر والإسراع إلى القوة؛ ومن ثم كان الرد الجهادي الإيماني قدراً محتوماً، وكتب الله أن يكون محركاً أبديّاً من محركات

---

(١) خواطر مسلم، ص٢٤.

الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

فهذه المعايير التي تتحكم في التعامل مع (الغير)، وفق المنظور الإسلامي (العدل، والإحسان، والتراحم، والمجاهدة) تضبط العلاقة بين البشر، أفراداً وجماعاتٍ ودولاً، بناظم هو منهج الله، فتجعلها علاقة أخوة وترابط، يحفها التوادد والتراحم (خلو الصدور من الغل، وطهارة القلوب من الحقد) كما تؤسس لما يمكن أن نسميه بـ«فقه التعارف» أو «التعامل مع الآخر» الذي يعتبر (الآخر) شريكاً حضارياً، سواء أكان من أمة الاستجابة، المؤمن بالقيم الحضارية العقائدية للإسلام، أم كان من أمة الدعوة، محل طرح القيم وتفاعلها، ومحل الحوار والمناقشة والمثاقفة، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمعاملة بالبر والقسط، وهو نموذج إسلام للتواصل، يتجاوز النموذج المعرفي القائم على مجرد «التسامح» الذي هو مفهوم يستبطن أن هذا (الآخر) في درجة أدنى ولكن أنا أتسامح معه! أما المبدأ الإسلامي «التعارف» ففيه الحاجة المتبادلة، والاحتياج المتبادل، مما يفسح المجال أمام التكميل والإثراء، عوض الصراع والتصادم، انطلاقاً من مبدأ: «اعتبار البشرية أسرة واحدة ممتدة» و«أن الإنسان أخو الإنسان، أحب أم كره»[1]، على مقتضى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

(١) وليس الإنسان ذئب الإنسان، حيث (الآخر) من الأشرار، وغير مستقر، ويحتاج إلى يد حازمة، كما ذهبت الفلسفات المعاصرة. ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص٢١٣.

﴿كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١) ، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣) ومقتضى هديه ﷺ، فقد كان من دعائه كل يوم: «**اللهم ربَّنا ورَبَّ كل شَيْءٍ أنا شهيدٌ أنّ الْعبَادَ كُلّهُمْ إخوَةٌ**»[1]، وعن أبي نَضْرَةَ، قال: «حدثني من سمع خُطْبَةَ رسول اللّه ﷺ في وَسَط أَيّام التَّشْرِيق، فقال: **يا أَيُّهَا الناس أَلاَ إنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لعربي على أعجمي، وَلاَ لعجمي على عربي، وَلاَ لأَحْمَرَ على أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ على أَحْمَرَ إلاَّ بالتَّقْوَى. أَبَلَّغْتُ؟** قالوا بَلَّغَ رسول اللّه ﷺ، ثُمَّ قال: **أي يَوْمٍ هذا؟** قالوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قال: **أي شَهْرٍ هذا؟** قالوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قال: **أي بَلَدٍ هذا؟** قالوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قال: **فإن اللّهَ قد حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**- قال وَلاَ أَدْرِي قال أو أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لاَ- **كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا في شَهْرِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا. أَبَلَّغْتُ؟** قالوا: بَلَّغَ رسول اللّه ﷺ. قال: **لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**»[2]؛ مما يجعل الواحد من أبناء الأمة الإسلامية لا هم له إلا الأدب مع من سواه، على مقتضى «المعروف» الذي هو الأصل في تخلُّق المسلم،كما أمره ربه.

كما أن هذه المعايير (العدل، والإحسان، والتراحم، والمجاهدة) تقدم رؤية غير مسبوقة ولا ملحوقة، ومقدمات لحركة في التعامل الدولي لابد من مراعاتها، كما توصل عناصر حركة حضارية واعية، ونظرية عامة ضابطة للعلاقة بين الحضارات، بعيداً عن «وقاحة الاستنكار»، و«وقاحة الاستعلاء»، و «وقاحة

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٣٦٩/٤، حديث رقم:١٩٣١٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٤١١/٥، حديث رقم:٢٣٥٣٦.

الاجتثاث» التي انتهت إليها القيم الكونية المزعومة (التي تمثل عولمة الاستئثار والهيمنة) تحت دعوة إلى حوار زائف للحضارات، لا هم له إلا الهيمنة والسيطرة والطغيان، في ظل مقولات زائفة، من مثل: «نهاية التاريخ» و«صدام الحضارات» و«الشرعية الدولية» وضمن ما أسماه المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي بـ«هندسة الموافقة والقبول» أو«الموافقة بلا موافقة»[1]، تبشيراً بالنظام العالمي الجديد، الذي لا مراعاة فيه إلا لمصالح النمط الحضاري الغربي، والتمكين لامتداده وهيمنة لغته، والتحيز لمفاهيمه وقيمه في تحريك الحياة، وما يتبعه من نماذج ظالمة للعلاقة بين حضارته (الذات) والحضارات الأخرى (الآخر) مثل: (استعباد حضارات/ ونفي الحضارات واستئصالها/ وصدام الحضارات وعلاقات الاستئثار/ وتشكيل الحضارات بالهيمنة/ والتنميط والتهميش للحضارات/ وهندسة الموافقة وحضارة الإذعان/ وتطويع الحضارات وجعلها قابلة للتبعية والاستعمار والانصهار فيما بات يعرف بـ«المجموعة الدولية»[2]، وفرض الرأي والكذب على الشعوب)[3]، وهي نماذج كلها تدور حول المبدأ الخسيس لسادة البشرية الآن: «كل شيء لنا،

(١) ينظر شرحه لهذين المفهومين في كتابيه: أمريكا وإعاقة الديمقراطية، والربح فوق الشعب. وينظر كتاب: المتلاعبون بالعقول، تأليف: هربرت أ. شيللر، ترجمة: عبد السلام رضوان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٤٣، وهو يبيّن كيف يجذب محركو الدمى الكبار في السياسة والإعلام ووسائل الاتصال الجماهيري خطوط الرأي العام.

(٢) وهو مصطلح يعني: الولايات المتحدة الأمريكية، وأية دولة توافق على السير في ركابها، ويقابله مصطلح «الدول المارقة» التي ترفض الخضوع لهيمنة الحضارة(الأنجلو- أمريكية) وبهذا يُؤل المفهوم لمصلحة الأقوى، وتعظيم مصالحه على الأرض وفي الواقع، كما يقول نعوم تشومسكي في كتابه: العولمة والإرهاب، حرب أمريكا على العالم، ترجمة: د. حمزة المزيني، ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣م) ص٧٨.

(٣) ينظر في تفصيل تلك العلاقات الشائنة والظالمة بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى: سيف الدين عبد الفتاح، العولمة والإسلام، رؤيتان للعالم، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) وهذا يدعونا إلى التأمل في الطابع«البراغماتي» لحقوق الإنسان في الغرب، ومفاهيمها التي يُراد إلزام الأمم الأخرى بها.

ولا شيء للآخرين»[1]، وهي تقتضي في ذلك بـ «النموذج الفرعوني»، الذي حدد معالم منهجه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر:٢٩) كما حدد القرآن الكريم معالم أتباعه بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ (الزخرف:٥٤)، ثم كانت العاقبة كما صورها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ (هود: ٩٧-٩٩).

فـ«التزكية» إذن بمظهريها: «مراعاة حق النفس» و«مراعاة حق الغير» منهج إسلامي أصيل وفريد، وقيمة مركزية في «ترسيخ الذات الإنسانية» و«ضبط حركتها في الحياة» وفق منهج الله في أمره ونهيه، بعيداً عن «النموذج الفرعوني» إنْ تعاملاً مع النفس (بالاتصاف بتمام التخلق، وتمام التعقل، وتمام التعبد) وإنْ تعاملاً مع (الغير) (وفق معايير: العدل، والإحسان، والتراحم، والمجاهدة)؛ مما يجعل الأمة الإسلامية، وبحق، أمة القيم (التي تمثل عالمية الاستخلاف والتعارف، ووحدة الانتماء العالمي إلى الله)، كما يجعل العالم الإسلامي مدعوّاً بقوة إلى: تمكين النفوس التي انقادت للشرع أن تقود، وأن تسهم» بفاعلية في بناء النسق القيمي الحاكم والضابط للعلاقة بين الحضارات، صحيح أنه قد لا يستطيع، الآن، أن يسهم في البناء المادي (التقني) بقوة، إلا أن عليه أن يسهم برؤيته في تعارف الحضارات؛ ليرشد المسيرة الحضارية، هذا الإسهام أحد مستويات شهوده الحضاري، والذي يجب ألا نتخلى عنه، وإلا تخلى عنا»[2].

(١) سيف الدين عبد الفتاح، العولمة والإسلام، ص٩٤.
(٢) المرجع السابق، ص١٢١-١٢٢.

الفصل الثالث

الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض

عمارة الأرض صنعة المؤمن:

إذا كانت «التزكية» كما تقدم، هي الركن الأهم في عملية التغيير، وإنشاء مجتمع «الاستخلاف» بما تمثله من منهج إسلامي فريد في ترقية الإنسان في علاقته بربه، وبنفسه، وبأخيه الإنسان، وبعالم الأشياء من حوله، فإن «الاستعمار الإيماني للأرض» هو الركن المكمل لعملية «الاستخلاف» والقيمة الحضارية الكبرى في الإسلام التي تؤطر حركة الاستثمار في الكون، والتعامل مع الأشياء وفق منهج الله في أمره ونهيه؛ حيث المقصد العام للشريعة الإسلامية: إصلاح الأرض وعمارتها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، وتعبيد الفعل البشري لله سبحانه، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متجهة إلى الله (عبادةً كما شرع، وعمارةً للأرض كما أمر) فمهمة الخلافة تقتضي التعمير في الأرض تعميراً مادياً بالمنشآت الصالحة، وبالصناعة والزراعة ومقتضياتهما، وتعميراً معنوياً بإقامة العدل وإشاعة الإحسان بين الناس، يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «إن من أكبر مقاصد الشريعة: الانتفاعَ بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة، بين رعي المنفعة العامة، ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كَدَّ لجمع المال وكسبه، ومراعاة الإحسان للذي بطَّأ به جُهده. وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية»[1]، ويقول الشيخ علال الفاسي: «المقصد العام

(١) التحرير والتنوير، ٢/٤٤٩.

للشريعة الإسلامية هو: عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع»[1].

وهذا «المقصد التشريعي» في الحضارة الإسلامية، يوضحه النهي النبوي عن: «كلالة النفس»[2]، يقول النبي ﷺ: «**لَيْسَ بخيرِكُم مَن تركَ دنياه لآخرتِه، وَلا آخرَتَهُ لِدُنياه، حَتَّى يُصيبَ منهما جميعاً؛ فإنَّ الدنيا بلاغٌ إلى الآخرة، ولا تَكونوا كَلاًّ عَلى النَّاسِ**»[3]، قال الإمام الزمخشري: «كَلٌّ، أي: ثِقَلٌ وعِيالٌ عَلى مَن يلِي أمرَه ويَعُولُه»[4]، فـ«الكَلُّ» من الناس، هو العاجز، الذي يثقل عليه الأمر، فلا ينبعث فيه، بل يتكل على غيره في تحقيق شؤون نفسه، وفي قوله ﷺ: «**ولا تَكونوا كَلاًّ عَلى النَّاسِ**» لمسة حضارية في غاية الأهمية؛ إذ يشير إلى وجوب أن تشارك هذه الأمة في حركة الحياة مشاركة الأقوياء، ولا تكون عالة على غيرها، فتكون أداة طيعة في يد غيرها يوجهها إلى الوجه الذي يريده هو، وليس على الوجه الذي تريده هي، وهذا القول من علامات النبوة؛ إذ تتأمل حولك، فترى كيف ضاع بالغفلة، وكلالة النفس، ما فُتح علينا، فأفضت بنا كلالة

---

(١) مقاصد الشريعة ومكارمها، ط٥ (دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م) ص٤١-٤٢.

(٢) وما أكثر مظاهر هذه «الكلالة» في حياة الأمة الآن، بعد أن تنكبت منهج الوحي في سيرها الحضاري!! ينظر في تعداد مظاهر هذه «الكلالة» في حياة الأمة: عبد المجيد النجار، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فقه التحضر الإسلامي، ٧٦/١.

(٣) رواه ابن عساكر، كما جاء في التيسير بشرح الجامع الصغير للسيوطي، للمناوي، ورمز له بالضعف، ٣٢٣/٢، وينظر في تخريجه: كشف الخفاء للعجلوني، ٢٢٠/٢، وكنز العمال، ٨٩/٣.

(٤) الكشاف، ٥٨١/٢-٥٨٢.

النفس إلى ما أفضت بنا إليه، وطمع عدونا في بلادنا، وكاد لنا، وغفلنا بل كللنا، فكان ما كان!!

فلا ينبغي للمؤمن أن يترك عمارة الأرض، فيصبح عالة على غيره، متكلاً عليه، عاجزاً عن نفع نفسه، متكاسلاً في صنع حياته ومستقبله، منزوياً منكفئاً على نفسه، فيتغلب عليه (الغير)، ويستلبه استلاباً، فيفقد ذاته ومبرر بقائه؛ لما في ذلك من الوهن في النفس والمعاش، و«الانحسار الحضاري» للفرد والأمة، بل ولما في ذلك من الوهن في العبادة نفسها!! إذ إن الفقر، في أغلب أحواله، يلهي عن العبادة، بالإضافة إلى أن كثيراً من عبادات الإسلام تحتاج إلى المال الذي هو عصب كل عمران، كالصدقة، والحج، والجهاد، والبر والإحسان إلى (الغير)؛ ومن ثم قال علماء الإسلام: «نعم العون على تقوى الله الغنى»[1]، كما جاء في الحديث الشريف: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً، هل تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْراً مُنْسِياً؟**»[2] أي: «جاعل صاحبه مدهوشاً، ينسيه الطاعة؛ من الجوع والعري والتردد في طلب القوت»[3]، إضافة إلى ما يجلبه الفقر من حرمان، وانحراف للنفوس، قد ينهدم معه بنيان الأمة ، يقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إذا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»[4]؛ ومن ثم أوجب فقهاؤنا وجوب سعي الدولة نحو الغنى وكفاية الخلق، لما له من آثار إيجابية في أخلاقهم، وهذا ما بينه الإمام الماوردي، في تحليل نفسي

---

(١) الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ) ٣٥٥/٥.

(٢) رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في المبادرة بالعمل، ٥٥٢/٤، حديث رقم:٢٣٠٦، وقال:«هذا حديث حسن غريب» ورواه الحاكم في المستدرك، ٣٥٦/٤، حديث رقم:٧٩٠٦.

(٣) المباركفوري، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي (بيروت: دار الكتب العلمية) ٤٨٨/٦.

(٤) متفق عليه.

يعد من الوثائق الفقهية عالية المستوى، في بيان طبيعة النفس الإنسانية ومحركاتها، وأسباب انحطاطها أو مدارج سلامتها، يقول في بيان القواعد التي تقوم عليها الدولة: «خصب دائم، أي: الوفرة في نتاج الأرض، والممتلكات والأموال، فبها يقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس، وتكثر المواساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدولة وانتظام أحوالها؛ لأن الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والشجاعة»[1].

فهذا واضح في أن «اليسر المادي» الذي يحققه نمو الإنتاج، واستثمار موارد الحياة، هدف يسعى إليه مجتمع المتقين، وتفرضه النظرية التي يتبناها هذا المجتمع ويسير على ضوئها في الحياة، بعيداً عن أخلاقيات الفقر، ومقتضيات الحاجة والعوز؛ ولعل ذلك كان هو السر في كثرة تعوذه ﷺ من «الكسل ورفاقه» كما يقول الصحابي الجليل أنس بن مالك، رضي الله عنه: «كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّه ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: **اللهم إني أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[2]، ولعل ذلك كان هو السر أيضاً، في كثرة نهيه ﷺ عن «التبطل وسؤال الناس» ودعوته إلى «السعي»، في ساحات الحضارة، و«الاحتطاب» من قيمها وأخلاقها وعلومها ومدنيتها ومعاشها، ففي صحيح البخاري: «عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قال: **وَالَّذي نفسي بيده لأَنْ يَأْخُذَ أحدكم حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ على ظَهْرِهِ خَيْرٌ له من أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أو مَنَعَهُ**»[3]،

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص١٢٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، حديث رقم: ٦٠٠٢.

(٣) المرجع السابق، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، ٥٣٥/٢، حديث رقم: ١٤٠١.

وفيــه: «عــن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ وَسَعِيــدِ بن الْمُسَيَّبِ، أَنَّ حَــكِيمَ بن حِــزَامٍ، رضي الله عنه، قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قال: يا حَكِيمُ إِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِــسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ له فيه، وكــان كَالَّــذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى»[1]، وقوله عليه السلام: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى»، جملة بوركت في أمته ﷺ، وهي تزهِّد في المسألة، ومد اليد بالأخذ، ثم هي ترغِّب في الثروة، التي يتحقق فيها مد اليــد بالعطــاء، وحسب المال فضلاً أن تكون اليد به أعلى.

- مفهوم الاستعمار:

واستعمار الأرض، بمفهومه الإسلامي، يعني: الحركــة الحيــة في الأرض؛ لاستثمارها وتعميرها، واستغلال منافعها، وتسخير مرافقها، أي: عمارة الأرض، بمنهج العبودية لله تعالى، والتفاعل مع الكون، علماً بقوانينه، واستثماراً لخيراتــه، وارتفاقاً بمقدراته، في غير سرف ولا عبث ولا إخلال بنظامه الموزون[2].

فهو مفهوم في بنائه الإسلامي، يشير إلى أمرين:

أولهما: أنه حركة موصولة بمفاهيم الإسلام عن الكون والحياة والأحيــاء، وطريقته في تفسير الأشياء، كما أنه مرتبط دائماً وأبداً، ابتداء وانتهاء، بمنــهج الله تدبراً واعتباراً، تحقيقاً لخلافته، وسعياً لعبادته، وقرباً من رضاه ومحبته، من خــلال حركة عمرانية مؤسسة على الوحي، سائرة في صراط الله المستقيم، تقــوم علــى

---

(١) المرجع السابق، حديث رقم: ١٤٠٣.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص٣٤٧، وتاج العروس، ١٣/١٢٩.

«العلم النافع» و«العمل الصالح»، وتلغي من بنيتها الداخلية كل خصوصية تقـــوم على «الأنوية» و«الأنانية» و«الظلم» و«التعصب» و«العنصرية»، وقد جمع القرآن هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: ٦١)، فـ«الاستعمار» للأرض وفق هذا المفهوم القرآني منظومة تحريك كاملة، وواسعة جداً، ينطلق من خلالها المؤمن؛ لكي ينسج علاقاته مع غيره، ومع الطبيعة والأشياء، من زراعة وصناعة وهندسة وبناء، وفق منهج الله في أمره ونهيه، وكل حركة في الأرض لا تكون وفـق منهـــج الله لا تكون «استعمـــاراً» لها، بل هي فساد فيها، والفساد، كما يقول الإمام أبو حيان الأندلسي في تفسيره: (ضد الصلاح، وهو معانـــدة الله في قولـــه: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾)[1]، وهـــكذا يعلم المســلم أن سعيـــه في الحياة، وحركته في اســتثمار طاقات الكون، لا ينبغي أن يكون وسيلة لإتلافها، ولا أداة للتميز عن الآخرين في مظـــاهر الحيـــاة وزينتها، أو حرمانهم من التمتع بطيباتها، وإنما هـــو مـــسؤولية وخلافة ومشاركة.

ثانيهما: أنه حركة مرتبطة بالعبادة بمفهومها الشامل، وفق المبدأ الإسلامي: «كل تصرف للعبد تحت قانون الشرع فهو عبادة»[2]، وهو مبدأ يـــشمل جميـــع حركات الإنسان في الكون؛ ولذلك ربطت وظيفة العمران، في أحـــد أبعادهـــا القرآنيـــة، بعبـــادة الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

---

(١) البحر المحيط، ١٢٤/٢.

(٢) الموافقات، ١٩٤/١.

﴿ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة:١٨)، فيكون سعي العبد في تعمير الأرض، عبادة ، وشعبة من شعب الإيمان البضع والسبعين، احسب منها إن شئت- بين الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته، وإماطة الأذى عن الطريق[١]- كلّ حركة لتعمير الحياة، من التدبر في آفاق الكون، وسنن الحياة، ومحاربة الاستغلال، وإحسان البنيان، وتصريف الأموال، والكسب الحلال....وغير ذلك؛ فكل شعبة من شعب الحياة حين يعالجها الإسلام يمزج بينها وبين شعب الإيمان، ويصوغها في إطار من الصلة الدينية للإنسان بخالقه وآخرته!!.

بل يعد الاستعمار الإيماني للأرض، والسعي في تحريكها بمنهج الله جهاداً في سبيل الله، وجزءاً من معركة الأمة للاحتفاظ بوجودها وسيادها وفق المفهوم العام من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

---

(١) كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ قال:«قال رسول اللهﷺ: الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عن الطَّرِيقِ» كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، ١/٦٣، حديث رقم:٣٥. وقد حاول أصحاب السنن حصر هذه الشعب، كما أقام الإمام للبيهقي على أساسها كتابه: شعب الإيمان، قال الإمام ابن حجر في فتح الباري، ١/ ٥٢-٥٣: «تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان، ولم يتفق من عد الشعب على نمط واحد. وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبان، لكن لم نقف على بيانها من كلامه، وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره وهو: أن هذه الشعب تتفرع عن «أعمال القلب» و«أعمال اللسان» و«أعمال البدن».... وفيه جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف».

(الأنفال: ٦٠) كما ورد عن ابن عباس، رضي الله عنهما، مرفوعاً: «**طلبُ الحلالِ جهادٌ، وإنّ الله عز وجل يحبُّ العبدَ المُحترِفَ**»[١]، وفي رواية: «**طلبُ أو كسبُ الحلالِ فريضةٌ بعدَ الفريضة**»[٢]، وفي رواية: «**طلبُ الحلالِ واجبٌ عَلَى كلِّ مسْلِمٍ**»[٣]، وفي رواية: «**إنَّ مِن الذنوبِ ذنوباً لا يُكَفِّرُهَا الصلاةُ ولا الصيامُ ولا الحجُ ولا العمرةُ**. قالوا: فمَا يُكفِّرُها يا رسولَ الله؟ قال «**الهُمومُ في طلبِ المَعيشَةِ**»[٤]، ولم يكن في صحابة رسول الله ﷺ، وهم المرجعية والمرتكز الحضاري لهذه الأمة، من يميِّز بين الجهادين، جهاد الكسب وجهاد العدو، فقد جاء في ترجمة سعد بن معاذ، رضي الله عنه، «أن النبي ﷺ لما رجع من تبوك استقبله سعد ابن معاذ الأنصاري، فقال: ما هذا الذي أرى بيدك؟ قال من أثر المر والمسحاة، أضرب وأنفق على عيالي، فقبل النبي ﷺ يده، وقال: **هذه يد لا تمسها النار**»[٥]، قال الإمام السرخسي معلقاً على ذلك، في لمسة حضارية في غاية الأهمية: «وفي هذا بيان أن المرء باكتساب ما لا بدّ له منه ينال من الدرجات أعلاها؛ وإنما ينال ذلك بإقامة الفريضة، ولأنه لا يتوصل إلى إقامة الفرض إلا به فحينئذ كان (أي:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال، باب الاحتراف، ص٧١، وأورده ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال، ٢٦٣/٦. قال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة، ٥٠٥/١: «رواه القضاعي من حديث محمد بن الفضل عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عنه، وهو عند أبي نعيم في الحلية، ومن طريقه الديلمي عن ابن عمر، وبعضها يؤكد بعضاً لاسيما وشواهدها كثيرة».

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٧٤/١٠، و نحوه في الأوسط، ٣٧٢/٨. وأورده البيهقي في سننه الكبرى، ١٢٨/٦، قال: «تفرد به عباد بن كثير الرملي، وهو ضعيف».

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، ٢٧٢/٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ٢٩١/١٠:«وإسناده حسن»

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، ٣٨/١.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة، ٨٦/٣.

السعي في الحياة) فرضاً بمنـزلة الطهارة لأداء الصلاة»[1]، بل ذهب الإمام القرطبي إلى أن تحريك الحياة بالتجارة وكسب المال، والجهاد في درجة واحدة سواء، سوى الله بينهما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل:٢٠)، قال القرطبي: «سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، للنفقة على نفسه وعياله والإحسان والإفضال؛ فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنـزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله»[2]، بل ذهب الإمام محمد بن الحسن الشيباني إلى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه «كان يقدم درجة الكسب على درجة الجهاد، فيقول: لأن أموت بين شعبتي رحلي أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله أحبُّ إلي من أن أقتل مجاهداً في سبيل الله؛ لأن الله تعالى قدم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»[3].

وبذلك تكون حركة الحياة- عبر التفاعل مع الكون اعتباراً وتعميراً في خط العبودية لله تعالى- تأخذ، في المفهوم الإسلامي، صفة الواجب، ومفهوم العبادة، وتصير إرادة ربانية ينبغي أن يجري معها المسلم، وينحدر في تيارها، إعمالاً لمقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، وتفعيلاً لمقاصد الشريعة في إعمار الكون، وتحقيقاً لمهام

(١) المبسوط (بيروت: دار المعرفة) ٢٤٥/٣٠.

(٢) تفسير القرطبي، ٥٥/١٩.

(٣) الإمام الشيباني، كتاب: الكسب، تحقيق: د. سهيل زكار، ط١ (دمشق: دار عبد الهادي حرصوني، ١٤٠٠هـ) ص٣٣.

استخلاف الإنسان في الأرض؛ باعتبار البناء العمراني، على تعدد أنماطه، مطلباً دينيّاً شأنه شأن سائر مطالب الدين، يُحاسب المسلم عليه، إن استقال من عمارة الكون، فأخل بواجبات البناء والعمران فيه، قال الإمام الجصاص في بيان قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، يعني أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض، للزراعة والغراس والأبنية»[1].

فاستعمار الأرض، واجب ديني، ومطلب من مطلوبات الإسلام، يجب على الفرد المسلم تحقيقه، فإذا هو أخل به، أو قصر في أدائه، فقد قصر في دينه، وأخل بالغاية التي من أجلها وُجد وهي مهمة الخلافة في الأرض، ولعل ذلك هو أحد المعاني التي يشير إليها حديث النبي ﷺ، وهو يعلمنا أبعاد الدور الحضاري وغايته ومداه، فيقول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند[2]، والإمام البخاري في الأدب المفرد[3]: «**إن قَامَتِ السَّاعَةُ، وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فإن استَطَاعَ ألاَّ يَقُومَ حتى يَغرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**، وفي رواية: **فَلْيَغرِسْهَا**»، وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «**من بنى بُنْيَاناً من غَيْرِ ظُلْمٍ وَلاَ اعْتِدَاء، أو غَرَسَ غَرْساً في غَيْرِ ظُلْمٍ وَلاَ اعْتِدَاء، كان له أَجْرٌ جَارٍ** (وفي رواية: **كان له أَجْراً جَارِياً**) **ما انتفع بِهِ من خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»[4].

فهذان الحديثان، وغيرهما كثير، يشيران إلى أن الدور الحضاري للمسلم في تعمير الأرض، واستثمار طاقات الكون، مستمر منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة

---

(١) أحكام القرآن للجصاص، ٣٧٨/٤.

(٢) حديث رقم: ١٢٩٢٥، ١٨٣/٣.

(٣) حديث رقم: ٤٧٩، ١٦٨/١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم: ١٥٦٥٤، والطبراني في المعجم الكبير، ١٨٧/٢.

الحساب، وأن الحركة الإسلامية في الأرض ينبغي أن تكون حركة إبداعية مستمرة؛ ترقياً في عبادة الله؛ إذ إن «غراسة الفسيلة في هذه الحالة ليست لغاية الارتزاق وتلبية الحاجة، وإنما هي استجابة لغاية التعمير في الأرض، التي هي غاية في ذاتها مطلوبة بالدين. إن من شأن هذا الوعي أن يدفع بالمسلم إلى آفاق الكون يباشرها بالفكر والعمل، بغاية الارتفاق التعميري باعتبار ذلك ديناً، وليس هو مجـــرد ســـد حاجة أو تحقيق رفاه، فيكون الوازع الإيماني في التعمير المادي هو المحرك للنفوس كي تنفر في الانتفاع بالبر والبحر وما فيهما من خير، وفي بناء العمران على اختلافـــه، وفي إقامة التصنيع لإنتاج الكساء والآلة الميسرة للحياة ولطرق العمل للمزيد من الإنتاج. وحينما يكون المســـلم واقعاً في نفسه أن ذلك كله إنما الإقدام عليه هو عبادة لله، فإنه سيكون نافراً إليه كما ينفر إلى سائر العبادات، فإذا نادى داعي العمل في أي مجال كان، لبى المســـلمون نداءه في نفير جماعي كما تراهم يلبون نداء الصلاة من يوم الجمعة»[1].

ويؤكد هذا المعنى- أن تعمير الأرض والبناء فيها وفق منهج الله عبادة يجب على المسلم أداؤها، ويثاب على فعلها، ويأثـــم بتركها- نهيُ النبي ﷺ فيما سبق عن «كلالة النفس» بقوله: «**ولا تكونوا كَلاً عَلى النّاسِ**»، وكذلك ما جاء في صحيح البخـــاري أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْســـاً، أو يَـــزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ، أو إِنْسَانٌ، أو بَهِيمَةٌ، إلا كان له بِهِ صَدَقَة**»[2]، ففي هذا

(١) عبد المجيد النجار، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، عوامل الشهود الحـــضاري، ٢/٢٣٨؛ عماد الدين خليل حول تشكيل العقل المسلم (الرياض: الـــدار العالميـــة للكتـــاب الإســـلامي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص١٣٦.

(٢) سبق تخريجه.

الحديث الشريف دليل على أهمية العمل والسعي الحضاري والتعمير الإيماني للأرض، كما أن فيه دليلاً على فساد ما يذهب إليه بعضهم من الركون والدعة والبعد عن عمران الحياة، بدعوى «الزهد» متذرعين في ذلك بأحاديث من نحو حديث النبي ﷺ: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ**»[1]، وحديث: «**أَلاَ إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ ما فيها، إلا ذِكْرُ اللَّهِ وما وَالاَهُ، وَعَالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ**»[2]. والحقيقة أنهم فهموا معنى الزهد فهماً سلبيّاً، وهو ترك إعمار الحياة، والسعي في الأرض، وهذا مناف لكل حقائق الإسلام، بل المراد من الزهد هنا كما هو واضح «الزهد الإيجابي» الذي يدعو المرء إلى إعمار الدنيا،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، ١٣٧٣/٢ كتاب: الزهد، باب: الزهد في الدنيا، حديث رقم:٤١٠١. والحاكم في المستدرك، ٣٤٨/٤، حديث رقم: ٧٨٧٣، وروايته: «وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ» قال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٥٦١/٤، حديث رقم: ٢٣٢٢، وقال:«هذا حديث حسن غريب»، وأخرجه ابن ماجه في سننه، ١٣٧٧/٢، حديث رقم: ٤١١٢، أما ما يذهب إليه بعضهم من أن النبي ﷺ كان يأتي عليه أوقات يجوع فيها، ولا يجد فيها مالاً؛ مما يعني أنه كان فقيراً، فهذا يحتاج إلى مراجعة؛ إذ الحق أنه ﷺ كان غنيّاً، وقد أحصى الإمام السيوطي في تفسيره «الدر المنثور»، سورة الحشر، مصادر ثروة النبي ﷺ فظهر أنها كبيرة جداً من الفيء والغنائم وغير ذلك، بيد أنه ﷺ كان يدخر منها القليل وينفق الباقي على المسلمين، بل كان في غالب أمره لا يبيت منها شيء عنده، كما جاء في صحيح البخاري ٢٩١/١، عن عُقْبَةَ قال:«صَلَّيْتُ وَرَاءَ النبي ﷺ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قام مُسْرِعاً، فَتَخَطَّى رِقَابَ الناس إلى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ الناس من سُرْعَتِهِ فَخَرَجَ عليهم، فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا من سُرْعَتِهِ، فقال: ذَكَرْتُ شيئاً من تِبْرٍ عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ»، وفي صحيح ابن حبان، ٤١٩/٢: «اشْتَدَّ وَجَعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ سَبْعَةُ دَنَانِيرَ أَوْ تِسْعَةٌ، فقَالَ: يَا عَائِشَةُ مَا فَعَلَتْ تِلْكَ الذَّهَبُ؟ فَقُلْتُ هِيَ عِنْدِي، قَالَ: تَصَدَّقِي بِهَا، قَالَتْ فَشُغِلْتُ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ: مَا فَعَلَتْ تِلْكَ الذَّهَبُ؟ فَقُلْتُ: هِيَ عِنْدِي، فقَالَ: ائْتِنِي بِهَا، قَالَتْ: فَجِئْتُ بِهَا فَوَضَعَهَا فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟ مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟».

والسعي فيها، وفق منهج الله في أمره ونهيه، ووفق قيم الإسلام الحاكمة والضابطة لسعي المسلم في الحياة، فلا يمتلك المرءَ مخيلةٌ و لا بطرٌ، ولا يتحكم فيه إسراف ولا ترف، ولا يغتر بالدنيا وزينتها فيسيرَ فيها ظلماً وطغياناً وفساداً، والذي من شأنه «أن يميت في النفس الاهتمام بالأعمال الصالحة، والمنافسة لاكتسابها، فينحدر به التوغل في الإقبال على اللذات إلى حضيض الإعراض عن الكمال النفساني، والاهتمام بالآداب الدينية»[1]، بل يكون سيداً للدنيا لا عبداً لها، ومالكاً للطيبات لا مملوكاً لها، مسخراً الدنيا لنفسه وفق منهج ربه، وقد كان ذلك منهج نبينا ﷺ وأصحابه الكرام، رضي الله عنهم أجمعين، فقد كان ﷺ يأكل من طيبات هذه الحياة، ولكنه لم يجعلها شغله الشاغل، ولا محور همومه، وكان من دعائه ﷺ دبر كل صلاة: «اللهم أني أعوذُ بِكَ من الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ»[2]، كما كان منه أيضاً: «وَأعوذُ بِكَ من فِتْنَة الدُّنْيَا»[3].

فالمسلمون الذين يمارسون إعمار الأرض بوصفها جزءاً من السماء التي يتطلعون إليها، ويساهمون في تنمية الثروة باعتبارهم خلفاء عليها، أبعد ما يكونون عن «الزهد السلبي» الذي يقعد بالإنسان عن دوره في الخلافة، وأقرب ما يكونون إلى «الزهد الإيجابي» الذي يجعل منهم سادة للدنيا لا عبيداً لها، ويحصنهم ضد التحول إلى طواغيت لاستغلال الآخرين، ونهب خيراتهم، فيكون سعيهم الحضاري في الحياة مؤطراً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٨/٢٠.

(٢) سنن النسائي، باب: التعوذ في دبر الصلاة، ٧٣/٣، حديث رقم: ١٣٤٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من فتنة الدنيا، ٢٣٤٧/٥، حديث رقم: ٦٠٧٢.

أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (المنافقون:٩)، وقولـه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال:٢٨)، والحياة، وفـق هـذا المنهـج في السعي، إنما العـون على الآخـرة، ولا خـير فيمن لا يسعى إليها، أما حينما يتعد السعي في تحريك الحياة عن منهج الله، وتُتخذ وسيـلة للإفساد، أو تُعد غاية الغايات، فهذا هو السعي الذي يبعد الإنسان عن ربه، ويخرجه عـن وظيفة الخلافة في الدنيا؛ ومن ثم يجب الزهد فيها.

ومن أجل أن ينتزع الإسلام من الفرد المسلم هذا التعلق الـشديد بالـدنيا وهمومها أعطى للدنيا حجمها الطبيعي، من حيث هي وسيلة إلى الحياة الآخـرة، وليست هدفاً في ذاتها، والدنيا حينما تتخذ هدفاً يتعارض مع الآخـرة، أي مـع عملية البناء العظيمة التي تدعو إليها الآخرة وتحث عليها، تتحول من دار للتعبـد والاستخلاف، إلى أرض للّهو والفساد. وأما حينما تتخذ الدنيا طريقاً للآخـرة، أي: أداة ينمي الإنسان في إطار خيراتها وجوده الحقيقي وعلاقته بـالله، وسـعيه المستمر نحو المطلق في عملية البناء والإبداع والتجديد، فإن الدنيا تتحول في هـذه النظرة العظيمة من كونها مسرحاً للتنافس والتكالب على المال، إلى مسرح للبنـاء الصالح والإبداع المـستمر، قـال تعـالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧).

أبعاد الاستعمار بمفهومه الإسلامي

أولاً: البعد الإيماني والإنجاز الحضاري في الكون:

المسلم في سعيه الحضاري لتعمير الحياة، واستثمار مواردها، ينطلق من إيمانه بالله تعالى، الذي سخر له كل ما في الكون من موارد، وأمره باستثمارها؛ سعياً لعبادته، وتحقيقاً لخلافته، وطلباً لثوابه ورضاه، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أو يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ، أو إِنْسَانٌ، أو بَهِيمَةٌ، إلا كان له بِهِ صَدَقَة**»[1]، قال العلامة ابن حجر: «وفي رواية لمسلم «**إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة**» ومقتضاه: أن أجر ذلك يستمر ما دام الغرس أو الزرع مأكولاً منه، ولو مات زارعه أو غارسه، ولو انتقل ملكه إلى غيره.. قال الطيبي: نكر مسلماً، وأوقعه في سياق النفي، وزاد من الاستغراقية، وعم الحيوان؛ ليدل، على سبيل الكناية، على أن أي مسلم كان حراً أو عبداً، مطيعاً أو عاصياً، يعمل أي عمل من المباح، ينتفع بما عمله أي حيوان كان، يرجع نفعه إليه ويثاب عليه»[2].

ففي هذا الحديث لمسة حضارية رائعة جاء بها الإسلام في فهم معنى الاستعمار الإيماني للأرض، والدور البشري في ذلك، فاللمسة الحضارية هنا لمستان: النظر الرفيق إلى الحيوان والطير، والنظر التشجيعي إلى كل مسلم إلى السعي والتعمير في الأرض علماً واستنفاعاً؛ ابتغاء الثواب والأجر، حتى ولو كان فاسقاً، تبعاً للتعميم والإطلاق كما شرح الطيبي، بل «وفيه حصول الأجر للغارس

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري، ٥/٤.

والزارع، وإن لم يقصدا ذلك حتى لو غرس وباعه أو زرع وباعه كان له بـــذلك صدقة؛ لتوسعته على الناس.. وفيه الحض على عمارة الأرض لنفسه ولمـــن يـــأتي بعده» تبعاً للتعميم والإطلاق كما شرح العيني[1].

فانطلاق المسلم في تعمير الأرض من الإيمان بالله، هو معيـــار تُقـــيَّم علـــى أساســـه استقـــامة حركته في الحياة أو انحرافها، وهذا المعيـــار يعطي العبـــد في سعيه الحضاري:

- قوة دفع في «تحريك الحياة» ويمنحه قـــدرات فوق قـــدراته المعهودة؛ إذ يسير في إنجـــازه الحضاري مقترناً بإمـــداد الرب وتوفيقـــه، فيبتعـــد عن الظـــن أو الوهم، بل يدرك الأشيـــاء على حقـــائقها، ويفقه منافعهـــا (دفع البـــصيرة) كما جاء في الحديث: «وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّـــهُ، فـــإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»[2].

- كما يمنحه الإيمان بالله وتقواه للذي يملك الحياة والأحياء، بقاءً وامتداداً لأعماله في الزمان وفي المكان (البركة) قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف:٩٦)، فهده الآية الكريمة توقفنا على مفتاح التوفيق الإلهي، وتقرر أصلاً من أصول التصور الإسلامي للاستعمار الإيماني للأرض، وهو: أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه

(١) عمدة القاري، ١٢/١٥٥-١٥٦.

(٢) سبق تخريجه.

الدنيا، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده، وإن كان هو المقدم وهو الأدوم، ولكنه كذلك يكفل إصلاح أمر الدنيا[1].

- كما يمنحه الإيمان بالله السعادة والطمأنينة، فيسير في تحريكه الحياة وهو لا يشوبه قلق، ولا يحيط به اكتئاب، ولا يملؤه عبث ولا اضطراب، مهما أصابته شدة، أو وقفت في وجهه العوائق؛ إذ يعلم علم يقين أن كل ما في الكون إنما هو بتقدير حكيم رحيم، وأن أي شيء من منغصات الحياة إنما هو ابتلاء من خالقه، أيصبر أم يكفر؟ فلا يخشى فقراً، ولا يخاف موتاً، ولا يضعف عند مرض، إذ هو دائماً وأبداً لاجئٌ إلى ربه، فيطمئن قلبه وتهدأ حركته، ويحسن سعيه، ويحصل له «أُنسٌ» يمده بقوة تتغذى بها روحه، فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه، و«سَكِينَةٌ» تمكنه من آداب السعي في الأرض وتعميرها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، أي: «تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه. تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء. وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة... ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون، ليس أشقى ممن يعيش لا يدري: لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة؛ لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود،

(١) انظر في ذلك: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/٢٦١-٢٦٣.

ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين. وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله، مطمئناً إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله»[1].

- وفي الوقت نفسه يصبح هذا الإيمان بالله ضماناً لعدم تحول هذه الطاقة من طاقة بناء إلى طاقة استغلال، وكفر بالله، وأداة من أدوات التنافس المحموم على نهب موارد الأرض، وتدمير مقدراتها، والتفرد بالتمتع بخيراتها، واستعباد الخلق (ضوابط التمكين) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (الحج:٤١)، فكل حركة في الحياة تأتي بعيداً عن الإيمان بالله، هي أساس كل انحراف. وحمل هموم الدنيا، بعيداً عن أُطر الوحي يؤدي، في النهاية، إلى التخلي عن دور الخلافة الرشيدة على الأرض، والبعد عن القيم المعصومة، التي توجه المسيرة، وتحدد الهدف، وتشدّ الإنسان إلى السماء، كما نلاحظ ذلك جيداً في النموذج الاستعماري الغربي المنقطع عن هدي السماء، وأخلاقياته في تحريك الحياة.

وهكذا يأتي «البعد الإيماني» في السعي الحضاري، لا لكي يمنح حركة المسلم في تعمير الحياة البقاء والامتداد، ويحميها من التفكك والتبعثر والانهيار، فحسب، بل يمنح سعيه أيضاً ضماناً من التطاول والاستعلاء، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وفقاً لسنة الله في الحياة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣).

---

(١) في ظلال القرآن، ٤/٣٦٧.

ثانياً البعد الغائي:

وهو البعد الثاني من أبعاد الاستعمار الإيماني للأرض، وفق المنظور الإسلامي في «تحريك الحياة»، فقد تقدم أن خلافة الإنسان في الأرض ليست خلافة مطلقة، بل هي «خلافة اقتدائية» أساسها: الإيمان بالله تعالى، وغاياتها: تحقيق «مقصد العبادة في الأرض» وفق مراد الله وحده في أمره ونهيه، وقد اقترنت هذه الغاية بالإنسان منذ لحظة الخلق الأولى﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، فهي تجعل الله هدفاً للمسيرة، وغاية للتحرك الحضاري الصالح على الأرض؛ وهذا يقتضي أن يكون المسلم في سعيه الحضاري لقيادة الكون، وإعماره اجتماعياً وطبيعياً، محكوماً بقيم (الاستخلاف الإلهي) التي تؤطر الإنسانَ بفلسفة تكريمٍ كليةٍ مستوعبة، والكونَ والطبيعةَ بفلسفة تسخيرٍ وإعمارٍ لخير الإنسانية، بحيث يستطيع الإنسان أن يتجاوز الماديات، للارتقاء إلى ربط كل المفاهيم بالقيم المطلقة التي حددها الشرع، وطلب الالتزام بها.

وهذا معناه أن الاستعمار الإيماني في الأرض، يتجه وفق غايات مناقضة تماماً لتلك الغايات المنقطعة عن الله عز وجل، فلا تقف غايات الاستعمار الإيماني في الأرض عند «إطار الدنيا» فقط، كما في الفلسفة المادية التي تقوم في مجملها على انتفاء الغائية في الوجود بأكمله، بل هي في عمومها تقوم على اعتبار أن هذه الحياة الدنيا غاية في ذاتها، لا يمتد منها أثر إلى ما وراءها، بل هي عند بعضهم عبثية في وجودها وفي سيرورتها!! مما أدى إلى «إطلاق العنان للعقل التقني» منفصلاً عن أية قيمة أو غائية، وبعيداً عن أي قيد أخلاقي يمكن محاكمته إليه، كما أدى إلى «التطرف في الشهوانية» و«فقدان التوازن في التعامل مع الأشياء»، بدءاً من المحيط/المجال الصغير، بأزهاره وثماره، وانتهاء إلى الكون/الفضاء الكبير، ببحاره

وأفلاكه وطبيعته وكل شيء فيه، وهو ما أدى في النهاية إلى ما يمكن أن يُطلق عليه: «التخلف الكوني»[1]، الذي يعد نتيجة أساسية، وإفرازاً طبيعيّاً لمنظومة «القيم الحداثية» المنقطعة عن الغيب، وقيم الوحي المعصومة.

أما غايات الاستعمار في الأرض، في المنظومة الإسلامية، فهي غايات مشروطة بمراعاة الآخرة، محكومة بقيم تمثل ضابطاً ومنظِّماً لكل سعيٍ للإنسان في تحريك الحياة، بحيث يكون العبد في تعميره الدنيا، وتحريكه للحياة فيها، ناظراً إلى الآخرة﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧)، فـ«ابتغاء الآخرة» هو المحرك الدائم لفاعليات الإنسان المسلم، في سياق المسؤولية والأمانة والاستخلاف العمراني في الكون، فهي حركة يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة، ويكون فيها الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا، ويكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة، فينطلق في حركته من أسر المادة، ويرتفع عن حضيض الحياة الدنيا إلى الحياة العليا[2]؛ «إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة»[3].

---

(١) وهو مفهوم اشتقه الدكتور عبد الوهاب المسيري، في مقابلة المفهوم الغربي«التقدم» في إطاره المادي الذي يهدم كل ما هو إنساني؛ ذلك أن هذا «التقدم» بمظهره العلمي الصناعي، المنقطع عن الغائية والقيمة، قد أثر بشكل سلبي في الكون، ومفرداته، واستمرار عطائها، بل وفي الإنسان نفسه... ينظر: حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، الثقافة والمنهج، تحرير: سوزان حرفي، ص٣١٤-٣٢٧.

(٢) ولعل ذلك هو سبب مشكلة الغرب الثقافية مع الإسلام؛ فهو لا يعرف إلا المادية المتطرفة.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص١٩٠-١٩١.

كما أنها غايات لا تقتصر على إشباع حاجات الإنسان المادية، من طعام وشراب ومسكن وجنس، باعتبارها هي كل مطالب الإنسان الأساسية، وليس ما وراءها من مطالب العقل والروح إلا مطالب ثانوية!! بل غايات الاستعمار الإيماني في الأرض تنظر إلى مطالب العقل والروح على أنها مطالب لا يجوز إغفالها، أو إنتاج ما يؤدي إلى تدميرها، فهي أساسية للإنسان كالطعام والشراب والمسكن والجنس، فكلها ضروريات لصلاح الإنسان في الدنيا والآخرة جميعاً، بل هي أعلى منها في الاعتبار؛ لأنها هي المطالب الزائدة في الإنسان على الحيوان، أي: المطالب المتعلقة بخصائصه التي تقرر إنسانيته، والتي بإهدارها لا يُعد الإنسان من الأنام بل من الأنعام!! فالاستعمار الإيماني في الأرض لا يفرق بين المادي والروحي، حيث المادي مستبطن بالروحي ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢).

وهذا البعد الغائي للاستعمار الإيماني في الأرض، القائم على التواصل الحميمي بين «حق الدنيا» و«حق الآخرة» وإشباع «متطلبات الروح» كما تشبع «متطلبات المادة» يستوجب، في السعي الحضاري الإسلامي، قراءة مدخل«سد الذرائع وفتحها»[1]؛ لأنه يقوم على اعتبار الحِكَم (المقاصد) والمآلات (الغايات) في الأعمال ومسيرتها وتتابعاتها، أي: النظر في المقصود والغاية من كل حركة، فهو ضابط منهجي يعطينا القدرة على رؤية عمق العلاقات بين الحركات

---

(١) وهو ما أسميه بمبدأ «التدبر والاعتبار» الذي يوجب الجمع بين «حكمة الأشياء» و«أسبابها» بين«منطلقاتها» و«مآلاتها»، فيأخذ الفعل حكماً يتفق مع ما يؤول إليه، بناء على النظر إلى نتائج الأفعال وثمراتها؛ فيمنع ما يجوز من الوسائل إذا كانت مفضية إلى ما لا يجوز، بالنظر إلى مآلات الأفعال، ومعرفة تداعيات تنزيل الحكم المستقبلية، فتقدر على أساسها المصالح، وتبنى الأحكام.

ومآلاتها، كما يعطينا القدرة على كشف كل حركة عبثية في الحياة لا تتفق وهذا البعد الغائي، فتُرفض أية حركة في الحياة تركز على الدنيا فحسب، وتجعلها المقصود الوحيد أو الأسمى، كما تُرفض أية حركة تركز على إشباع الحاجيات المادية فحسب، ولا تحاول أن تجمع بين متطلبات المادة ومقتضيات الروح، وبمعنى آخر: يُرفض أي سعي في «تحريك الحياة» يكون مقصوده السيطرة على الكون، وإشباع الشهوات، وهزيمة الطبيعة، وتسخير مواردها، وتحقيق هيمنة الإنسان الكاملة عليها، فحسب، بعيداً عن أية غائية إنسانية، فلا يرتبط بقاعدة الحكمة (لماذا)، ولا بقاعدة المآل (وماذا بعد).

إن البعد الغائي للاستعمار الإيماني للأرض من أصوله، إذن، الجمع، في كل سعي، بين الدنيا والآخرة، بين حاجيات المادة ومقتضيات الروح، في سياقٍ تتكامل فيه الرؤى، فيربط بين مقاصد الأشياء والقيم المتحكمة فيها، من جهة، وبين الحركة في الكون، استخلافاً وتعميراً وإصلاحاً، ومآلاتها من جهة أخرى، أي: أنه استعمار يمارس كافة أوجه الحياة الدنيا من منظور أخروي، أو بعبارة أدق: منظور ممتد، يصل ما بين الحياة الدنيا والآخرة، وهذا يترتب عليه أمران:

أ- **تحقيق التوازن وإقامة العدل في الأرض**؛ فالذي ينطلق في تحريك الحياة، استخلافاً واستعماراً، وفق منهج الله في أمره ونهيه، وتنفيذاً لمراده فيها، وإجراءً لأحكامه عليها، ومن مبدأ أن لحياته غاية، ولوجوده معنى مستقبلي، يتجاوز به لحظته الراهنة إلى أمد مقبل، مدركاً أن النعيم المقيم في آخرته مرتبط بما يقدمه من أعمال في الدنيا، الذي ينطلق من ذلك كله تتوازن فيه عناصر المادة مع عناصر الروح، فيعمل لترقية الروح ورفعها، في الوقت الذي يعمل فيه على حفظ الحياة

وامتدادها، كما يتوازن فيه عنصر العقل مع عنصر الأحاسيس والعواطف، فينطلق في عالم الأشواق وعالم النوازع بلا تفريط ولا إفراط، كما يتوازن فيه البعد الفردي مع البعد الجماعي، في قصد وتناسق واعتدال، وهذا كله يدفع إلى التوازن في النمو، والإعمار، واستغلال مسخرات الله في الكون، فلا يعتبر معدلات «الاستهلاك» هي النقطة المرجعية التي يستخدمها في الحكم على الأمور وفق المفهوم المادي الغربي السائد للتقدم حيث مبدأ: «ندرة الموارد ولا نهائية الحاجات»، بل مرجعيته هي مقدار تحقيقه لقيم الإسلام التي تقوم على التوازن في كل شيء، وإقامة العدل بتحقيق التوازن بين كل الأجيال حيث مبدأ: «لا نهائية الموارد وضبط الحاجات»، فلا يسعى جيل بعينه للتمتع والاستفادة، أو الاستئثار بكل طاقات الكون، على حساب آخر، بل يقوم كل جيل بمزيد من الواجبات التي تحفظ حياة الجيل الآخر، وفقاً لمفهوم «الأمة» الذي جعله الله رباطاً جامعاً لعموم المسلمين، على امتداد الزمان والمكان، ومؤصلاً لعناصر الحركة الواعية في الحضارة الإسلامية ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢)، فليس الوجود الجماعي داخل الأمة تكتلاً من أجل تحصيل مزيد من الحقوق، إنما تجمُّعاً من أجل القيام بمزيد من الواجبات، والاتصاف بقيم التزكية، فيكون ارتباط الواحد بأبناء أمته، ممن يعاصره أو ممن يأتي بعده، ارتباط تراحم وإحسان[1]!! وهذا بخلاف من يعيش لحظته، منقطعاً عن آخرته، فيكون

---

(١) ينظر في مفهوم «الأمة» وخصائصه، وما يستتبعه من علاقات بين أفرادها: منى أبو الفضل، الأمة القطب، نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، رقم١٤ (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)؛ أحمد حسن فرحات، والأمة في دلالاتها العربية والقرآنية (عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، ١٩٨٣م)؛ وينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص٢٢٧.

همه في تحقيق مطالب يومه، وإشباع غرائزه، فيفقد أية دوافع تدفعه للتـــوازن في التعامل مع نفسه، أو مع الأشياء، كما هي حركة الحياة الآن[1].

ب- **تحقيق الحياة الطيبة**؛ إذ لا شك في أن الاستعمار الإيماني للأرض، بهذه الغائية، يؤدي في النهاية، إلى «الحياة الطيبة» التي يهبها الله لمن كـــان مـــستهدياً بهديـــه، يقـــول تعـــالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧)، و«الحياة الطيبة» لا تعني: «مجتمعات الاستهلاك» أو «مجتمعـــات إنتاج الوفرة» أو «مجتمعات تجاوز الحاجات» كما في المنظور المادي، بل هي، في المنظور الإسلامي، حالة من السرور، والكمال يشعر بها الفرد في حياته اليوميـــة، نتيجة استمتاعه بخـــيرات الحياة عـــلى الدوام، فلا حـــيرة ولا قلق، ولا شـــرود ولا ضلال، وذلك من خلال حركة حضارية تقوم على: «نفع العلم» و«كمـــال العقل» و«سعادة الأبد» و«التحكم في أهواء الذات وإصلاح أحوالها» و«التوازن في الانتفاع بالأشياء» و«النظر في الأفعال بعين من يتعظ بأحوالهـــا وأطوارهـــا، ويأخذ العبرة من مآلاتها».

يقول الإمام ابن القيم: و«الحياة الطيبة» هي «حياة القلب ونعيمه، وبهجتـــه وسروره، بالإيمان، ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فإنه لا حياة

---

(١) يقول غارودي في كتابه: حفارو القبور، ص٢٣-٢٤: «فقدت سفينة الأرض، التي نبحر نحن كلنا على متنها لتزانها، وهي مهددة اليوم بعد خمسة قرون من الهيمنة الغربية المطلقة بالسقوط، إذا ما استمررنا في هذا الطريق، لم نكن لنتخيل إدارة أسوأ من ذلك لكوكب الأرض» ومصطلح «سفينة الأرض» من المصطلحات المهمة، التي لها امتداد في الهدي النبوي (ينظـــر:حـــديث السفينة) والتي ينبغي أن تشيع في التداول الحضاري، فهو يدل على معاني الاتصال المسؤول، الواعي البناء، لا مطلق الاتصال، أياً كانت طبيعته ونتائجه.

أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كــان بعــض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال غــيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربــاً. وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح؛ فإنه ملكها، ولهــذا جعــل الله «المعيشة الضنك» لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس «الحياة الطيبة»[١].

فــ الحياة الطيبة «هذا المفهوم مرتبطة بغائية الإيمان بالله، وتحريك الحياة وفق منهجه في أمره ونهيه، وهي غاية الاستعمار الإيماني في الأرض، إذ فيها الاتــصال بالله والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، كما أن فيها الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الــصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة؛ ففي الوقت الذي تقف فيه» نظريات التنميــة السياسية المعاصــرة عند تحقيق مجتمــع «الاستهلاك» الوفير، أو دولة «الرفاهية» غــاية لعمــلية التنمية، يعتبر الإسلام تحقيق«الحياة الطيبة» - وهي البديل المعتدل للرفاهية- عائداً، أو نتيجة، أو أثراً لتحقيق العبادة الشاملة لله وحــده في جميــع نواحي الحياة، سعياً للوصول إلى الجنة»[٢].

ثالثاً: البعد الأخلاقي:

والمراد بالبعد الأخلاقي هنا: جملة القيم (المقاصد) والمعايير (الوسائل) الــتي تحيط بهذا الاستعمار وتوجهه، فالمسلم في سعيه الحضاري، وتحريكه للحياة، ينبغي أن ينطلق من الفهم المعنوي للحياة، والإحساس الخُلقي بها؛ فكل سعيه فيها يكون محكوماً بقيم الإسلام الحاكمة والضابطة لكل حركاته، في غاياته التي يرمــي إلى

(١) مدارج السالكين، ٣/٢٥٩.
(٢) نظريات التنمية السياسية المعاصرة، ص٢٨٦.

تحقيقها، وفي الطريقة التي يتخذها لذلك؛ إذ هو ليس بالسائب، كما تقدم، بل محكوم ولابد بقيم الوحي، ذلك... أو التخبط!!

ويعد تعبير: (الحلال، والحرام وما بينهما من مراتب الندب والاستحسان والكراهية) في الإسلام خير تجسيد للقيم والمثل التي تضبط حركة المسلم في تعمير الأرض، وتحريك الحياة؛ لأن قصة الحلال والحرام في الإسلام تمتد إلى جميع النشاطات الإنسانية، وألوان السلوك: سلوك الحاكم والمحكوم، وسلوك البائع والمشتري، وسلوك المستأجر والأجير، وسلوك العامل والمتعطل، وسلوك الإنسان مع الأشياء وكل مظاهر الحياة «فكل وحدة من وحدات هذا السلوك هي إما حرام وإما حلال، وبالتالي هي إما عدل وإما ظلم، لأن الإسلام إن كان يشتمل على نص يمنع عن سلوك معين سلبي أو إيجابي فهذا السلوك حرام، وإلا فهو حلال»[1].

فالمسلم مطالبٌ في كل سعيه لتحريك الحياة، بحفظ الحقوق، ومراعاة الأخلاق، وفقاً للمبدأ الإسلامي العام: «أن لكل خَلق حقاً أو حقوقاً تخصه» أوجبها الذي خلقه، وسخر له هذا الكون بكل ما فيه؛ ومن ثم تصير الضوابط الأخلاقية، والقيم الحاكمة، شرعاً منزلاً، وعباداتٍ شرعيةً، يجب أن تنبع عن دافع نفسي نيّر، يدفع الإنسان إلى تحريك الحياة، واستعمارها وفق منهج الله في أمره ونهيه، وقيمه الحاكمة الضابطة؛ طلباً بذلك رضا الله تعالى، والقرب منه.

وهذه الضوابط والقيم الحاكمة مجملة في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

---

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا (بيروت: دار التعارف) ص٣٨٣.

(القصص: ٧٧)، فهي ضوابط أربعة تمثل «قيماً» تتحكم في سعي المسلم في «تحريك الحياة»: «ابتغاء الدار الآخرة» و«أخذ النصيب من الدنيا»، و«الإحسان في حركة الحياة»، و«عدم الفساد في الأرض».

ويمكن تقسيم هذه القيم إلى: قيم تؤطر حركة الإنسان في عمارة الأرض عموماً، وإلى قيم تضبط نظرته إلى الأشياء، وحركة تعامله معها، على النحو التالي:

أ- القيم الأخلاقية، التي تضبط حركة الإنسان في عمارة الكون عموماً، وهي قيم يتلقاها كل مسلم عادة من الإسلام، ويتكيف بها نفسيًا وروحيًا، ويحدد سعيه وتحريكه للحياة وفقاً لآدابها، فيكون في سعيه تابعاً لها وموجّهاً بها، ويمكن إجمالها في قيمتين جامعتين:

أولاهما: تحصيل «العلم النافع»، و«العمل الصالح»، فليس، في الإسلام، سعي نحو مطلق «العلم» أو مطلق «العمل» لكي يتحكم الإنسان في الظواهر، ويشبع رغباته وملذاته، بل لابد من تقييد الأول بالنفع، والثاني بالصلاح الذي يجلب الرزق الطيب، والعمل المتقبل، كما جاء «عن أُمِّ سَلَمَةَ أنَّ النبي ﷺ كان يقول إذا صلى الصُّبْحَ حين يُسَلِّمُ: **اللهم إني أسْأَلُكَ عِلْماً نافعاً، وَرِزْقاً طَيِّباً، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً**»[1]، ولا تجد آية في القرآن الكريم تذكر الإيمان إلا وتربطه بالعمل الصالح: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة:٨٢)...

و«العلم النافع» هو ما كان باعثاً على العمل، وفق منهج الله في أمره ونهيه، فلا يطلب المسلم العلم لذاته، بل لما يثمره من المنافع، ولا يقتصر على العلم بظاهر

---

(١) سنن ابن ماجه، ٢٩٨/١، حديث رقم: ٩٢٥.

الأشياء، بل يتطلع أبداً إلى العلم بباطنها أو آجلها، ومن خلاله يتحكم الإنسان في أهواء الذات وإصلاح أحوالها، أو كما يقول الإمام الشاطبي: «هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان، بل هو المقيِّد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً»[1]، فهو العلم الذي يحقق الحفاظ على الوجود، والصلاحية والفعالية والاستمرارية للحياة، وما عدا ذلك ليس إلا عطالة حضارية، وفق قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (الرعد:١٧).

و«العمل الصالح» هو ما كان مؤدياً إلى صلاح البشرية في الحال، وفلاحها في المآل؛ فهو أصل هادف إلى عمران الإنسان في كل تكويناته وعلاقاته بما يهدف إلى ترقية الوجود في جميع المجالات الحضارية؛ وهذا يتحقق وجوده من خلال[2]:

- النظر في حكمة الفعل قبل سببه، أي: النظر في المقاصد ومدى تحقيق الفعل لها، فإن وافق مقاصد الشرع، وغاياته الكلية، عُمل به، وإن خالفها ترك؛ إذ «قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع.. والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، وألا يقصد خلاف ما قصد الشارع»[3].

- والنظر في مآل الفعل قبل حاله، إذ يجب في الشرعة «اعتبار المآل في تحصيل المصالح، أو درء المفاسد»[4]، أي: استشراف الأثر المترتب على هذا الفعل

(١) الموافقات، ٦٩/١.
(٢) ينظر: طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، ص٨٦، وينظر له: روح الحداثة، ص٩٣.
(٣) الموافقات، ٣٣١/٢-٣٣٢.
(٤) المرجع السابق، ٢٣٣/٤.

في المستقبل، فإن كان مآله حسناً فُعل، وإن كان قبيحاً بأن أدى إلى مفسدة ظاهرة، أو يؤدي إلى مناقضة مقصد شرعي، فهو باطل مردود باتفاق الجميع، حتى ولو بدا نافعاً في الحال والظاهر؛ إذ إن الظاهر لا يعبر عن الحقيقة كلها، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام:١١٦)، وقال سبحانه، فيمن يقتصرون على الظواهر: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧).

- ثم إن صلاح العمل، وفق الرؤية الإسلامية وأصولها، لا يقتصر على ما يجلبه من صلاح في الدنيا وحدها، بل يكون في تواصل الدنيا والآخرة معاً؛ ومن ثم فإنه لا يحكم على الفعل بالصلاح بناء على ماله من الظواهر والآثار الدنيوية، حتى يكون على بينة من آثاره الأخروية؛ بناء على أن كل عمل المسلم، حتى ولو كان معاشيّاً، إنما هو تعبد لله تعالى، وهذا هو معنى «الاستخلاف» وما أراده الإمام القرافي بقوله: «لا يوجد حق العبد إلا وفيه حق الله تعالى»[1]، وما أكده الشاطبي بقوله، مبيناً وجوب نية الامتثال لله في أمره ونهيه في كل حركات العبد؛ لأن «في الأعمال المكلف بها طلباً تعبديّاً على الجملة»[2]؛ ومن ثم فالأفعال تعرف مصالحها ومفاسدها وتوزن، من حيث تقام الحياة الدنيا للآخرة، لا من حيث أهواء النفوس وشهواتها في جلب المصالح ودرء المفاسد.

إن فهم هذه العلاقة بين وجوب تحصيل «العلم النافع» و«العمل الصالح» والسعي الحضاري في الأرض، يكمن في عبارة دقيقة ساقها الإمام ابن القيم،

---

(١) الفروق وهوامشه، ٢٥٦/١.
(٢) الموافقات، ٣١٧/٢.

حينما وضح التفاعل في منهج الفقه الإسلامي بين الواجب (القيمة) والواقع، وأن كلاً منهما يجب أن يتنزل على الآخر، علماً نافعاً وعملاً صالحاً، فيقول: «فهاهنا نَوْعَان من الْفقْه لابد للْحَاكم منْهُمَا، فقْهٌ في أَحْكَام الْحوَادث الْكُلّيَّة، وَفقْهٌ في نَفْسِ الْوَاقعِ وَأَحْوَالِ الناس، يُمَيِّزُ به بين الصَّادق وَالْكَاذب وَالْمُحقِّ وَالْمُبْطلِ، ثُمَّ يُطَابقُ بين هذا وَهَذَا، فيعطي الْوَاقعَ حُكْمَهُ من الْوَاجب، وَلاَ يَجْعَلُ الْوَاجبَ مُخَالفاً للْوَاقع، وإلا ضاع الواجب والواقع، بين تفلت من الواجب، وغربة من الواقع»[1]، وبهذا يتبين أن مبدأ «العلم النافع» و«العمل الصالح» يقضي بأن «نجعل حداً للهرولة الشديدة إلى التطبيقات التقنية للعلم، بل يقضي بأن نراجع مدلول البحث العلمي نفسه، فنبقيه خادماً للحاجات الموجودة، لا خالقاً لها حيث لا توجد، وخاضعاً لقانون المقاصد والمآلات، لا لمنطق الأسباب والأحوال وحده... فليس كل تطبيق نافعاً، ولا كل بحث مشروعاً، وتتجلى هذه الإعادة في تقرير تبعية الأسباب في الأشياء للحكم التي من ورائها، وتبعية أحوالها للمآلات التي تنتهي إليها، ومتى تقررت هذه التبعية للحكم والمآلات، صار بالإمكان الارتقاء من نطاق الإجراء الآلي، إلى رحاب العمل المقصدي»[2]، فاستعمار الحياة، في المنظور الإسلامي، عملية، في أصل مقصودها، تتجه صوب النفع والصلاح؛ ومن ثم لا يمكن تحريكها إلى مناطق هي ضد هذا القصد الأصلي في العمران، إلى عناصر «طغيان» أو «فساد» أو «تخريب» أو«خلل» أو غير ذلك مما هو مفض لتقويض الأصول العمرانية، حتى ولو بدا ذلك تحت دعوى التقدم التقني والبحث العلمي!!

---

(١) ابن القيم، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص٥.

(٢) روح الحداثة، ص٩٤-٩٨.

ثانيتهما: ابتغاء الفضل من الله، فالمسلم في سعيه الحضاري لا يعمل بمبدأ السوق القائم على العمل بلا قيد، والتنافس بلا شرط، والربح بلا حد، واعتبار المصلحة المادية الخالصة وفق المنظور الغربي السائد الآن، بل سعيه في تحريك الحياة مشروط بـ«ابتغاء الفضل من الله»، كما قال تعالى، آمراً بالسعي في الأرض: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠)، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٤).

فـ«الفضل» ليس مطلق سعي في تعمير الأرض مجرداً من الاعتبار الخُلُقي، بل هو السعي المشروط بالخير والإحسان[1]، ثم إنه فضل من الله؛ تنبيهاً إلى أنه سبحانه هو المالك الحقيقي، فلا يدخل الإنسانَ في سعيه بغيٌ ولا طغيان، ولا يتصرف الإنسان في سعيه إلا بما يقربه من حضرة ربه المتفضل عليه، مما يضمن لسعيه: أمرين، الأول: «التوفيق الإلهي» أي التسديد إلى ما فيه المنفعة، فيكون السعي محفوظاً بمقاصد الشرع، موجَّهاً بها، بعيداً عن مخاصمة الشرع أو مجانبته، والثاني: «العون الرباني» الذي يجلب «دوام الإنتاجية» فترتفع إنتاجيته، وتكثر منفعته، ماديًّا كان أو معنويًّا، وتحصل البركة في السعي امتداداً في الزمان والمكان، وفي هذه الحال يصير سعي العبد في تعمير الحياة، وتحريكها بمنهج الله، عبادة كما هو شائع في القول المأثور[2]، فيكون سعيه منتِجاً ومسدَّداً ومؤيَّداً على الدوام،

---

(١) ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٥٠٨/٤.

(٢) كما جاء في الموافقات، ٣١٧/٢. الإمام الزيلعي الحنفي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٣١٣هـ)٢٢٦/٤.

وفي هذه الحال، أيضاً: «تغدو التجارة، لا تبادل سلع تستنفد قيمتها في الاستهلاك المادي كما هو الشأن في اقتصاد السوق، وإنما تبادل أفضال تعرج بالمستهلكين إلى الأفق الروحي، وهكذا يتبين أن مبدأ «ابتغاء الفضل».. يجعل القيم الأخلاقية والروحية في صلب عملية التنمية الاقتصادية، بحيث لا تكون هذه التنمية نافعة ولا مشروعة، أي لا تكون تزكية بحق إلا إذا سعت إلى تحقيق هذا المقصد الخلقي والروحي، ومتى خالفته وجب مراجعة النظر فيها، بل تركُها إلى تنمية أخرى؛ لأنها ليست مقصداً في ذاتها، وإنما وسيلة إلى مزيد التخلق»[1].

على أن «ابتغاء الفضل من الله»، في تعمير الحياة، يقتضي عدة أمور، تعرف في فقهنا الإسلامي بـ«آداب المكتسب»[2]، وهي كلها ضوابط أساسية لأي نشاط حضاري فعَّال، ومدارها إلى «منع الظلم والاحتكار، وتزييف الحسابات وغش المعامل، وترويج البضاعة بالكذب والربا، وتطفيف المكيال والميزان، واللعب بالأسعار والتغابن، وسائر أنواع الفساد»[3].

ومن أبرز هذه الآداب:

١- **طلب الحلال**، فيجتهد المسلم في سعيه وكسبه، وتحريكه الحياة، في تحرِّي الحلال؛ إذ إنه من أهم ما يقرب العبد من ربه، عملاً بقول رسول الله: «**إنَّ اللّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّباً، وَإنَّ اللّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنينَ بمَا أَمَرَ به الْمُرْسَلينَ فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾

---

(١) روح الحداثة، ص٩٢.

(٢) ينظر في هذا الباب ما كتبه كل من: الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، ربع العادات، كتاب: الكسب والمعيشة، والإمام أبو طالب المكي، في كتابه: قوت القلوب، الفصل السابع والأربعون، ذكر حكم المتسبب للمعاش وما يجب على التاجر من شروط العلم. وكان السلف الصالح، رضوان الله تعالى عليهم جميعاً، حريصين على تعليم الناس هذه الآداب، إحياء علوم الدين ٢/٦٤.

(٣) الشيخ عبد السلام ياسين، في الاقتصاد الإسلامي، البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، ص٩٠.

(المؤمنون:٥١)، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ (البقرة:١٧٢)، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ، يا رَبِّ يا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[1]، وقد نص علماؤنا على أن من أكل الحرام فقد قتل نفسه، وقتل أخاه؛ لأنه أطعمه إياه، وليس هذا من سبيل المؤمنين؛ فالقلب الصادق المتوجه إلى الله، والمستمسك بأمره ونهيه، لا يكسب إلا الطيب، وليس بينه وبين الخبيث نسب، ولك أن تتصور المجتمع المسلم، وقد قامت فيه حركة الأموال والتنمية وتوظيف الثروات على هذا الأساس الكريم، واجتنب أصحاب رؤوس الأموال مداخل الخبث والشبهة، وأقاموا حركة مالهم على الكسب الطيب؛ ومن ثم جعل النبي ﷺ التساهل في طلب الحلال من علامات آخر الزمان، فقال: «يَأْتِي على الناس زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ ما أَخَذَ منه، أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ من الْحَرَامِ»[2].

٢- **إحسان السعي**، وذلك بإتقان الصنعة، وصلاحها، وحسن بقائها، مع نهاية في تجويدها وإحكامها، وهي قيمة ذات بعد ذاتي، على معنى أن هذا «الإحسان الحضاري» ليس من مطلوبات الدين، باعتبار ما يتحقق به للإنسان من منفعة آنية ظاهرة فحسب، بل هو مقتضى من مقتضيات الأمر الإلهي؛ إذ العبد مسؤول عن إحسان سعيه أمام ربه يوم القيامة، وهذا مقتضى قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ على كل شَيْءٍ»[3]، وقوله ﷺ: «إِنَّ الله تبارك وتعالى

(١) صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم: ١٠١٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: البيوع، باب: من لم يبال من حيث كسب المال، حديث رقم: ١٩٥٤.

(٣) سبق تخريجه.

يحبُّ إذا عَمِل أحدُكم عملاً أن يُتقنَه»[1]، قال الإمـــام المُناوي: «أي يحكمـــه، كما جاء مصرحاً به في رواية؛ وذلك لأنّ الإمداد الإلهي ينــزل على العامل بحسب عمله، فكل من كان عمله أتقن وأكمل فالحسنات تضاعف أكثر، وإذا أكثر العبد أحبه الله تعالى»[2]، وقال أيضاً في موضع آخر: «فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعُدد مثلاً أن يعمل بما علمه الله عمل إتقان وإحسان، بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك، ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضـــاع، ولا على مقدار الأجرة ، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة... فمتى قـــصر الصانع في العمل لنقص الأجرة، فقد كفر ما علمه الله، وربما سُلب الإتقانَ»[3]، وفي حديث ذي دلالة ولمسة حضارية رائعة في أهمية تجويد العمل وتحسينه باعتباره مقتضى إلهيًا، بعيداً عن النفع الآني المشهود، يقول عاصم بن كليـــب الجرمـــي: «حدثني أبي كليب أنه شهد مع أبيه جنازة شهدها رسول الله ﷺ وأنا غلام أعقل وأفهم، فانتهى بالجنازة إلى القبر، و لم يُمَكَّن لها، قال: «فَجَعَـــل رســـولُ الله ﷺ يقول: **سَوُّوا لحدَ هذا، حتى ظَنَّ الناسُ أنه سُنّةٌ، فالتفتَ إليهم، فقال: أَمَا إنَّ هذا لا ينفعُ الميتَ ولا يَضُرُّه، ولكنَّ الله يحبُّ مِن العامِلِ إذا عَمِل أن يُحـــسنَ»**[4]؛ لأن الفعل الحسن الصالح هو وحده القادر على تشييد وعمارة الحياة التي يريـــدها خالق الحياة والأحياء، وهذا الفقه من النمط العالي الذي ينبغي أن تُربى عليه الأمة.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم:٥٣١٢، وهو في المعجـــم الأوســـط، ١/٢٧٥، حديث رقم: ٨٩٧.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، ١/ ٢٦٩.

(٣) فيض القدير، ٢/٢٨٦-٢٨٧.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٤/٣٣٥، حديث رقم:٥٣١٥. وروى نحوه الطبرانـــي فـــي المعجم الكبير، ١٩/١٩٩.

٣- السماحة والصدقة، فينبغي للمسلم في سعيه الحضاري، وتعميره الأرض، أن يكون سمحاً، مكثراً من الصدقة؛ شُكراً للمنعم الذي وهب، ورحمة بعباده الذين خلق، وأن تكون نفسه يقظة واعية في مباشرتها وتعاملها مع ما يفيض عليها ربها من نعم، حتى تزداد هذه النعم ثراء، ويزداد حسنها حسناً، ويزداد عطاؤها عطاء، وهذا معنى جيد وتوجيه بالغ الوعي في «تحريك الحياة»، فقد قال ﷺ: «**إنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ ما أَعْطَى منه الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وابن السَّبِيلِ**، أو كما قال النبي ﷺ، **وَإِنَّهُ من يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيداً عليه يوم الْقِيَامَةِ**»[1]، ووراء جملة المدح هذه، «**فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ ما أَعْطَى منه الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وابن السَّبِيلِ**»، معنى أنه: بئس المال صاحباً إذا ضيع فيه حق اليتيم والمسكين وابن السبيل، وكأنه سلاح ذو حدين «قال الشيخ أبو حامد: مثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع، وسم ناقع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز من شرها، وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة، وإن أصابها السوادي الغبي فهي عليه بلاء مهلك»[2]، وما أكثر السوادي الغبي في أيامنا هذه!! وإذا كان هذا الحديث يعلمنا «سخاوة العطاء» فإن هناك حديثاً مكملاً له، يعلمنا «سخاوة الأخذ» فعن حَكِيم بن حِزَام، رضي الله عنه، قال **سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قال: يا حَكِيمُ إِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ له فيه، وكان كَالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، الْيَدُ**

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري، صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، ٥٣٢/٢، حديث رقم: ١٣٩٦. وصحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، ٧٢٨/٢، حديث رقم: ١٠٥٢.

(٢) عمدة القاري، ٤١/٩.

الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى»[1]، وكأن «السخاء» في التوجيه النبوي الشريف ملازم للمال، لمعطيه ولآخذه، وإذا تعاملنا مع الثروة بسخاء عطاء، وسخاء أخذ، أي: من غير استشراف، ولا تطلع، ولا حرص، كانت نعم الصاحب، وكانت موضع البركة، وهذا معنى: «بُورك له فيه»، وقد قال علماؤنا[2]: إن البركة خلق من خلق الله، يعني حقيقة من حقائق خلقه سبحانه، يعمل بها الدرهم عمل الدينار، وبدونها لا يعمل الدينار عمل الدرهم، والكلام النبوي الشريف يقرن البركة بالسخاوة، وأن المال يسخو، أي: يزيد مع النفس السخية، التي لا تستشرف إليه، ولا تدعه يدب إلى جوهرها، فيجب أن يكون سعي الأمة في تحريك الحياة قائماً على «السماحة في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم»[3]، وهذا المقصد، كما يقول العلامة الطاهر بن عاشور[4]، من أشرف المقاصد التشريعية، ولقد كان مقدار الإصابة والخطأ فيه هو ميزان ارتقاء الأمم وتدهورها.

فحينما يلتقي الأمران: «صواب التعامل مع الثروة» على الوجه الذي يجلب نفعها ويكف ضررها، ثم «ضبط إحساس النفس» وكف جماحها حتى لا تفترسها هذه «الخضرة الحلوة» ترى الثروة تنمو وتتكاثر، وتنفع وتكون ثروة برة بالمسكين واليتيم وابن السبيل؛ ومن ثم حرم الإسلام كل سعي في الحياة، يكون قائماً على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، أيّاً كان.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف في المسألة، ٢/٥٣٤، حديث رقم: ١٤٠٣.
(٢) فتح الباري، ٣/٣٢٧، وعمدة القاري، ٩/٥٣.
(٣) فتح الباري، ٤/٣٠٧.
(٤) التحرير والتنوير، ٣/٤٥.

- فحرم الربا، قال ﷺ: «**إذا ظَهرَ الزنا والربا في قريةٍ، فقد أحَلُّوا بأنفسهم عذابَ اللهِ**»[1]، قال الإمام المناوي: «أي تسببوا في وقوعه بهم، ولم يقل العذاب، بل زاد الاسم زيادة في التهويل والزجر؛ وذلك لمخالفتهم ما اقتضته الحكمة الإلهية من حفظ الأنساب، وعدم اختلاط المياه، وأن الناس شركاء في النقد والمطعوم لا اختصاص لأحد به إلا بعقد لا تفاضل فيه»[2].

- وحرم **الغش** في البيوع والصنائع، وقال علماؤنا: من كثر ذلك منه فهو فاسق، لقوله ﷺ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[3]، وقال ﷺ: «**من بَاعَ عَيْباً لم يُبَيِّنْهُ، لم يَزَلْ في مَقْتِ اللَّهِ، ولم تَزَلْ الْمَلَائِكَةُ تَلْعَنُهُ**»[4]؛ فاستعمارنا الإيماني للأرض لا يحل فيه الغش، ولا الكذب الذي يخلق لدى الإنسان وعياً زائفاً وميلاً لأشياء لا تمثل حاجة حقيقية لديه، ولا تحقق له أي نفع، ومن ثم فالدعاية الكاذبة لا مكان لها، قال أبو طالب المكي، رحمه الله: «ليتّق البائع مدح السلعة وتنفيقها من خرف الكلام، وليحذر المشتري ذمها وعيبها بما ليس فيها للخداع، وأما الإيمان على ذلك فهو معصية وممحقة للكسب، وقد كان السلف يشددون في ذلك، قال أبو ذر: كنا نتحدث أنّ من نفرٍ لا ينظر اللّه إليهم التاجرَ الفاجر، وكنا نعد من الفجور أن يَمدح السلعة بما ليس فيها»[5].

- وحرم **الاحتكار**، الذي يعني انعدام التداول، وانحسار حيز الخيارات، وخضوع المجتمع لسلطة رأس المال وتوجيهاتها المطلقة، فجعل الإسلام منع الناس

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١/١٧٨، والحاكم في المستدرك، ٢/٤٣.
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، ١/١١٤.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ١/٩٩، حديث رقم:١٠١.
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، ٢/٧٥٥، حديث رقم: ٢٢٤٦.
(٥) قوت القلوب، ٢/ ٢٣٨.

من تناول حاجياتهم، وحجزها عنهم، صداً عن سبيل الله، وتعطيلاً لمقصد من مقاصد الشريعة في حفظ النفس وتوابعها، وحفظ العقل وارتباطاته، وحفظ المال وما هو في حكمه، فقال ﷺ: «لاَ يَحْتَكِرُ إلا خَاطِئٌ»[1]، وعن اليسع بن المغيرة قال: «مَرَّ رسولُ الله ﷺ برجلٍ بالسوق يبيع طعاماً بسعرٍ هو أرخصُ من سعر السوقِ، فقال: تبيعُ في سوقِنا بسعرٍ هو أرخصُ من سعْرِنا؟! قال: نعم. قال: صبراً واحتساباً؟ قال نعم. قال: أَبْشِرْ؛ فإنَّ الجالبَ إلى سوقِنا كالمجاهدِ في سبيلِ الله، والمحتكرَ في سوقِنا كالملحدِ في كتابِ الله»[2].

- وحرم بخس الناس أشياءهم، فقال تعالى: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥)، قال القاضي أبو بكر بن العربي: «البخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقصان منه»[3]، فالبخس قد يكون بالقول تهويناً واستنقاصاً وإشاعة، وقد يكون بالفعل احتيالاً أو نقصاناً، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل.

٤- **القصد والاعتدال**، وهو الطابع الذي يضبط به الإسلام كل سعي للاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، والمعيار الذي تقيَّم به كل الحركات، والفقه العمراني الذي وجه الحضارة الإسلامية بأكملها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم الاحتكار في الأقوات، ٣م١٢٢٨، حديث رقم:١٦٠٥.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ١٥/٢، حديث رقم: ٢١٦٧.
(٣) أحكام القرآن، ٣١٨/٢.

﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ (المائدة:٨٧) ويقول ﷺ: «من فِقْهِ الرَّجُلِ رِفْقُهُ (أي: قصده) في مَعِيشَتِهِ»[1]، فالمسلم كما هو مطالب بالتمتع بطيبات الحياة، مطالب كذلك بالاعتدال وعدم الاعتداء في التعامل مع طيبات الحياة انتفاعاً واستثماراً، فيأتي سعيه معتدلاً مقتصداً، بعيداً عن الإسراف والتبذير، واستهلاك ما هو أكثر من المباح، حتى لا تصير الإمكانات التي كان الشأن أن تكون مصدر خير وقوة وغلبة لنا سبيلاً إلى الفساد والإفساد، الذي يحرم البشرية من بركات الأرض وخيراتها، وهذا ملحظ عجيب، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأعراف:٣١)، بل يأتي النهي عن الإسراف والتبذير في القرآن الكريم على صورة مروعة، حينما يقرن الله تعالى المبذرين بالشياطين، ويجعلهم إخواناً لهم، فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾ (الإسراء:٢٧)، ومن هذا المداد يأتي قول النبي ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا في غَيْرِ إِسْرَافٍ ولا مَخِيلَةٍ، وقال ابن عَبَّاس: كُلْ ما شِئْتَ، وَالْبَسْ واشرب ما شِئْتَ، ما أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أو مَخِيلَةٌ»[2]، وهذا النهي عن الإسراف يشمل الفرد والمجتمع، كما يشمل كل ثروة تتاح، فيجب أن تستغل بعقل وحكمة، وإلا كانت وبالاً ونقمة؛ إذ الإنفاق الزائد، والتبذير في الشهوات، غالباً ما يرجع بالضرر على حق النفس بتبديد طاقتها بلا مبرر، أو بتعويدها الطمع «فيخبث وهج الشوق والتطلع إلى العمل، ويقذف بالإنسان إلى التقاعس والكسل، ويفتح أمامه أبواب الشكوى والحسرة في حياته، حتى ليجعله يئن دوماً، تحت مضض الشكوى والسأم، كما أنه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٥/١٩٤، حديث رقم: ٢١٧٤٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب اللباس، ٥/٢١٨١.

يفسد إخلاصه، ويفتح دونه باباً للريا والتصنع، فيكسر عزته، ويريه طريق الاستجداء والاستخذاء. أما «الاقتصاد، فإنه يثمِّر القناعة، والقناعة تنتج العزة، كما أنه يشحذ الشوق بالسعي والعمل، ويحث عليهما، ويسوق سوقاً إلى الكد وبذل الجهد فيهما»[1]، كما أن في الإسراف اعتداءً على حق الغير بحرمانه مما ينتفع به، إن حالاً للمعاصر، وإن مستقبلاً للأجيال القادمة؛ ولذلك نسب إلى معاوية، رضي الله عنه: «كُلّ سَرَفٍ فَبِإِزَائِهِ حَقٌّ مُضَيَّعٌ»[2]، ونسب إلى أبي بكر، رضي الله عنه، أنه قال: «إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد، وقيل: ما وقع تبذير في كثير إلا هدمه، ولا دخل تدبير في قليل إلا ثمّره، وقيل: إنك إن أعطيت مالك في غير الحق يوشك أن يجيء الحق وليس عندك ما تعطي منه»[3]، فهذا يشير على أن الفقر والحرمان ليس نابعاً من الطبيعة نفسها، وإنما هو نتيجة سوء التوزيع والانحراف عن العلاقات الصالحة التي يجب أن تربط الأغنياء بالفقراء، وقد قيل بحق: «رفاهية المستكبرين ثمنها بؤس العالمين»[4]، و«ما جاع فقير إلا بما منع غني».

٥- فقه أولويات السعي وأصول العمران، فحركة المسلم في تعمير الحياة ينبغي أن تكون حركة واعية، وذلك بالسعي فيما يحقق إشباع حاجيات الأمة الأساسية، بدرجة من الكفاية، بحسب ظروف الزمان والمكان، وبحسب المقاصد

---

(١) بديع الزمان النورسي كليات رسائل النور، اللمعات، ترجمة: إحسان الصالحي (إستانبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٣م) ص٢٢٢.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص١٨٧.

(٣) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق: عمر الطباع (بيروت: دار القلم، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ١/٥٧٩.

(٤) الشيخ عبد السلام ياسين، في الاقتصاد، ص٢٠٩.

الشرعية (حفظ الدين الذي هو الإطار المرجعي التأسيسي للأمة/ وحفظ النفس الفردية والجماعية/ وحفظ الكيان واستمراره في إطار العمارة الإنسانية وتنمية الموارد البشرية/ وحفظ المال وما يقوم عليه من عمليات التنمية والعمران/ وحفظ العقل وما يحمله من عناصر التكوين الثقافي وترسيخ عناصر القيم المتعلقة به) وما لم يتوفر مستوى الكفاية، والحد الأدنى من الأشياء الضرورية، فلا يجوز توجيه هذه الطاقات القادرة على توفير ذلك إلى شيء آخر.

فالعمل واستثمار طاقات الكون، في المنظور الإسلامي، يتم وفقاً لأولويات الواقع، وأولويات الشرع في مقاصده ، فيضع الضروريات (ما لا تقوم حياة الفرد إلا به، ولا تستمر إلا بوجوده، بحيث إذا فقد لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وفوت حياة) قبل الحاجيات (جملة الحاجات الإنسانية في مستويات يسبقها مستوى الكفاف الإنساني) ثم ينظر إلى الكماليات (حركة الإحسان الحضارية، التي تحقق قدراً من الرفه غير المفضي إلى الإسراف والتبذير) إذ لا شك، كما يقول ابن خلدون: «أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه؛ ولأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه، ولأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً»[1].

فيجب السعي في الكون انتفاعاً واستثماراً، أولاً فيما يحافظ على أصل وجود الأمة، وثانياً فيما يحافظ على فعلها وحركتها، وثالثاً فيما يحافظ على إحسانها وإبداعها، وهذا ما أقره علماؤنا؛ عند شرح قول النبي ﷺ: «**مَا مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ، أو إِنْسَانٌ، أو بَهِيمَةٌ،**

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص١٢٢.

إلا كان له به صَدَقَة» إذ اختلفوا: أي الأعمال يكون بها الأجر أكثر؟ ثم قال الإمام العيني: «يختلف الحال في ذلك باختلاف حاجة الناس، فحيث كان الناس محتاجين إلى الأقوات أكثر، كانت الزراعة أفضل للتوسعة على الناس، وحيث كانوا محتاجين إلى المتجر لانقطاع الطرق، كانت التجارة أفضل، وحيث كانوا محتاجين إلى الصنائع أشد كانت الصنعة أفضل وهذا حسن»[1]، وهذا من الفقه العالي الذي تحتاج إليه أمتنا في سعيها الحضاري أشد الاحتياج؛ إذ كثير من ثروات الأمة تبدد هنا وهناك فيما لا طائل تحته، وتهدر طاقاتها فيما لا يعود بالنفع الحقيقي عليها، ثم تطلب المعونات بعد ذلك تتكفف الناس!!

ولا شك في أن «فقه أولويات السعي» من «أصول الفقه الحضاري» الذي يقتضي متطلبات عدة، ويعتمد على منظومة من المستلزمات، ومناطق التفكير والتدبير، وإدراك الواقع، وفهم حركته وامتداداته التاريخية والمستقبلية، بجانب القدرة على رسم خارطة أولويات، يُقدم فيها ما حقه التقديم، ويؤخر ما حقه التأخير، وفقاً لقاعدة المراتب المقاصدية: الضروري، فالحاجي، فالتحسيني، وليس للتحسينات أن تتقدم على الحاجيات، أو الحاجيات على الضروريات في مختلف جوانب الحياة، كما يتم فيها الموازنة بين المقاصد المتزاحمة؛ ليختار منها الأولى، والذي يعم نفعه، وتتعدد مصالحه، مثل: المقارنة بين ما يحقق الرفاهية من بعض الصناعات، وما يقتضيه ذلك من إضرار بالبيئة، وتدمير لموارد الحياة، وحينئذ تكون الأولية، وفق المنظور الإسلامي للحفاظ على البيئة، وموارد الحياة، بل يحرِّم أي سعي يخالف ذلك، كما سيأتي بيانه.

---

(١) عمدة القاري، ١٢/١٥٥.

وهذا ليس تهويناً من الأفعال أو بعضها، ولكن وزناً لها؛ لضبط عملية الأولويات في الأفعال، في مختلف جوانب الحياة... ذلك أو التخبط، بل الضياع!! إذ من نافلة القول تأكيد أن الاختلال في ميزان الأولويات يورث خللاً في السعي الحضاري، وضعفاً في تسخير الكون وتوجيهه حسب الحاجات ووفق القيم، وهذا إما أن يؤدي إلى «الفوضوية» في الممارسة والعمل؛ إذ تسير الأمة في تحريك الحياة على غير هدى، وإما إلى «التقليد والتبعية» (للغير)، فتقدم ما يقدمه هو، وتؤخر ما يراه هو مستحقاً للتأخير، لا لحاجة تدفعها إليها، ولكن لمجرد التقليد، وإما أن يؤدي في النهاية إلى «الاسترقاقية» بأن تصير الأمة في سعيها الحضاري عبدة لسعي غيرها، الذي يستحوذ على إرادتها، ويغيِّب وعيها، ويشل فاعليتها الحضارية، فلا تبتغي «الفضل» بل تبتغي ما عند (الغير)، وهو ما نلاحظه في كثير من سعينا الحضاري المعاصر، حيث «أصبح لفظ العبودية يُقدَّم في المجتمع المعاصر في صورة لفظ من ألفاظ الحرية، بحيث أضحى الأفراد لا يشاركون في تحديد حاجاتهم الحقيقية، وإنما تفرض عليهم الحاجات، حسب متطلبات المشروع الإنتاجي، وبحسب التكييف الذهني الذي يتعرضون له عن طريق وسائل الإعلام، حتى أصبح الإنسان يساوي الاستهلاك والعمل، وأصبح المكر ذكاء، واللانهائي كمّاً، والنمو غاية كمية في الإنتاج والاستهلاك»[1].

والإسلام بهذه القيم والآداب لا يخنق حرية الإنسان في سعيه الحضاري لتعمير الحياة، كما يُظن، وإنما يهذب تلك الحركة، ويضبط نظامها، ويحفظها من

---

(١) رجاء غارودي، حوار الحضارات، ترجمة: عادل العوا، ط٣ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٦م) ص٤٢.

التفاسد والتهالك، ويخضعها للرفق والرحمة؛ إذ «ليسَ المؤمنُ من يشبعُ وجـــارُه جائعٌ إلى جنبِه»[1]، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، وكما قال في حديث آخر: «مَنِ احْتَكَرَ طَعَاماً أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى، وَبَرِئَ الله تَعَالَى منـــه. وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ منهم ذِمَّةُ اللّٰهِ تَعَالَى»[2]، فيستعلي الإنسان بذلك، في سعيه، عن الأنانية والأثرة، وفقاً لقاعدة الإســـــلام الكبرى: «لاَ ضَرَرَ ولا ضِرَارَ» كما قال رسول الله ﷺ[3]. فلا «ضرر» للذات، ولا «ضرار» للخارج عنها، بمراعاة «حقوق النفس» و«حقوق الغـــير» وهـــذه قاعدة كبرى أغلق بها رسول الله ﷺ منافذ الضرر والفساد أمام المسلمين. كما أن الإسلام بذلك يعطي «للربح» مفهوماً أرحب من مدلوله في المـــذاهب الماديـــة الخالصة التي يسير عليها إنسان الحضارة الغربية في حياته فلا يرى غاية وراءها، إذ في الإسلام ليس «الربح» ولا «نمو الثروة» هو الهدف الأصيل، وإن كـــان ممـــا يستهدفه، بل الهدف الأصيل هو التقرب من الله، ونيل رضاه، والفوز بجنته «ابتغاء الفضل منه»؛ ومن ثم يقيم للمثل الأخلاقية العليا المقام الأول في قبول أية حركة.

وبهذا الهدف الأصيل تصبح كثير من النـــشاطات (كالـــصدقة، والعفـــو، والإحسان إلى الناس، وبذل الفضل لهم، وترك استغلالهم) التي تعتبر خسارة بمنظار غير إسلامي، ربحاً ما بعده ربح، فقد قال ﷺ: «إِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَنِعْمَ

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ٣١/٥، حديث رقم: ٥٦٦٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٣٣/٢، حديث رقم: ٤٨٨٠، وأورده الحاكم في المـــستدرك، ١٤/٢، حديث رقم: ٢١٦٥.

(٣) سبق تخريجه.

صَاحِبُ الْمُسْلِمِ ما أَعْطَى منه الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وابن السَّبِيلِ»[1]، وقال أيضاً: «ما نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ من صَدَقَةٍ»[2]، بل يبارك الله له في الدنيا ما يجبر نقصه الحسي، ويثيبه عليها في الآخرة، كما جاء في الحديث المتفق عليه[3]: عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: «قال رسول ﷺ: من تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولا يَقْبَلُ الله إلا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لصاحبها كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّهُ حتى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»، يقول العلامة ابن حجر: «الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيماً، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل بن آدم، لاسيما الصدقة؛ فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة إلى الجبل»[4]، وعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، قال: «كان أَخَوَانِ على عَهْدِ النبي ﷺ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النبي ﷺ وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ، فشكى الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إلى النبي ﷺ فقال: لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ»[5].

وحينما يكون «تحريك الحياة» مؤطراً بعقيدة الخلافة، وما تقتضيه من «تزكية النفس»، و«التعمير الإيماني في الأرض»، لا يصبح القيد الذي يقرِّب من الرب، في حقيقته قيداً، بل هو، في إطار المنظومة القيمية الإسلامية، ضابط لصلاح

(١) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، ٥٣٢/٢، حديث رقم: ١٣٩٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٦٢/٤، حديث رقم: ٢٣٢٥، وقال:«هذا حديث حسن صحيح».

(٣) واللفظ للبخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلاّ من كسب طيب، ٥١١/٢، حديث رقم:١٣٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، ٢م٧٠٢، حديث رقم:١٠١٤.

(٤) فتح الباري، ٢٧٩/٣.

(٥) المرجع السابق، حديث رقم: ٢٣٤٥، وقال:«هذا حديث حسن صحيح».

الحال بتحقيق الخلافة وفق منهج الله في أمره ونهيه، و زاد إلى فلاح المآل حيث الجنة ونعيمها!! وعلى هذا الأساس قد يصبح «الربح» و«الثروة» أحياناً خسارة، عند المحسن اليقظ الواعي، إذا حال دون الظفر برضا الله، والتقرب من حضرته سبحانه، كما قد يصبح ترك ذلك ربحاً في الحقيقة، إذا أدى إلى قربِ العبد من مولاه، وكسبِ الآخرة.

أما النظرة المادية الخالصة التي لا تملك سوى مقياس الربح والخسارة في الدنيا، فيتهددها شبح الفقر دائماً، وتفزع بمجرد التفكير في تسخير الملكية الخاصة لأغراض أعم وأوسع من دوافع الشره والأنانية؛ لأن شبح الفقر المرعب، والخسارة الآنية، يبدو لها من وراء هذا اللون من التفكير، وقد نسب القرآن هذه النظرة المادية الضيقة إلى الشيطان، فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٨).

ب- القيم التي تضبط علاقة الإنسان بالأشياء، والبيئة المحيطة به:

إذا كانت الحضارة هي: ثمرة التفاعل بين الإنسان في سعيه لتحريك الحياة، وعالم الأشياء، فقد جاءت حقائق الوحي لتؤطر حركة المسلم في هذا السعي الحضاري، وتهذبها، وتقومها، وتحدد كيفية تعامله مع الكون المحيط به، بكل مكوناته المتنوعة، الحية وغير الحية، المادية والروحية، المشاهدة والغيبية، والخاضعة لتسخيره، فيكون هذا التعامل تعاملاً إيجابيّاً فاعلاً، وفق مسلمات ثلاث، تمثل تأصيلاً إسلاميّاً فريداً، وفقهاً حضاريّاً مميزاً، للتعامل مع الكون بكل ما فيه، استثماراً وانتفاعاً:

أولاً: وحدة الإنسان والكون (العلاقة الوجودية)[1]، باعتبار الإنسان جزءاً من رحم كوني واسع، وأنه عنصر في موكب كبير من التسبيح، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:٣٨)، فالإسلام يقيم علاقة بين الإنسان ومكونات هذا الكون وموجوداته، تقوم على وحدة[2]:

- **في الأصل**؛ إذ جميع الكون بكل ما فيه من إنس، وكل ظواهر الوجود هي من خلق الله تعالى، ومن المشمولين برعايته وتدبيره، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (الزخرف:٩-١٢).

- **وفي الوظيفة**؛ ففي مشهد كوني عظيم يصور لنا القرآن الوظيفة الحقيقية للكون بكل أطيافه وألوانه، وهي عبادة الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤)، فالكون بكل ما فيه من مخلوقات «كل حصاة وكل

(١) ينظر في ذلك ما كتبه الدكتور عبد المجيد النجار، في كتابه القيم: قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص٧٠ وما بعدها، طبعته وزارة الأوقاف، قطر، ١٩٩٩م، وكتابه: الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فقه التحضر، ١/١٢٨.

(٢) مع تميز قيمي للإنسان في إطار تلك الوحدة.

حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض، وكل سابحة في الماء والهواء، ومعها سكان السماء، كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه»[1].

- وفي المصير؛ فالكل مخلوق لله، ومرجعه إلى الله، يتساوى في ذلك الإنسان مع كل مفردات الكون، وإن اختلف عنها فيما بعد ذلك من مسؤولية وحساب. قال تعالى﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨).

- وفي الافتقار، فقد خلق الله عز وجل الكون مفتقراً إليه سبحانه وتعالى، في الكينونة، وفي الحركة، وفي المصير: خلقاً وتدبيراً، وسيطرة وحكماً. ومفتقراً بعضه إلى بعض، يحتاج كل شيء فيه إلى الآخر، فليس في الكون موجود، كائناً من كان، لا يحتاج إلى دفع شيء عنه، أوجلبه له؛ ومن ثم كانت العلاقة متبادلة بين كل أفراد الكون، يمد كل منها الآخر، ويحوطه بعطائه، يقول الإمام المُناوي، في ملحظ دقيق، عند حديثه عن الزكاة ووجوب أدائها: «واعلم بأن الوجود كله متعبد لله بالزكاة ، انظر إلى الأرض التي هي أقرب الأشياء إليك، تجدها تعطي أقرب الخلق إليها، وهم من على ظهرها، جميع بركاتها لا تبخل عليهم بشيء مما عندها، وكذا النبات يعطي ما عنده، وكذا الحيوان والسماء والأفلاك، الكل متعاون بعضه لبعض، لا يدخر شيئاً مما عنده في طاعة الله؛ لأن الوجود كله فقير بعضه إلى بعض، قد لزم الفقر وشملته الحاجة»[2].

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/٢٤.

(٢) فيض القدير، ٥/٥٠٥.

وتأسيساً على هذه المسلمة «وحدة الإنسان والكون» تكون علاقة الإنسان بالكون وما فيه من أشياء، في المنظور الإسلامي، هي علاقة ذات بعد وجداني وروحي، ممتلئة بوشائج الأخوة والقربى، وما يتجلى فيها من معاني الحب والود، والرأفة والرحمة، بعيداً عن أي معنى من معاني العداوة والصراع، والقهر والسيطرة!! فيشعر بوشائج بينه وبين الكون، حتى كأنه يملك روحانية مثل روحانيته، يقول رسول الله ﷺ في جبل أحد، وهو ليس إلا رمزاً لعالم الأشياء كله: «جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[1]، ويقول ﷺ: «أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمْ؛ فَإنها خُلِقَت مِن فَضلة طينة أبيكم آدَمَ»[2].

وأي تصور للعلاقة بين الإنسان والكون خارج هذه «الوحدة» وبعيداً عن «وشائج القربى» لابد أن يؤول، ولا شك، إلى فساد، وهذا ما نراه الآن من علاقة غير سوية بين الإنسان والكون، ابتداءً من التصور الفلسفي لهذه العلاقة، وانتهاء بالتعامل السلوكي الشاذ مع الكون، وهي علاقة قائمة في مجملها، على التحدي والصراع، والنزوع الجامع للسيطرة على الكون وما فيه من أشياء، وفق منظور «براجماتي» يمعن في استنزاف خيرات الأرض ومقدراتها، وفي سياق نزاع إلى «تسليع» كل شيء يقوم على الهدم والتدمير، ويوجه الرغبة في إشباع الشهوات، بناء على نمط إنتاج استغلالي عنيف، وهو العنف الذي يعكس أكبر ضعف إنساني في التاريخ، حتى أصبح الكون يوشك أن يمتنع عن العطاء!! وهذا ما أقره فلاسفة الغرب، ومفكروه، في تناولهم الأزمة البيئية الحالية، وما يعانيه كوكب الأرض من طغيان الإنسان، وعداثه لعالم الأشياء، وعلى رأس هؤلاء

---

(1) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: خرص التمر، ٢/٥٣٩، حديث رقم:١٤١١.

(2) أخرجه أبو يعلى في مسنده، من حديث سيدنا علي بن أبي طالب، ١/٣٥٣، قال في كشف الخفاء، ١/١٩٥: «وفي سنده ضعف وانقطاع».

آل جور، نائب الرئيس الأمريكي الأسبق، في كتابه: «الأرض في الميزان» الـــذي أداره كله على: اعتبار أن السبب الأصلي في الأزمة الكونية التي يشهدها العـــالم الآن هو علاقة الانفصال، والجفوة بل الصراع، القائمة بين الإنسان وعالم الأشياء، ومحاولة تكييف الكون للإرادة البشرية، وهو المنطق المعاصر لحضـــارة العـــالم، كما يقول آل جـــور.[1] وفي عبارة ذات دلالة موحية، يقول بيلت: «إذا كـــان القرن التاسع عشر قد قتل الإله، وقتل القرن العشرون الإنسان، فقد بقي علـــى القرن الحادي والعشرين أن يقتل الطبيعة!!»[2]، وهـــذا أمر حتمي في المناهـــج التي تقطـــع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون به وفيه!!

أما إذا كانت علاقة القربى هي التي تتحكم في علاقة الإنسان بما حوله مـــن الأشياء، كما قرر الإسلام، فإن هذا يقتضي تصرفاً أخلاقيّاً بين الإنسان والكون، يكون كتصرف الإنسان مع أخيه الإنسان، عدلاً وتراحماً وإحساناً، وفقاً للمبـــدأ

---

(١) ومن بين ما عبر به آل جور عن فكرته تلك قوله: «إننا عندما نعتبر أنفسنا شيئاً منفصلاً عن كوكب الأرض، فإننا نجد من السهل علينا أن نحط من قدره.. إننا عندما نتصور أننا منفصلون عن كوكب الأرض، فهذا معناه أنه ليس لدينا أدنى فكرة عن كيفية تلازم وضعنا في دورة الحياة الطبيعية، وأننا لا نفهم عمليات التغير في الطبيعة، تلك العمليات التي نتأثر بها، والتي نؤثر فيها بدورنا، إن هذا يعني أننا نحاول أن نحدد مسار حضارتنا، متخذين من أنفسنا النقطة المرجعية الوحيدة، فلا عجب إذا فقدنا الطريق، وأصابنا التشويش والضياع، ولا عجب أن يشعر الكثيرون بضياع حياتهم، إن نوعنا الحي تعوّد على النمو والازدهار داخل رحم الحياة المحكم القائم على مفهوم الاعتماد المشترك، ولكننا اخترنا أن نخرج من الجنة، بتصور أنفسنا منفصلين عن كوكب الأرض. وما لم نعثر على طريقة نغير بها على نحو جذري حضارتنا، وطريقتنا في التفكيـــر فيما يتعلق بالعلاقة بين الجنس البشري وكوكب الأرض، فإن أولادنا سيرثون أرضاً خراباً» الأرض في الميزان، الإيكولوجيا وروح الإنسان، ص ١٦٧. وينظر ما كتبه في ذلك كل مـــن: جان ماري بيلت، في كتابه: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ترجمة السيد محمد عثمـــان، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافـــة والفنـــون والآداب، الكويـــت، ع١٨٩، وروبـــرت أم. أغروس، وجورج ن. ستانسيو، في كتابهما: العلم في منظوره الجديد، ترجمة:د. كمال خلايلي،، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع١٤٣.

(٢) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص٢٢.

الإسلامي: «أن لكل خَلق حقاً أو حقوقاً تخصه»!! وهذا ما لحظه علماء الإسلام، فقد تقدم في شرح حديث النبي ﷺ: «**من لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ**»[1]، أن العلامة ابن حجر، قال: «قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر، والبهائم المملوك منها وغير المملوك»[2]. ومن أبرز روائع حضارتنا الإسلامية في ذلك، ما عرف بـ«وقف الكلاب الضالة» وهو «وقف في عدة جهات، ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب؛ استنقاذاً لها من عذاب الجوع، حتى تستريح بالموت، أو الاقتناء»[3]، ومن ذلك أيضاً: «الوقف الذي كان مخصصاً لجحافل الحمام، التي استوطنت أروقة وزوايا جامع الزيتونة بتونس، وقد كانت أيضاً، تخصص دوريات راتبة، تحت راية ما يعرف بنظام الحسبة، تجوب المدن الإسلامية والبوادي؛ لتمنع الناس من تحميل الدواب أكثر من طاقتها، ومن الاعتداء عليها بالضرب والتجويع»[4]، وإذا عُلم أن هذه الأوقاف هي عمل شعبي، وليس حكومياً تبين مدى الوعي الحضاري الذي بلغه المسلمون أيام شهودهم الحضاري، بل وصل الأمر في حضارتنا أن قرر الفقه الإسلامي جملة من الحقوق للبهائم والحيوانات على الإنسان، مما يُعد من نوادر الحضارات!! يقول العز بن عبد السلام، في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»[5]: «حقوق البهائم والحيوان على الإنسان، وذلك: أن ينفق عليها

(١) سبق تخريجه.
(٢) فتح الباري، ١٠/٤٤٠.
(٣) يوسف القرضاوي، تاريخنا المفترى عليه، ط٢ (دار الشروق، ٢٠٠٦م) ص١٤٢.
(٤) عبد المجيد النجار، مراجعات في الفكر الإسلامي، ط١ (تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٨م) ص٢٨٧.
(٥) ١/١٤١.

نفقة مثلها ولو زمنت أو مرضت بحيث لا ينتفع بـــها، وألاّ يحمـــلها ما لا تطيق، ولا يجمع بينها وبين ما يؤذيها من جنسها أو من غير جنســـها، بكَرٍّ، أو نطـــح، أو جرح، وأن يحسن ذبحها إذا ذبحها، ولا يمزق جلدها، ولا يكسر عظمها حـــتى تبرد وتزول حياتها، وأن لا يذبح أولادها بمرأى منـــها، وأن يفردهـــا، ويحـــسن مباركها وأعطانها، وأن يجمع بين ذكورها وإناثها في إبان إتيانها، وأن لا يحـــذف صيدها ولا يرميه بما يكسر عظمه أو يرديه بما لا يحلل لحمه».

فلم تكن العـــلاقة، يوماً، بين المســـلم والكون، علاقة عداء أو طغيـــــان، أو مغالبة وعنف، بل كانت علاقة قربى وأخوة، بل ضرباً من ضروب العبـــادة لله تعالى، والقرب منه، باعتبار الكون، بكل ما فيه من أشياء، مظهراً مـــن مظـــاهر الإبداع الإلهي المتجلي في دقة صنعه، وجمال منظره، وحسن تقـــديره، و بليـــغ الحكمة في تفاصيل جزئياته، وكليات السنن الجارية عليه[1]. وهذا هو مقتـــضى قولـــه تعـــالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبـــــوت:٢٠)، وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (يـــونس:١٠١)، وقولـــه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٥)، وغير ذلك من الآيات التي فيها حث على النظر والاستدلال، والتفكر في صنع الله وخلقه وتدبيره، وكان ذلـــك

(١) عبد المجيد النجار، قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص١١٧.

هو الدافع لكل علماء المسلمين في حسن تعاملهم مع الكون، وبليغ إصغائهم لعالم الأشياء فيه، يقول الجاحظ، في كتابه «الحيوان» بعد أن أنهى حديثه عن الكلب وما جاء من مناظرة بينه وبين الديك: «فليس لقَدْر الكلب والدِّيك في أنفسهما، وأثمانهما، ومناظرهما، ومحلِّهما من صُدور العامَّة، أسلفنا هذا الكلام، وابتدأنا بهذا القول، ولسنا نقف على أثمانهما من الفضَّة والذَّهب، ولا إلى أقدارهما عند الناس، وإنما ننظر فيما وضع اللّٰه عزَّ وجلَّ فيهما من الدَّلالة عليه، وعلى إتقان صُنْعه، وعلى عجيب تدبيره، وعلى لطيفِ حكمته»[1].

ثانياً: التسخير (العلاقة الوظيفية)[2]، وهذا هو الأصل الثاني، في ضبط علاقة الإنسان بالكون، فإذا كانت هناك وحدة بين الإنسان والكون، وفق المنظور الإسلامي، أصلاً وغاية ومصيراً، فإن هناك تميزاً قيمياً للإنسان في إطار هذه الوحدة، وهو تسخير الله الكونَ للإنسان، انتفاعاً واستثماراً، باعتباره خليفة في الأرض، ومهمة الكون أن يستجيب للإنسان؛ لأداء المهمة الحضارية التي جُعل الكون مسرحاً لها، وهي تعمير الأرض وتحريكها وفق منهج الله في أمره ونهيه، ووفق سننه وقوانينه الثابتة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ

---

(١) الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت: دار الجيل، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ٢/١٠٩.

(٢) «التسخير» هو: «سياقةٌ إلى الغرض المختص قهراً، فالمسخَّر هو المقيض للفعل»، المفردات في غريب القرآن، ص٢٢٧، وهناك مصطلحان آخران يتعاوران في القرآن الكريم مع «التسخير» للدلالة على إخضاع هذا الكون للإنسان، وهما: أ- التذليل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك:١٥) ب- التمكين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف:١٠).

لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤)، فإن هذه الآيات الكريمة، وغيرها كثير، تقرر أن الكون كله، بكل ما فيه من عالم الأشياء، مهيأ في أصل صنعته من قبل صانعه تهيئة مقدرة، بحيث يستجيب للإنسان، بقدر، فيما خُص به من مهمة في الحياة، إذا ما اتجه الإنسان بكل ما أوتيه من فكر وقدرات إلى ذلك، فكل «ما في السماوات من شمس وقمر ونجم وسحاب، وما في الأرض من دابة وشجر وماء وبحر وفلك، وغير ذلك من المنافع، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم، لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم، تتمتعون ببعض ذلك كله، وتنتفعون بجميعه»[1].

وهذا الأصل «التسخير» الذي يضبط علاقة الإنسان بالكون، يشير، في بنائه، إلى أمور ثلاثة:

- أن الإنسان لا يملك من ذلك الكون، على وجه الحقيقة، أي شيء، إنما هو مستخلف فيه، ووكيل من قبل الله الذي يملك الكون وجميع ما فيه ومن فيه، وهو المعنى المستبطن في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:١٨٩)، وقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ (الحديد:٧)، فكل إنفاق في الكون، إنما هو إنفاق مما استخلف الله فيه العبد، ومعنى ذلك: أن الإنسان ليس سيد هذا الكون، وإنما هو سيد فيه، وسيادته في الكون إنما هي نعمة أنعم بها عليه سيد هذا

---

(١) تفسير الطبري، ١/٧٧-٧٨.

الوجود، وهو الله تعالى، وفضل إلهي لمعونة الإنسان في حركته الحضارية؛ تكريماً له، وتمكيناً من القيام بمهام الاستخلاف في عمارة الكون، والعبودية لخالقه. وبذلك يزيّف الإسلام، بكل اطمئنان وثقة، تلك العلاقة التي تقوم بين الإنسان والكون، في النموذج الغربي التائه، والتي تنطلق من أن الإنسان يسود الطبيعة، ويملك الأرض وما عليها، وأن الطبيعة أَمَة للإنسان، وليست أُمّاً له، وكانت النتيجة أن بدأت الأرض تموت!! إذ أصبح في تحريكه للحياة «إما محاولاً غزو طبيعة معادية والسيطرة عليها، وإما ساعياً وراء نعيم مادي مثالي على الأرض»[1].

– أن تسخير الله الكونَ للإنسان ليس مجانيًّا، بحيث يمكن للإنسان أن ينتفع بمفردات الكون ومعطياتها بلا سعي منه، بل هو تسخير، في غالبه، مرتبط بحركة الإنسان في الكون، وسعيه في الانتفاع بمقدراته، وتعامل الإنسان مع الأرض بضروب مختلفة من التعمير، لا تكون له ثمرة إلا بما تقدم له هي من عطاء؛ ومن ثم كان من القيم التي يربي عليها الوحي المسلم: أن تعمير الأرض والبناء فيها، وفق منهج الله، عبادة يجب على المسلم أداؤها، ويثاب على فعلها، ويأثم بتركها، وهذا هو مقتضى مفهوم «الاستخلاف»، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك:١٥)، فقوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ دعوة إلى الفعل الدؤوب، والحركة المستمرة في الاستفادة من خيرات الأرض، وعطاءات الكون، ووفق هذا التصور يُعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض، ولا يستغل طاقات الكون

---

(١) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص١٠٥.

المسخرة له، عاصياً لله، ناكلاً عن الوظيفة التي خلقه الله لها، ومعطّلاً لـرزق الله الموهوب للعباد، يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة، ففي الحديث: «**يُؤتى بالْعَبْدِ يوم الْقِيَامَةِ، فيقول الله له: أَلَمْ أَجْعَلْ لك سَمْعاً وَبَصَراً وَمَالاً وَوَلَداً، وَسَخَّرْتُ لك الأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَكُنْتَ تَظُنُّ أنَّكَ مُلاَقِي يَوْمَكَ هـذا؟ فيقول: لاَ. فيقـول له: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كما نَسِيتَنِي**»[1]، وفي هذا إشـارة إلى أن التقصير في الانتفاع بما سخر الله تعالى صفة من يكذب بلقائه تعالى، ولا يهتـدي إلى وحدانيته!! ومن ثـم قال عمر ابن الخطاب، رضـي الله عنـه: «لا يقعـد أحدكم عن طلب الرزق، يقول: اللهم ارزقني؛ فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة»[2]، إذ قاعدة الإسلام في ذلك: «ليس العبادة أن تصف قدميك، وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفيك، أولاً، ثم تعبد»[3].

- أن هذا التسخير ليس مطلقاً، بإطلاق يد الإنسان في الكون، بلا ضوابط، بل هو تسخير مضفوز بالواجب، المنوط بالإنسان في تعمير الحيـاة، والـسعي في الكون، انتفاعاً واستثماراً، واستخدام المسخرات لتحقيق الخلافة وفق منـهج الله، وكل حركة في الحياة لاستخدام «مسخرات» الله على غير منهاجـه، بالإفـساد والإتلاف، تعد عصياناً لله، وغصباً لمسخراته!! و«التسخير» بذلك المفهوم، يعد قوة ضابطة في مجال السلوك، وقيداً صارماً يفرض على الإنسان، في تعامله مع الكون

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ٦١٩/٤، حديث رقم: ٢٤٢٨، وقال: «هذا حديث صحيح غريب» و«تربع»: أي تأخذ ربع الغنيمة، كناية عن الملك؛ لأن الملك كان يأخذ ربـع الغنيمـة فـي الجاهلية دون أصحابه، ويسمى ذلك الربع: «المرباع»، وفي رواية: «ترتع» أي: تتنعم. وروى نحوه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، ٢٢٧٩/٤، حديث رقم:٢٩٦٨.

(٢) إحياء علوم الدين، ٦٢/٢.

(٣) المرجع السابق

وعالم الأشياء، الالتزام بمنهج الخالق الذي سخرها له، والذي إن شاء، انتزعها منه في أية لحظة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ (النساء:١٣١-١٣٣)، فيجب على الإنسان أن يلتزم في تعامله مع المسخرات بمنهج الله تعالى، وذلك «يتم من خلال منظومة مفاهيمية، تمثل ضابطاً، ومحدداً لكيفية الاستفادة من البيئة أو المسخرات، وهذه المنظومة تشتمل على مفاهيم، مثل: التوحيد، الخلافة، الأمانة، الحلال، الحرام، العدل، الاعتدال. وذلك في إطار الإيمان بأن هذه المسخرات مخلوقات، تسبح بحمد الله وتعبده، وتشكل أمماً كاملة مثل الأمم البشرية؛ ومن ثم فإن على الإنسان أن يراعي حقوقها، كأمر أخلاقي من ناحية، وكأمر تشريعي من ناحية أخرى»[1].

ثالثاً: الائتمان الكوني (العلاقة الارتفاقية)[2]، وهذا أصل الأصول، والقيمة الجامعة التي تتحكم في كل سعي المسلم، وتعامله مع الحياة والأحياء؛ فالإنسان، وفق المنظور الإسلامي، إذ سخر الله له الكون، واستخلفه فيه، فهو مؤتمن عليه، وعلاقته بالكون، في جوهرها، ليست علاقة مالك بمملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها، وفق مفهوم التسخير، ومقتضيات الاستخلاف.

---

(١) نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصر، ص٤٠٠.

(٢) «الارتفاق» مفهوم يعود في مدلوله اللغوي إلى معنيين أساسيين، هما «الرفق» و«الانتفاع» كما جاء في لسان العرب، مادة: (رف ق). وجاء في مقاييس اللغة، لابن فارس (٤١٨/٢): أن هذه المادة «أصل واحد يدل على موافقة، ومقاربة بلا عنف» فتكون العلاقة «الارتفاقية» هي الضابطة لتعامل الإنسان وفق المنظور الإسلامي مع الكون، انتفاعاً بالمقدرات المودعة فيه، ورفقاً بهذا الكون أن يناله الفساد. ينظر: الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فقه التحضر، ١٢٧/١.

و«الائتمان الكوني» مفهوم حاولنا تركيبه؛ لما يحمله من معان ودلالات مستبطنة في تعاليم الوحي، قرآناً وسنة، من حيث وجوب التزام الإنسان، ماديّاً وأخلاقيّاً، نحو كل الموجودات والأشياء في الكون، فيما له هو منها، وما لها هي منه، ولما يضيفه هذا المفهوم من وعي حضاري في «تحريك الحياة»، ذلك أن المسلم، وفق هذا المفهوم، ليس مطالباً باستشراف الكون، رؤية وتخطيطاً فقط، بل هو مؤتمن على الكون، حاضراً، ومستقبلاً أيضاً!! ولعل في حديث النبي ﷺ: «**إن قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فإن استَطَاعَ ألاَّ يَقُومَ حتى يَغرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**، وفي رواية: **فَلْيَغرِسْهَا**»[1]، خير دليل على أن المسلم مؤتمن على مستقبل هذا الكون، يقول الإمام المناوي في شرح الحديث، بعد أن ذكر خفاء الحكمة منه على بعضٍ من الأئمة الأعلام: «والحاصل: أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع، وإن لم يبق من الدنيا إلا صبابة»[2].

وهذا المفهوم «الائتمان الكوني» في بنائه الإسلامي، بما يفيده من «حفظ الحقوق» و«مراعاة الأخلاق» يقوم على أبعاد ثلاثة في غاية الأهمية، تمثل قيماً تليق بعالم صادر عن الله، ومتجه إلى الله، وصائر إلى الله في نهاية المطاف، وهذه الأبعاد:

١- **التفاعل الإيجابي مع مفردات الكون ومعطياته**، تفاعلاً يكون للقيم الأخلاقية فيه النصيب الوفير في توجيه حركة الإنسان في تعامله مع الكون المؤتمن عليه، انتفاعاً بالمقدرات المودعة فيه، ورفقاً به، وحفاظاً له من أن يناله فساد،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي بقية غير جديرة بالنظر لقلتها، فيض القدير، ٣/٣٠.

وبعيداً عن أي معنى من معاني القهر والصراع «بحيث تنتفي منه معاني الاستهتار واللامبالاة، كما تنتفي معاني الأنانية والأثرة، ومعاني الحقد والتسلط والاحتقار»[1]، وهذا التفاعل الإيجابي يقتضي «الاستثمار النافع» و«العمل الصالح» اللذين هما أساس كل الفاعليات الحضارية في الإسلام، وقاعدة الإسلام الكبرى في ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ (الأعراف:٥٦)، وقوله عز وجل: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:١٤٢).

وفي سياق هذا البعد «التفاعل الإيجابي مع مفردات الكون ومعطياته»:

- نهى الإسلام عن تعطيل أيٍّ من ثروات الكون، وسحبها عن مجالات الانتفاع والاستثمار، واعتبر الإسلام فكرة تعطيل هذه الثروات أو إهمالها، لوناً من ألوان الجحود، وكفراناً بالنعمة التي أنعم الله بها على عباده، يقول تعالى في معرض إبطال مزاعم أهل الجاهلية، فيما حرموه من اللباس والطعام: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢).

- اعتبر الإسلام أن الأرض لمن يزرعها ويقوم باستثمار منافعها، وهو ما يعرف في الفقه الإسلامي بـ«إحياء الموات» أي: خدمة الأرض وبناؤها، فقد جاء في صحيح البخاري: «بَاب من أَحْيَا أَرْضاً مَوَاتاً، وَرَأَى ذلك عَلِيٌّ في أَرْضِ الْخَرَابِ بِالْكُوفَةِ مَوَاتٌ، وقال عُمَرُ: من أَحْيَا أَرْضاً مَيِّتَةً فَهِيَ له، وَيُرْوَى عن

---

(١) عبد المجيد النجار، قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص١٩٧.

عمرو بن عَوْف عن النبي»[1]، قال ابن حجر: « «الموات» الأرض التي لم تعمَّر، شبهت العمارة بالحياة، وتعطيلها بفقد الحياة، و«إحياء الموات» أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد، فيحييها بالسقي، أو الزرع، أو الغرس، أو البناء، فتصير بذلك ملكه، سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد، سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن. وهذا قول الجمهور»[2]، وفي هذا يقول الإمام ابن حزم: «كُلُّ أَرْضٍ لاَ مَالِكَ لها، وَلاَ يُعْرَفُ أنها عُمِّرَتْ في الإِسْلاَمِ، فَهِيَ لِمَنْ سَبَقَ إِلَيْهَا وَأَحْيَاهَا»[3].

– جعل ﷺ تعطيل ثروات الأرض، أو إهمالها، سبباً في نزعها من صاحبها، فقال ﷺ: «**من كانت له أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، فَإِنْ لم يَزْرَعْهَا فَلْيُزْرِعْهَا أَخَاهُ**»[4]، ومن ذلك ما ورد أن رسول الله ﷺ أقطع بلال بن الحارث أرضاً، فاحتجرها ولم يُعمِّرها، فلما كانت خلافة عمر، رضي الله عنه، قال له: «يا بلال، إنك استقطعت رسول الله ﷺ أرضاً طويلة عريضة فقطعها لك، وإن رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئاً يُسأله، وأنت لا تطيق ما في يديك. فقال: أجل. فقال: فانظر ما قويت عليه منها فأمسكه، وما لم تطق وما لم تقو عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين، فقال: لا أفعل، هذا شيء أقطعنيه رسول الله ﷺ فقال عمر: والله لتفعلن، فأخذ منه ما عجز عن عمارته، فقسمه بين المسلمين»[5].

---

(١) صحيح البخاري، ٨٢٣/٢.

(٢) فتح الباري، ١٨/٥.

(٣) المحلى (بيروت: دار الآفاق الجديدة) ٢٣٣/٨.

(٤) متفق عليه، واللفظ لمسلم، كتاب: البيوع، باب: كراء الأرض، ١١٧٦/٣، حديث رقم: ١٥٣٦؛ وصحيح البخاري، كتاب: الهبة وفضلها، باب: فضل المنيحة، ٩٢٧/٢، حديث رقم:٢٤٨٩.

(٥) يحيى بن آدم القرشي، الخراج، ط١ (لاهور، باكستان: المكتبة العلمية، ١٩٧٤م) ص١١٠.

- ومن ثم نهى الإسلام عن «الحِمى» وهو اكتناز أرض وحيازتها بالقــوة، بلا أية حــركة لإحيائها واستثمــارها، فقد سُئِلَ النبي ﷺ عَنِ الْحِمَى، فقــال: «لا حِمَى إلا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ»(1). وفي حديث ذي دلالة موحية على منع كل حركة في الحياة تؤدي إلى تعطيل ثرواتها، أو منع نمائها، يقول عبد الله بن عُمَرَ، رضي الله عنهما: «نهى رسول اللَّهِ ﷺ عن إِخْصَاءِ الْخَيْلِ وَالْبَهَائِمِ، وقال ابن عُمَرَ: فيهــا نَمَاءُ الْخَلْقِ»(2)، ومن ذلك قول النبي ﷺ لمضيفه الأنصاري الــذي أراد إكرامــه بذبح شاة: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ»(3)، لما في ذلك من قطع للانتفاع بحليبها، مع أن في ذبح غير الحلوب ما يغني عن ذبحها، وفي ذلك كله، دلالة على أنه لا يجــوز أن تعطل معطيات الكون عن: «دورها الإيجابي في الإنتاج، بل يجب أن تظل دائمــاً عاملاً قوياً يساهم في رخاء الإنسان، ويُسرِ الحياة، فإذا حال الحق الخــاص دون قيامها بهذا الدور، أُلغي هذا الحق، وكيفت بالشكل الذي يتيح لها الإنتاج»(4).

٢- القوامة وضرورتها في تنظيم علاقة الإنسان بالكون المسخَّر له، وهذا هو البعد الثاني في مفهوم «الائتمان الكوني» فعــلاقة الإنسان بالكون وما فيه من عالم الأشياء، وفق المنظور الإسلامي، هي علاقة «قوامة».

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٨٢/٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٢٤/٢، حديث رقم: ٤٧٦٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الأضاحي، باب: جَوَازِ اسْتِتْبَاعِهِ غَيْرَهُ إلى دَارِ من يَثِقُ بِرِضَاهُ بِــذَلِكَ، ١٦٠٩/٣، حديث رقم: ٢٠٣٨.

(٤) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ص٦٥٥، وينظر: عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٦م) ص٢٣١؛ يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص١٦١، وما بعدها.

و«القوامة» مفهوم إسلامي يدل في بنائه على «آداب سلوكية» تقوم على: «الرعاية والإشراف» و«المحافظة والإصلاح» و«اتقاء عناصر التهديم والتدمير»[1]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٣٤)، قال ابن عطية في تفسيره: «قوّام: فعّال، بناء مبالغة، وهو من: القيام على الشيء، والاستبداد بالنظر فيه، وحفظه بالاجتهاد»[2].

ووفق هذا المفهوم «القوامة» فإن علاقة المسلم بالكون، باعتباره قيّماً عليه، مؤطرة بأصول وقيم، مشتقة من الفطرة الإنسانية في خيريتها، ومحددة بتعاليم الشريعة في مسالكها، على النحو التالي:

- الرفق والرحمة، فالتراحم، في المنظور الإسلامي، لا يقوم بين الإنسان وأخيه الإنسان فحسب، بل يقوم أيضاً بينهم وبين الأشياء من حولهم، فينبغي أن تكون أخلاق الإنسان مع الكون بكل مظاهره غاية الرحمة، رحمة الإنسان بأخيه الإنسان نوعاً وقدراً؛ ليس حفظاً لقيمة الوجود، واحتراماً لوحدة الأصل، فحسب، بل أيضاً لأن الكون لا ينفك يبادلنا هذه الرحمة، وقد غمرنا بعطاءاته ورحماته، وما يزال يغمرنا!! وقاعدة الإسلام الكبرى في ذلك: قول النبي ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ**»[3]، قال العلامة المُناوي: «بصيغة العموم، يشمل جميع أصناف الخلائق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والمبهم، والوحش والطير»[4]، وفي هذا السياق يأتي حديث عبد الرحمن

---

(١) لسان العرب، مادة (قوم).
(٢) المحرر الوجيز، ٢/٤٧.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) فيض القدير، ١/٤٧٣.

ابن عبد الله عن أبيه، قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لحَاجَته، فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتْ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفرشُ، فَجَاءَ النبي ﷺ فقال: من فَجَعَ هذه بولَدهَا؟! رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا، وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قد حَرَّقْنَاهَا، فقال: من حَرَّقَ هذه؟! قُلْنَا: نَحْنُ. قال: إنه لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إلا رَبُّ النَّارِ»[1]؛ ولهذا قرر علماؤنا أن «الرفق بالدواب في ركوبها والحمل عليها، وكذلك سائر الموجودات، واجب سنة، وهذه مسألة عظيمة الأجر والعقاب، وكذا تحميل الدواب أكثر مما تقدر عليه بحسب العادة، وغير ذلك. وذلك كله من نزع الرحمة من القلوب»[2].

- المحافظة والحماية، فـ «قوامة» الإنسان على الكون تقتضي الاجتهاد في نماء مفرداته، وتثميرها، وإيصال المنافع إليه، وصيانته، والحفاظ عليه من كل حركة تعبث بمعطياته، أو تستهتر بمقدراته، أو تعطل منافعه، وقد قرر علماء الإسلام «أن مقصد الشريعة من التشريع: حفظ نظام العالم، وضبط تصرف الناس فيه، على وجه يعصم من التفاسد والتهالك»[3]؛ ومن ثم جعل الإسلام تنمية الكون بالعطاء فيه من أوكد العبادات، حتى وإن قامت الساعة لا يتخلى عنها الإنسان، كما جاء في حديثه ﷺ: «إِن قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَد أَحَدكُمْ فَسيلَةٌ فإن استَطَاعَ ألاَّ يَقُومَ حتى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وفي رواية: فَلْيَغْرِسْهَا»[4]، كما جعل «إماطة الأذى عن الطريق» عبادة، وشعبة من شعب الإيمان، كما جاء في صحيح مسلم[5]، عن

(١) سنن أبي داود، ٣/٥٥، حديث رقم: ٢٦٧٥.
(٢) الشيخ عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية لنظام الحكومة النبوية، ٢/١٥٢-١٥٣.
(٣) الشيخ الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص٢٣٠.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، ١/٦٣، حديث رقم:٣٥.

أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عن الطَّرِيقِ**»، وهذا يؤسس لفقه شغوف بـ«حسن المجاورة لنعم الله تعالى وحراستها».. ومن التوجيهات النبوية ذات الدلالة في هذا الشأن ما روته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، قالت: «دخل رسول الله ﷺ يوماً، فرأى كسرة ملقاة، فمشى إليها فأخذها فمسحها ثم أكلها، ثم قال: يا عائشة، **أحسني جوار نعم الله؛ فإنها قل ما تزول عن أهل بيت، فكادت أن تعود إليهم**»[1]، وقوله ﷺ، فيما يرويه أنس، رضي الله عنه: «**إذا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِطْ عنها الأَذَى، وَلْيَأْكُلْهَا ولا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ** (تتبع ما بقي فيها من الطعام) قال: **فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ في أَيِّ طَعَامِكُمْ الْبَرَكَةُ**»[2]، فهذان الحديثان، وغيرهما كثير، يدلان على وجوب «حسن المجاورة لنعم الله، من تعظيمها، وتعظيمها شكرها، والرمي بها من الاستخفاف بها، وذلك من الكفران، والكفور ممقوت مسلوب، فارتباط النعم في شكرها، وزوالها في كفرانها، ومن عظمها فقد ابتدأ في شكرها، ومن صغرها أو استخف بها فقد تعرض لزوالها»[3].

والمحافظة والحماية للكون وما فيه من عالم الأشياء يأتي وفق القاعدة الإسلامية الكبرى: «لاَ ضَرَرَ ولاَ ضِرَارَ» وفروعها (الضرر يزال قدر الإمكان، ويتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٦/٢٩٣، حديث رقم: ٦٤٥١، وللحديث روايات ذكرها الإمام العجلوني في كشف الخفاء، ١/٢٨٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الأشربة، حديث رقم ٢٠٣٣.

(٣) الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد الرحمن عميرة (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م) ٢/٢٦٤.

والضرر لا يزال بالضرر، وارتكاب أخف الضررين، وما جاز لعذر بطل بزواله) والتي تضبط كل تحركات المسلم في الحياة، بكل تنوعاتها وامتداداتها، لا يُستثنى من ذلك مجال، وفي مجال التعامل مع الكون قد تحولت إلى أصول وقواعد تجب مراعاتها ضمن عناصر الفلسفة الكامنة فيها، حتى تكون حركة الإنسان في الكون حركة واعية، وفاعلة، وذات بصيرة؛ ومن ثم:

- نهى الإسلام عن «إضاعة المال» وهو رمز لإهمال معطيات الكون، وعدم حمايتها، وترك المحافظة عليها، فقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وقال، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»[1]، وأظهر ما قيل في بيان «إضاعة المال» أن المراد به: سوء قيام الإنسان على ما يملكه، بأن يتركه من غير حفظ له فيضيع، أو يتركه حتى يفسد، أو يرضى بوضعه في غير حقه[2]، وكان عمر، رضي الله عنه، دائم القول، في لفتة تعد من أصول الفقه الحضاري: «لا يقلّ شيء مع الإصلاح، ولا يبقى شيء مع الفساد»[3]، قال الإمام الطاهر بن عاشور، مبيناً الحكمة من وجوب حفظ أموال الأمة وصيانتها من العبث: «والمقصد الشرعي أن تكون أموال الأمة عدة لها، وقوة لابتناء أساس مجدها، والحفاظ على مكانتها؛ حتى تكون مرهوبة الجانب، مرموقة بعين الاعتبار، غير محتاجة إلى من قد يستغل حاجتها، فيبتز منافعها، ويدخلها تحت نير سلطانه»[4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: عقوق الوالدين، ٨٤٨/٢، حديث رقم: ٢٢٧٧.

(٢) ينظر: الإمام العيني، عمدة القاري، ٦١/٩.

(٣) ابن رشد، البيان والتحصيل، ٥٩٨/١٧ .

(٤) التحرير والتنوير، ٧٩/١٥. ورعاية لهذا المعنى عدت الشريعة كل جاهل لحفظ ماله والعامل على تبذيره، سفيهاً يجب الحجر عليه في جميع تصرفاته، رعاية لمصلحته، ومنع ضرره عن غيره. ينظر: عز الدين بن زغيبة مقاصد الشريعة الخاصة بالتصرفات المالية، ط١ (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ص١٥٣.

- كما نهى الإسلام عن استخدام معطيات الكون في غير ما هي له، أو إتيانها في غير مآتيها، مما يعطل منافعها، ويبدد مقدراتها في غير وجه، ففي إشارة تمثل أصلاً جامعاً من أصول الفقه الحضاري في الإسلام، يقول النبي ﷺ: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ على بَقَرَة، الْتَفَتَتْ إليه، فقالت: لم أُخْلَقْ لِهَذَا؛ خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَة»**[1]، وفي رواية: **«بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً، قد حَمَلَ عليها، فَالْتَفَتَتْ إليه، فَكَلَّمَتْهُ، فقالت: إني لم أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرْث»**[2]، فهذا من أصول الفقه الحضاري في الإسلام؛ حيث يأمر بالانتفاع بمفردات الكون من حيث ما ركبت عليه من سنن يكون بها عطاؤها، قال العلامة ابن حجر: «استدل به على أن الدواب لا تستعمل إلا فيما جرت العادة باستعمالها فيه»[3]، إذ لو عوملت الأشياء من غير وجهها فإنها لا تعطي شيئاً، بل أحياناً تنتقم لنفسها فتعطي ضراً من حيث أريد منها النفع.

- وكذلك نهى الإسلام عن أي حركة تؤدي إلى إتلاف مقدرات الكون بغير حق، فيقول ﷺ: **«من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها، سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة، قيل: يا رسول الله، فما حقها؟ قال: حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فيرمى بها، وفي رواية: من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله عز وجل يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة»**[4]، وفي سنن أبي داود

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: المزارعة، باب: استعمال البقر للحراثة، ٨١٧/٢، حديث رقم: ٢١٩٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل حديث رقم: ٣٤٦٣.

(٣) فتح الباري، ٥١٨/٦.

(٤) سنن النسائي الكبرى، ٧٣/٣، حديث رقم: ٤٥٣٤، و٤٥٣٥.

عن النبي ﷺ: «من قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللهُ رَأْسَهُ في النَّارِ»، فـ«الشارع» كما يقول ابن القيم: «يَسُدُّ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَفَاسِدِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ»[1].

- الزهد أو «الإيثار الكوني» وليس المراد هنا الزهد بمفهومه السلبي، الـذي يُعنى به: الاستقالة من دور التعمير في الكون، والهروب من السعي الحضاري في الحياة، فهذا مناقض لمقاصد الإسلام في «الاستخلاف» و«الاستعمار الإيماني للأرض» بل المراد: «الزهد الإيجابي» القائم على«التقلل» و«الاعتدال» في التعامل مع مقدرات الكون، وموارده، تعامل القيِّم الراعي المحكوم بمقاصد الشرع، لا تعامل الشهواني المستهتر، المحكوم بمقتضيات الشهوة. فينتفع بعطاءات الكون وفق ما تقتضيه وظيفته الاستخلافية من جهة، وتتحمله مقدرات الكون من جهة ثانية، ووفق رؤية لا تكون فيها هذه الحياة الدنيا هي كل الحياة، لا من حيث الوجود، ولا من حيث الأثر المترتب على الدور الوظيفي، وإنما ستتلوها حياة أخرى بعدها أعلى منها شأناً من جهة ثالثة، مما يضمن الحفاظ على مقدرات الكون ومعطياته، وتواصل عطائها، وسيرورة نموها وإثمارها.

فمفهوم: «الزهد» أو «الإيثار الكوني» في المنظومة الإسلامية، مناقض تماماً لمفهوم التقدم المستمر واللانهائي، في منظومة الحضارة الغربية، القائمة على «الاستنزاف» المدمر لموارد الحياة، والنهب الأهوج المرهق لخيرات الأرض ومواردها، والتبذير المتلف لما لا يعوض منها، بدافع الأنانية والأثرة، وتضخم الذات، بل بدافع اللعب واتباع الهوى في إنتاج واستهلاك لا يقوم على مقاصد محددة، ولا يبالي إن كان فيه منفعة للإنسانية، أو لم تكن فيها، بل لا يراعي إن

(١) إعلام الموقعين، ١٥٩/٣.

كانت تتحمله مقدرات الكون أم لا، وفق رؤية تؤمن بأن هـذه الحياة هـي كل الحياة، ينتهي بانتهائها كل وجود للإنسان، وينتهي أيضاً كل أثـر لـدوره الوظيفي فيها، فلا يبقى إذن إلا أن تكون العلاقة بالكون وما فيه من عالم الأشياء هي علاقة استهلاك بالقدر الأكبر من الاستهلاك، وذلك لإشباع الشهوات في أقصى حد ممكن من الإشباع، كما نرى في النموذج الغربي التائه، المسيطر على الحياة، وهو نموذج انتهى إلى نوع جديد من «الإدمان» [1].

فـ«الزهد» أو «الإيثار الكوني» مفهوم حضاري إسلامي، ليست الحضارة العالمية بأصوليتها المادية بأقل احتياجاً إليه من الحضارة الإسلامية، بعد أن ارتفعت صيحات تنبئ بأن العالم قد استنفد طاقات الحياة بصورة قد لا تدع للمستقبل شيئاً؛ ومن ثم لا يحتاج العالم اليوم إلى شيء حاجته إلى أن يحيي هذا المفهوم، وأن يخرج الإنسان، في سعيه الحضاري، من طلب حظوظ السيادة على

---

(١) يقول آل جور: «إنني أعتقد أن حضارتنا الحديثة، في الواقع، أدمنت استهلاك الأرض ذاتها، وتلهينا هذه العلاقة القائمة على الإدمان، عن الشعور بالألم من جراء ما فقدناه.. إن السطحية والسعار اللذين يميزان الحضارة الصناعية، يحجبان إحساسنا المرير بالوحشة، إزاء صلة حميمة تربطنا بالعالم... إن حضارتنا تتشبث بطريقة أكثر إحكاماً، بعادتها في استهلاك كميات أكبر وأكبر كل عام، من الفحم، والنفط، والهواء النقي، والماء، والأشجار، والطبقة السطحية للتربة، وألف مادة أخرى نقتطعها من قشرة الأرض، لتحويلها جميعاً، ليس إلى ما يقيم أودنا، ويوفر لنا المأوى الذي نحتاجه، ولكن بدرجة أكبر إلى ما لا نحتاجه: كميات هائلة من التلوث، ومنتجات ننفق المليارات في الإعلان عنها لنقنع أنفسنا بأننا نريدها.. ويبدو أننا نزداد شغفاً بفقدان ذواتنا في الأشكال المختلفة للثقافة والمجتمع والتكنولوجيا ووسائل الإعلام وطقوس الإنتاج والاستهلاك، إلا أن الثمن الذي ندفعه هو ضياع حياتنا.. إن النشاز في علاقتنا بالأرض، والذي يرجع في جزء منه إلى إدماننا لنمط من الاستهلاك يقوم على استنفاد كميات أكبر وأكبر من موارد الأرض الطبيعية، أصبح يعلن عن نفسه الآن من خلال الأزمات المتتالية، وكل منها ينطوي على تصادم مدمر بين حضارتنا وعالم الطبيعة»، الأرض في الميزان، ص٢٢٣-٢٢٥.

الكون، إلى أداء حقوق العبودية لسيد الكون سبحانه، فيكون انتفاعه به، وفق منهج الله في أمره ونهيه، والمنظومة الإسلامية في ذلك يمكن أن تشكل نقطة انطلاق للوقوف ضد «السعار الاستهلاكي» و«التكالب على كل شيء» الذي ثبت أنه سيودي بالعالم!!

وقد تراوحت تعاليم الإسلام في ذلك، بين أمرين، يضبطان الكم والكيف، هما:

أولاً: الدعوة إلى الانتفاع[1] بمعطيات الكون وفق الحاجة، وعلى مقتضى التقلل والاعتدال، مما يحفظ توازنه، ويصون كفاءته في إعالة الحياة، قال تعالى، في صفات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧) و﴿قَوَامًا﴾ أي: معتدلاً في النفقة «فأدب الشرع فيها: ألاّ يفرط الإنسان حتى يضيع حقا آخر أو عيالاً ونحو هذا، وألاّ يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح. والحسن في ذلك هو القوام، أي: المعتدل. والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله وخفة ظهره وصبره وجلده على

---

(١) نستخدم مصطلح «الانتفاع» لبيان علاقة الإنسان بمقدرات الكون ومعطياته، وهو مفهوم قرآني، مشتق من «النفع» قال الإمام الراغب (المفردات، ٥٠٢): «النفع ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوصل به إلى الخير فهو خير» فهو مفهوم في بنائه يدل على: طلب ما فيه خير من الكون، والسعي في الانتفاع به، دون الإضرار به. بخلاف مصطلح «الاستهلاك» فهو مشتق من «هلك» و«استهلك الشيء» بمعنى: أنفقه وأنفده (لسان العرب، مادة: هلك) وهو بهذا مفهوم يخالف الطبيعة التي ينبغي أن يكون التعامل بها مع معطيات الكون، وهو الانتفاع بها وخيراتها، لا إهلاكها وإنفادها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فهو مصطلح خدّاع، كما يقول آل جور (الأرض في الميزان، ص١٥١) إذ يفترض أن المواد التي يتم استهلاكها على اختلاف أنواعها يختفي آثارها تماماً، ومن ثم لا يُعبأ بآثارها، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك، بل يترتب عليها ألوان كثيرة من الفضلات، التي لم يكن يُلتفت إليها، حتى أصبحت تشكل أزمة وجزءاً لا يتجزأ من أزمة الحضارة الصناعية بصفة عامة.

الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوسطها»[1]، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩)، ومن مداد ذلك قوله ﷺ: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً من بَطْنٍ، حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتْ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ»[2]؛ ومن ثم كان من دعائه ﷺ: «اللهم ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتاً»[3]، وكان يقول ﷺ: «قد أَفْلَحَ من أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافاً، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[4]، قال العلامة ابن حجر: «والكفاف: الكفاية بلا زيادة ولا نقصان، وقال القرطبي: هو ما يَكُف عن الحاجات، ويَدفع الضرورات، ولا يلُحق بأهل الترفهات. ومعنى الحديث: أن من اتصف بتلك الصفات حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال ﷺ: اللهم ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتاً، أي: اكفهم من القوت بما لا يرهقهم إلى ذل المسألة، ولا يكون فيه فضولٌ تبعث على الترفه، والتبسط في الدنيا»[5]، وقد بين النبي ﷺ أن «الأمن» و«العافية» و«الكفاية» هي جماع أمور الدنيا، فقال: «مَن أَصْبَحَ مِنكُمْ آمِناً في سِرْبِه، مُعَافىً في جَسَدِه، عِندَهُ قُوتُ يَوْمِه، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ له الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»[6].

---

(١) المحرر الوجيز، ٤/٢٢٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ٤/٥٩٠، حديث رقم: ٢٣٨٠، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وأخرجه ابن ماجه في سننه.

(٣) متفق عليه.

(٤) صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة،٢/٧٣٠، حديث رقم: ١٠٥٤.

(٥) فتح الباري، ١١/٢٧٥.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم:٣٠٠؛ وأخرجه الترمذي، واللفظ له، حديث رقم: ٢٣٤٦، وقال:«هذا حديث حسن غريب»؛ وابن ماجه في سننه، ٢/١٣٨٧، حديث رقم:٤١٤١.

ثانياً: النهي عن الإسراف والتبذير[1]، فالمسلم إذا كان مطالَباً، في إطار قوامته على الكون، واستنفاعه بمقدراته، بالقصد والاعتدال، فهو مطالَبٌ أيضاً، في إطار هذه القوامة، بعدم الإسراف والتبذير في التعامل مع عطاءاته، وذلك بألا يكثر مما لا خير فيه، وألا ينفقه في غير حقه، أو في غير ما تلبية لحاجة من حاجاته الحقيقية، بل يضيق منافذ الانتفاع بعطاءات الكون، وفق مقاصد الشرع، ناظراً إليها على أنها «نعمة لا يجوز إهدارها، مع تحديد حاجات الإنسان، والقضاء على المبالغة في الاستخدام والتلذذ بالأشياء، مما يضعف مفهوم «تعدد الحاجات» الذي روجت له وسائل الدعاية والإعلان، إلى حد جعل الإنسان في خدمة «الاستهلاك»، أي أن يكون «الاستهلاك» أصبح غاية أو نقطة جذب يسعى إليها الإنسان، رغم أنه قد لا يكون محتاجاً إليها»[2]، وذلك كله وفق قاعدة الإسلام الكبرى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١)، وقد بين الإمام الطاهر بن عاشور الحكمة من نهي الإسلام عن «السرف» و«التبذير» بأن القصد والاعتدال ضامن للمرء في غالب الأحوال، بالنسبة إلى من هم أصحاب كفاف «أما أهل الوفرة والثروة؛ فلأن ذلك الوفر آت من أبواب اتسعت لأحد فضاقت على آخر لا محالة؛ لأن الأموال محدودة، فذلك الوفر يجب أن يكون محفوظاً لإقامة أَوَد المعوزين، وأهل الحاجة، الذين يزداد عددهم بمقدار وفرة

---

(١) الإسراف والتبذير لفظان مترادفان عند جمهور أهل اللغة، بمعنى: مجاوزة الحد في الاعتدال، (تاج العروس، ٤٢٨/٢٢). وقد حاول الماوردي التفرقة بينهما، فقال: «اعْلَمْ أَنَّ السَّرَفَ وَالتَّبْذِيرَ قَدْ يَفْتَرِقُ مَعْنَاهُمَا، فَالسَّرَفُ: هُوَ الْجَهْلُ بِمَقَادِيرِ الْحُقُوقِ، وَالتَّبْذِيرُ: هُوَ الْجَهْلُ بِمَوَاقِعِ الْحُقُوقِ،وَكِلَاهُمَا مَذْمُومٌ، وَذَمُّ التَّبْذِيرِ أَعْظَمُ؛ لِأَنَّ الْمُسْرِفَ يُخْطِئُ فِي الزِّيَادَةِ، وَالْمُبَذِّرُ يُخْطِئُ فِي الْجَهْلِ، وَمَنْ جَهِلَ مَوَاقِعَ الْحُقُوقِ وَمَقَادِيرَهَا بِمَالِهِ وَأَخْطَأَهَا، فَهُوَ كَمَنْ جَهِلَهَا بِفِعَالِهِ فَتَعَدَّاهَا، وَكَمَا أَنَّهُ بِتَبْذِيرِهِ قَدْ يَضَعُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَهَكَذَا قَدْ يَعْدِلُ بِهِ عَنْ مَوْضِعِهِ»، أدب الدنيا والدين، ص١٨٧.

(٢) منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ط١ (بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٨٢م) ص٦٦.

الأمـــوال التي بأيدي أهل الوفرة والجدة، فهو مرصود لإقامـــة مـــصالح العائلـــة والقبيلة وبالتالي لصالح الأمة»[1].

ومن ثم كان تهذيب النفس، وترويضها على التقلل والاعتدال، وعدم التبذير والسرف، في المآكل والمشرب والملبس والبنيان وسائر مظاهر الحياة، أصـــلاً مـــن أصول الفقه الحضاري في الإسلام، وشرطاً من شروط تحريـــك الحيـــاة في كـــل مظاهرها، ولعل من أبرز الدلالات على نـــهي الإسلام عن «الإسراف» ما رواه ابن ماجه من حديث أنس بن مـــالك، رضي الله عنه، قال: «قال رسول اللّه ﷺ: «إِنَّ من السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ ما اشْتَهَيْتَ»[2]، وكذلك ما رواه أيضاً من طريـــق عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ مَرَّ بسَعْد، وهو يَتَوَضَّـــأُ، فقال: ما هذا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟! فقال: أَفي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ ؟ قَال: نعـــم، وَإِنْ كُنْتَ على نَهَرٍ جَارٍ»[3]، وقوله ﷺ: «وَإِنْ كُنْتَ على نَهَرٍ جَارٍ» يدل علـــى أن نهي الإسلام عن «الإسراف» في التعامل مع موارد الحياة، إجراء إســـلامي ممتد في حياة المسلم، ولا يتعلق بـــ«الوفرة في هذه الموارد أو بالقلة، ولا بالصفـــة المـــالية أو عدمها، وإنمـــا كان إجراء عامًا في كل الأحوال والأوضاع، سواء كانت الموارد وفيرة أو ضئيلة، أو كانت مالاً أو ليست بمال، ومقياسه الوحيد هو حد الكفاية في قيام الإنسان بوظيفته التعمـــيرية في يسر، وذلك هـــو الحد الذي ينخرط بـــه في دورة البيئة انخراطاً لا يسبب لها إرهاقاً، وهو حد «الاقتصاد» وما تجـــاوزه مـــن استهلاك فهو «الإسراف» الذي جاء التغليظ في النهي عنه، والابتعاد منه»[4].

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٩/١٥.

(٢) سنن ابن ماجه، ١١١٢/٢، حديث رقم: ٣٣٥٢.

(٣) المرجع السابق، ١٤٧/١، حديث رقم: ١٤٧.

(٤) عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص٢٢٥.

وهكذا فإن «القوامة» بمفهومها الإسلامي، القائم على «الرفق والرحمة» و«المحافظة والحماية» و«الزهد والإيثار الكوني» تعطي بُعداً جديداً في تعامل الإنسان مع معطيات الكون ومفرداته؛ مما يحفظ توازنها في الحال، ويبقي عطاءها للأجيال القادمة، فتبقى شريكاً معطاء.

وليست الحضارة العالمية بأصوليتها المادية الآن بحاجة إلى شيء مثل حاجتها إلى ترسيخ تلك القيمة فيها، بدلاً من «منطق القوة» السائد في تعاملها مع معطيات الكون (من خلال عملية غزو إمبريالية للكون تتم لحساب الإنسان الغربي وحده، وإن كان يتأثر بنتائجها كل سكان الأرض!!) ذلك المنطق الذي يسحق «الآن الغابات، والمحيطات، والغلاف الجوي، والمياه العذبة المتجددة، والريح والمطر، والتنوع الثري للحياة ذاتها»[1]؛ فالبشرية تحتاج اليوم إلى أن تتعلم كيف تقيم علاقة «قوامة» مع الكون، تحفظ له حرمته؛ حتى لا تعرض نفسها والكون من حولها للهلاك، بسفهها وتجاوزاتها الأخلاقية، واندفاعها النهم والشره وراء الاستهلاك، مما يهدد الحياة والبيئة والأرض جميعاً، وذلك ما أشار إليه آل جور – في معرض تحليله النقدي لما أفضت إليه الحضارة الغربية من أزمة بيئية، بفلسفتها المنفصلة عن كوكب الأرض– قال: «إن مستقبل الحضارة الإنسانية يتوقف على قوامتنا على البيئة، وبنفس الدرجة من الأهمية على قوامتنا على الحرية، وإن القوى الطاغية التي تعارض هذه القوامة واحدة في الحالتين: ألا وهي الجشع، والاهتمام بالمصالح الشخصية، والتركيز على الاستغلال في المدى القصير على حساب سلامة النظام البيئي نفسه في المدى البعيد»[2].

---

(١) الأرض في الميزان، ص٢٨١.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٣.

٣- المسؤولية والمحاسبة، وهذا هو البعد الثالث الذي يقوم عليه مفهوم «الائتمان الكوني»، بل يُعد من القيم المحورية التي يدور عليها منهج الإسلام في «تحريك الحياة»؛ إذ الإنسان، وفق المنظور الإسلامي كما تقدم، ليس بالسائب، بل مسؤول مسؤولية كاملة، عن مصيره، ومصير الكون المؤتمن عليه، فهو يحمل مسؤولية استخدام مقدراته وعطاءاتها، وهذا الإحساس بالمسؤولية من شأنه أن يجعل الجميع يحافظون على الكون، بالقصد في الانتفاع، وبالصيانة من الخراب على حد سواء، وهذا هو المعنى المستبطن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٦-٨)، كما أنه المعنى المستبطن في كل الآثار الشرعية التي أوردناها في نهي الإسلام عن أي حركة تؤدي إلى إتلاف مقدرات الكون بغير حق، مثل قوله ﷺ: «**من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها، سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة**، قيل: يا رسول الله، فما حقها؟ قال: **حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فيرمي بها**، وفي رواية: **من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله عز وجل يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة**»[1]، وقوله ﷺ: «**عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حتى مَاتَتْ جُوعاً، فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ...**»[2].

ثم إن هذه «المسؤولية» تقتضي المحاسبة والمجازاة، عن كيفية استخدام مفردات الكون وعطاءاتها، واستغلالها، وإعمار الكون بها، وفق منهج الله في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أمره ونهيه، في وجوب «الانتفاع بنفع النافع، وإزالة ما في بعض النافع من الضر، وتجنب ضر الضار، بالتهذيب أو بالإزالة.. فإذا غير ذلك النظام، فأُفسد الصالحُ، واستُعمل الضار على ضره، أو استبقي مع إمكان إزالته، كان إفساداً بعد إصلاح»[1]، يتحمل الإنسان مسؤوليته، ويحاسب عليه، يقول رسول الله ﷺ: **«لاَ حَقَّ لابنِ آدمَ إلا في ثَلاث: طَعامٌ يُقيمُ صُلبَهُ، وَثوبٌ يُواري عَوْرَتَهُ، وَبيتٌ يُكنُّه، فَمَا زَادَ فَهُو حِسابٌ»**[2]، أي: أن الإنسان إذا أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه، إن لم يعص الله متعرض للحساب، وإن عصى الله فهو متعرض للعقاب[3]، ليس في الآخرة فحسب، بل يناله شقاء ما كسبت يداه في الدنيا، قبل أن يجازى على فساده في الآخرة.

ومن الأمور المقررة أن هذه «المسؤولية» وما يترتب عليها من «محاسبة» تتعلق بالفرد وبالجماعة على حد سواء، فالحفاظ على الكون ومفرداته، والترفق بمعطياته، لا يُسأل ويُحاسب عليه الفرد وحده، بل إنه يمتد إلى دائرة الجماعة والأمم، فهناك كتاب يحصي على الأمة عملها: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية:٢٨-٢٩)، كما كان هناك كتاب يحصي على الفرد عمله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٣/٨-١٧٤.

(٢) قال الإمام العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: «أخرجه الترمذي من حديث عثمان ابن عفان، وقال: «وجلف الخبز والماء» بدل قوله: «طعام يقيم صلبه»، وقال: «صحيح» إحياء علوم الدين، ٤/ ٢٠٩. ورواية الترمذي: «ليس لابن آدمَ حَقٌ في سوى هذه الخِصَالِ: بَيْتٌ يَسكنُهُ، وثَوبٌ يُوَاري عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ» سنن الترمذي، ٥٧١/٤، حديث رقم:٢٣٤١، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) إحياء علوم الدين، ٢٠٩/٤.

يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء:١٣-١٤)، فهذا كتاب لكل فرد، وذاك كتاب لكل أمة، وبين الكتابين فرق كبير، وهذا المفهوم يعطي قيمة أكثر فاعلية في الممارسة والصيانة والحماية لمفردات الكون ومعطياتها، فيكون الفرد مسؤولاً في الحفاظ عليها أمام الأمة بل والإنسانية جميعاً، كما أن الأمة مسؤولة عنها أمام الفرد بل والإنسانية جميعاً!!

إن مفهوم «المسؤولية» و«المحاسبة» عن الكون المؤتمن عليه الإنسان، التي ربى عليها الوحيُ المسلمَ، من القيم التي لابد من شيوعها بين العالم، في مقابل انعدام المسؤولية غير المسبوقة التي يشهدها العالم الآن في التعامل مع معطيات الكون وعطاءاتها، غروراً واستكباراً[1]؛ إذ تمكن هذه القيمة الإنسان من مزيد المراقبة لأفعاله، وتعقب آثارها، والنظر في مآلاتها، فينهض إلى نقد نفسه، وتحمل مسؤولياته إزاء الأحياء والأشياء على الوجه الذي ينبغي، مؤدياً حقوقها بما يحفظ كيانها، ويضمن استمرار عطائها، وديمومتها وتمتع الأجيال من بعده بها، فيأتي بكل فعل من أفعاله وهو يعي، على أكمل وجه، أن آثار فعله ومسؤوليته فيه، لا تقف عند جيله وذريته، بل تتعداهما، لا إلى الأجيال والذريات من بعده، وإنما إلى مستقبل يمتد إلى الأبد؛ ومن ثم يعلم أنه بتقصيره في أداء حقوق الكون، حماية وحفظاً، إنما يقصر في أداء حقوق نفسه هو أولاً، ثم في حقوق غيره ثانياً؛ إذ إن

(١) يقول آل جور، في الأرض والميزان، ص١٧٤: «إننا نلاحظ انعداماً للمسؤولية، يدعو للدهشة في مواجهة الأزمات الخطيرة غير المسبوقة.. وبدلاً من تحمل المسؤولية عن اختياراتنا، فإننا ببساطة نحيل تلالاً ضخمة من الديون، وأسباب التلوث إلى الأجيال القادمة»، ثم أردف قائلاً: «إن أملنا كحضارة، قد يكمن في قدرتنا على أن نتكيف مع إحساس صحي إزاء أنفسنا، بوصفنا نشكل حضارة عالمية بحق، حضارة تتسم بإحساس ناضج بالمسؤولية نحو صنع علاقة جديدة، ومثمرة، بيننا وبين كوكب الأرض»، ص٢١٦.

تبعات أفعاله الحالية غير محدودة الآثار في القادم من أجيال الإنسان، وفي المكنون من عالم الأشياء[1]!!

وهكذا، فإن الإسلام بهذه الأصول الثلاثة التي تضبط علاقة الإنسان بالكون: «وحدة الإنسان مع الكون»، و«التسخير»، و«الائتمان الكوني» وما تولد عنها من جملة القيم، يؤسس لفقه «الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا»، كما يرتقي بالمسلم في منهجية تحريكه للحياة، وتعامله مع الكون وعالم الأشياء من حولنا، استنفاعاً واستثماراً، إذ هي أصول كلها تقضي بإيجاد عالم تكون فيه العلاقات بين الأحياء والأشياء علاقات بين أقرباء، أقرباء فيما بينهم، وأقرباء من الرحمن الذي يتجلى عليهم، لا بقهره، وإنما برحمته، فيصير تعامله معها تعامل قوامة وتراحم، لا تعامل عداء ومغالبة، فيؤدي حقوقها أداء القريب لحقوق قريبه[2]؛ رفقاً بها، وتلطفاً في كيفية استثمارها، وحفاظاً عليها وصيانة مقدراتها، وذلك بحفظها من الفساد أولاً، وبالاقتصاد في الانتفاع بخيراتها ثانياً، وبتنميتها ثالثاً، وفقاً للمبدأ الإسلامي: «أن المخلوقات كلها، على تفاوتها، بعضها قريب لبعض»، و«أن لكل خَلق حقاً أو حقوقاً تخصه» فيأتي فعل الإنسان الحضاري معها متصفاً بـ«مشروعية المنطلقات» و«سلامة المآلات».

---

(١) أشار الصندوق العالمي لحماية البيئة في تقريره لعام ٢٠٠٦م، الذي حمل عنوان: «الكوكب الحي» إلى أن مستوى استهلاك البشرية للموارد الطبيعية يفوق بنسبة ٣٠% ما تستطيع الطبيعة تجديده، وإذا ما استمر الوضع على هذه الوتيرة، فإن سكان المعمورة في عام ٢٠٥٠م الذين سيصل عددهم قرابة ٩ مليارات نسمة، سيحتاجون لضعف الإنتاج الذي يمكن للكوكب الأرضي أن يوفره!! وهو ما يهدد قدرة الأرض على العطاء، كما يهدد مستقبل الأجيال القادمة، وقدرتها على الحياة والبقاء.

(٢) ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص٢٥٣.

رابعاً: البعد السُّنَني (الاستعمار الإيماني للأرض بين القيم الحاكمة، والسنن القاضية):

«السُّنَّة» مفهوم يدور في معانيه المعجمية حول: «الأمر المطرد»، و«الطريقة الدائمة»، و«القانون الثابت»[1]، والمراد بـ«البعد السُّنَني»: هو ذلك البعد الذي يراعي «عادات» الله المألوفة، و«قوانينه» الثابتة التي تتحكم في حركة الحياة والأحياء، والاعتبار بها، والتجانس معها؛ إذ إن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر، ويُتوقع حدوثه في المستقبل، إذا تشابهت الأحوال[2]؛ فـ«الأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول. والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس؛ كيلا ينظروا إلى الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة، محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان، ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود، فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس، ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم؛

---

(١) يقول ابن فارس (معجم مقاييس اللغة، ٣/٦٠): «السين والنون: أصل واحد مطرد، وهو: جريان الشيء واطراده في سهولة».

(٢) ولا شك في أن المراد هنا: «السنن التاريخية» أو«الاجتماعية» التي تقف وراء الأحداث والظواهر العمرانية، والمرتبطة بحركة البشر والأمم في الحياة، صعوداً وهبوطاً، بقاءً وزوالاً، مثل: «سنة النصر»، و«سنة الدفع»، وغالباً ما يختص هذا المفهوم في الفكر الإسلامي بـ«السنن الإلهية». بخلاف: «السنن الكونية» التي لا يملك الإنسان أن يغير ظروفها، أو يعدل من شروطها، أو يمنع من وقوعها، فهي تجري عليه شاء أم أبى، مثل: «الموت» و«الحياة»... ومثل: «مسخرات الكون» التي يستفيد منها الناس، كل وفق جهده وسعيه في اكتشافها، والاستفادة من تسخيرها.

ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس»[1]، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء:٢٦).

إن «السنن» وفق هذا المفهوم تمثل «تحليلاً إيمانيّاً» لحركة الحياة، و«قيماً» مطردة تتحكم في مسارات الأفعال فيها، كما أنها من أهم أبواب الفقه الحضاري لفهم الأفعال الحضارية، على تنوع تلك الأفعال وتداخلها وتفاعلها، فهي تقدم أصولاً لحركة الاستخلاف، ومسارات العمران البشري؛ ومن ثم تمكننا من:

- التعرف على ذاكرة الأمة وتواتر أحداثها، والقدرة التفسيرية لواقعها، وفقه العواقب والمآلات، وامتلاك الرؤية على تصويب الخلل وتجنب الإصابات؛ إذ من خلال قراءة هذه السنن والتبصر فيها، يجمع المسلم عقولاً في عقله، وتجارب في تجربته، ويضيف أعماراً إلى عمره، مبصراً العلل التي لحقت بالأمم السابقة، متقياً الإصابات المحتملة؛ وفقاً للقاعدة الحضارية: إن للعمران طبائع معروفة لو كشفناها لأمكننا تقدير المآلات، يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧-١٣٨).

- قراءة مستقبل الأمة في ضوء المدخل السنني؛ إذ الاعتبار يرشد إلى الصوابية في بناء الحاضر، ويمنح القدرة على عبور الماضي والحاضر إلى «استشراف المستقبل»، ثم التمكن من تشكيل المستقبل والمداخلة في بنائه، في إطارٍ تتواصل فيه حلقات الزمان، وتتفاعل ضمن مناهج التفكير والاعتبار.

---

(١) في ظلال القرآن، ٧٠٨/٦.

والمتأمل في حديث القرآن الكريم عن هذه «السنن» يستخلص مجموعة من الحقائق، لها أهميتها القصوى في البناء الحضاري، والاستعمار الإيماني للأرض[1]:

الحقيقة الأولى: أنها سنن مطردة، لا عشوائية، ولا تتخلف، بل تتسم بالنظام والانتظام، فكل حركة حضارية، مهما بدت جزئية أو صغيرة، محكومة بسنن فاعلة وقاضية، لا يقع فيها النسخ إبدالاً أو تحويلاً، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء:٧٧)، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب:٦٢).

وهذا الاطراد والثبات في سنن الله المتحكمة في حركة الحياة والأحياء، يُحدث لدى المسلم شعوراً واعياً، ومتبصراً لا عشوائيّاً ولا ساذجاً بضرورة قراءة هذه السنن، والتبصر بمسالكها التي تسير بموجبها الأمم، صعوداً وهبوطاً، تقدماً وتخلفاً، وجوداً وذهاباً؛ للوقوف على مسار أمته ومصيرها فيما مضى، والتفاعل الإيجابي فيما يُستقبَل من تاريخها، متحركاً في مساحات «السببية» بعيداً عن أوهام العبثية، أو المصادفة، أو الفوضوية ومساحات الخرافة والأسطورية، وبعيداً عن حديث «النهايات» الذي لا ينقطع، وحديث «المابعديات» الذي لا يتوقف، تأصيلاً لمفهوم «الأمر الواقع» (مثل مقولة فرانسيس فوكوياما: «نهاية التاريخ» أو «ما بعد التاريخ» والتي يعني بها أن التاريخ قد توقف عند النموذج الحضاري الغربي، واعتباره خياراً وحيداً لمستقبل الإنسانية، إن رغباً وإن رهباً) إذ في «البعد السُّنني» تسقط «الحتميات

(١) ينظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص٤١-٤٧.

الجبرية» التي حاول فلاسفتها أن يخضعوا البشر لها كما أخضعت المادة، وتبقى حركة الإنسان وفاعليته رهينة بحتمية السنن الإلهية وعملها.

الحقيقة الثانية: أن تلك السنن «ربانيَّة» مرتبطة بالله سبحانه وتعالى، فكل قانون من قوانين الحياة هو كلمة من الله، وقرار رباني ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء:٧٨)، وهذا من جهة، يشعر المسلم بأن استعانته بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، والاستفادة من مختلف مفردات الكون وعطاءاتها، ليس انعزالاً عن الله؛ إذ قدرة الله تتجلى من خلال هذه السنن التي تمثل حكمته وتدبيره في هذا الكون، فيبقى الإنسان دائماً وأبداً مشدوداً إلى الله، في حركة فاعلة وراشدة، ومن جهة أخرى فإن اتصاف هذه السنن بكونها «ربانية» يمنع الإنسان من «وقاحة الاستعلاء» التي هي تحد للإنسانية؛ إذ يعلم أنه لولا تسخير الله للكون له، وسيره وفق قوانين ثابتة أودعها الله فيه، لما استطاع أن يتمتع بإمكاناته في العطاء والإبداع، كما يمنع عن الإنسان «وقاحة الإحاطة» التي هي تحد للألوهية؛ إذ يعلم الإنسان أنها قوانين الله المتحكمة في حركة الحياة والأحياء، فلا يتوقح على الله بمنازعته سعة علمه، وليس للإنسان من سبيل إلى الانفكاك عن هذه «الوقاحة» المهلكة إلا إذا نظر إلى هذه السنن باعتبارها «آيات ربانية» محكومة بإرادة الله، تحتها قيم توجب الإيمان بالذي يسع علمه كل شيء، ويمكر بكل من نازعه علمه.

الحقيقة الثالثة: أن هذه السنن لا تجري من فوق الإنسان، بل من تحت يده، باختياره وإرادته؛ إذ عطاء السنن محكوم بالعدل الإلهي الذي يجعل سنن

الفعل والتغيير مرهونة بشروطها، وجوداً وعدماً، بعيداً عن توهمات بعضهم من أن هناك تناقضاً بين حرية الإنسان واختياره، وبين سنن الله في كونه وأقداره النافذة، فإما أن نقول: إن للحياة سننها وقوانينها، وإما أن نسلم بأن الإنسان حر مريد مختار، وهذا الوهم قد عالجه القرآن الكريم، مبيِّناً أن هذه القوانين والسنن ربانية، مقررة وحياً من الله، ومبثوثة في آيات كتابه، ولكن محورها هو إرادة الإنسان، فاختيار الإنسان له موضعه الأصيل فيها، والآية العمدة في ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (آل عمران:١٦٥)، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (الأنفال:٥٣)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد:١١)، ومعنى ذلك: أن السنن مع كونها «ربانية» فإنها تدور مع فعل الإنسان الحضاري، إن سلباً وإن إيجاباً، إن قوة وتمكيناً وإن وهناً وهواناً، فهي سنن «قاضية» بحكم ربانيتها، ولكنها «اختيارية» بحكم ارتباطها بفعل الإنسان وإرادته؛ ومن ثم فهي تأخذ عادة، في القرآن الكريم، صورة قضية شرطية، تربط بين حادثتين، أو مجموعة من الحوادث، باعتبارها «سنناً شرطية» يتحرك الفعل فيها بشرطه كذلك الجواب، بحيث متى تحقق الشرط تحقق الجزاء والعكس، مما يعبر عن إرادة الإنسان واختياره الفاعل؛ إذ هو منوط به تحقيق فعل الشرط، حتى يتحقق الجواب،

كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦)، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران:١٨٢، والأنفال:٥١).

إن ثمرة هذا «البعد السُّنني» تظهر في أمرين، يمثلان قيماً بالغة الأثـر في «الاستعمار الإيماني للأرض»:

أولهما: قيمة التذكر والتدبر و«الاعتبار بأيام الله»[1] (فقه الواقع الكوني)؛ فهذا الأمر الإلهي المتكرر بالسير في الأرض، وتعقل سنن الأولين وتتبع عاقبتهم (عاقبة المكذبين، وعاقبة المتقين)، ومعرفة سنن الله في الآفاق وفي الأنفس، وفهم أسرار الحياة ومنطقيتها، وحركتها ومحركاتها، والتعرف على «حُزمة» السنن المتحكمة في تقلبات الأمم الحضارية بين حال «العز» و«التمكين» وحال «الغثائية» و«الهوان» ليؤكد أن حركة الحياة خاضعة لسنن قاضية، تؤطر سعي الإنسان فيها، وأن هذه السنن ليست مجرد أحداث محكومة بقوانين، بل هي أيضاً آيات مقرونة بقيم، يجب تذكرها والاعتبار بها في «تحريك الحياة»، فذلك قوله تعالى آمراً بالاعتبار: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف:١١١)، فلا يمكن أن تتحقق عناصر «الاستخلاف»، و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض»، ضمن منظومة القيم الحضارية في الإسلام، إلا من خلال الوعي بهذه السنن، والعمل

---

(١) وفق قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم:٥).

بها ولها، بالإضافة إلى الوعي بجوهرها وأصولها، تـذكراً وتـدبراً، باعتبارهـا مقدمات لعناصر السعي الحي في «تحريك الحياة»، ونتائجَ لمكونـات «الحيـاة الطيبة»، وباعتبارها «أساس الاستبصار» في إقامة نظام العمـران، وصـلاح أحوال المعاش، ومحك أفعال البشر في بيان صوابها أو خطئها، بما يؤصل عناصر فاعلية حقيقية، وليس عبارة عن أماني؛ ومن ثم لا نبعد إذا قلنـا: إن غيـاب «الشهود الحضاري» للأمة المسلمة، أو«الانحسار الحضاري» الذي تعاني منـه الأمة الآن، إنما كان أحدَ أهم أسبابه: تعطيلُها النظر في السنن والاعتبار بسياقاتها وتأثيراتها وتفاعلاتها، وعدُولها عن فهم واستخلاص «التـدبيرات الإلهيـة» في تشكيل الحياة، أو قراءتُها هذه السنن في سياق «الغفلة» أو «الإلف» أو «تزييف الفهم لها» تشويهاً وتفريغاً، أو مخادعة وتمويهاً.

ذلك أن السنن هي «كليات مرجعية» تحكم الحركة الحـضارية عامـة للناس كافة، فهي فاعلة على المسلم والكافر، لا تحابي أحداً في محك التعامـل معهـا، بعيداً عن أي وهـم أو ادعاء كاذب يحاول تفسـير قيام الحضارات أو انهيارها، أو يحاول ربط سنن التغيير أو التقدم أو العمارة أو البنـاء بـدور «العرق» أو «اللون»[1]، وبذلك يمتلك المسلم «المعيار» الذي «يُقَوِّمُ» به حركتـه الحضارية، تفسيراً وتقويماً، فيحاكم فعله الحضاري إلى «السنن الإلهية» وعياً بهـا، وسعياً إلى الاستثمار الإيجابي لها، والعبور من خلالها نحو عناصر الفاعلية والتمكين، فإذا كان تشابهٌ بين أمةِ اليومَ، ووضع أمم سابقة عليهم، فعلينا أن نعلـم أن «سـنة الأولين» قد انطبقت أو لابد أن تنطبق يوماً عليهم، ففي حديث زياد بـن لبيـد،

(١) سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم، ص١٩٢.

قـال: «ذَكَرَ النـبي ﷺ شَيْئاً، فـقال: **وَذَاكَ عِنْدَ أوان ذَهَابِ الْعِلْمِ**، قال: قُلْنَا: يا رَسُولَ اللّه، وكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نقرأُ الْقُرآنَ، ونُقرِئُهُ أبْنَاءنَا، ويقرئه أبْنَاؤُنَا أبْنَاءهُمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَة؟! قال: **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا ابن أُمِّ لَبِيد، إنْ كنتُ لأَرَاكَ مـن أفقه رَجُلٍ بِالْمَـدِينَة؛ أو ليس هَذه الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يقرؤون التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لاَ يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فيهما بشيء؟!**»[1].

فقوله ﷺ: «**أو ليس هَذه الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يقرؤون التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لاَ يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فيهما بشيء؟!**» مفسراً بها واقعاً في المستقبل، يدل على أنه ﷺ كان يرى المستقبل من خلال السنن التي تعم الجميع، فالذي انطبق على أهـل الكتاب السابقين، سينطبق على أمة القرآن، إذا ما تشابهت الأفعال[2]، مما يجعل «السنن» أهم عمليات «أصول الفقه الحضاري» في المنظور الإسلامي، بما تمثله من «معيار» علمي سديد منضبط يتفهم عناصر الظاهرة الإنسانية في تـشابهاتها وخصوصياتها، كما يجعلها «ناظماً معرفيّاً» للجمع بين قراءة «الوحي» وقراءة «الكون»؛ إذ مدخل «السنن» في «الاستعمار الإيماني للأرض» يجعـل قـراءة «الوحي» موصولة بالكون وواقعه، فهماً وتنـزيلاً، إذ إنها تـستوعب جملـة الأفعال الحضارية في امتدادها وتراكمها، كما يجعل قراءة «الكون» موصـولة بالوحي وضوابطه، رصداً وتقويماً، وسيرورة ومآلاً، وهذا الجمع هو الذي يفهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٤/١٦٠، حديث رقم: ١٧٥٠٨، وروى نحوه الإمام الحاكم في المستدرك، ٣/٦٨١، حديث رقم: ٦٥٠٠، وقال: «هذا حديث صـحيح علـى شـرط الشيخين، ولم يخرجاه»

(٢) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، بحث في سنن تغيير النفس والمجتمع (دمـشق، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص١٢٠.

من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤).

ومن خلال هذه القراءة الجامعة بين «الوحي» وضوابطه، و«الكون» وواقعه، نقف على جملة من «السنن الإلهية» التي تكوِّن «منظومة» تستحكم في الفعل الحضاري، كما تحكم عناصر الصلة بين الداخل والخارج، و(الذات) و(الغير)، نحاول أن نشير إلى أهمها على النحو التالي[1]:

- **سنن التغيير والتبديل**، التي تشير إلى أن الإنسان حقيقة قابلة للتغيير في كل آن وحين، وأن هذا التغيير لا يمكن أن يتم إلا بالتعرف على «منظومة الأبجديات» الداخلية للأفراد والأمم التي تروم هذا التغيير، والتعرف على الشروط الظاهرة والكامنة التي تسهم في تشكيل الأحداث وصناعتها، والوقوف على آثارها ومآلاتها (قراءة السنن قراءة واعية)، والآية العمدة في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

وهذا التغيير وإن كان مسؤولية الإنسان الفرد، الذي يشكل نقطة البدء فإنه، باعتباره سنة اجتماعية، لا يؤتي ثماره إلا إذا كان على محيط المجتمع بكل

---

(١) ينظر في تصنيف هذه السنن وتعدادها: عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية؛ إبراهيم بن علي الوزير، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر؛ الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، قراءة في سنن التغيير الاجتماعي، الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية؛ محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها؛ راشد سعيد شهوان، السنن الربانية في التصور الإسلامي.

عناصره، والوضع الاجتماعي بكل تداخلاته وما يلابسه من «آليات» في تحريك الحياة، فالآية تربط التغيير، بتغيير ما «بقوم» وليس بفرد واحد[1]، إن التغيير، إذن، فعل اجتماعي، وإنجاز أمة؛ لتقوم به من عطلتها، وإلا سقطت جميعها، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الأنفال:٢٥)، وهذا ما بينه النبي ﷺ حينما سألته أم المؤمنين، زينب بنت جحش، رضي الله عنها، «رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قال: نعم، إذا كَثُرَ الْخَبَثُ»[2].

إن التغيير «إرادة» حقيقية، و«عُدة» للخروج من حال «الكَلّ» حيث «العطالة الحضارية» إلى حال «العَدْل» حيث «الاستقامة الحضارية»[3]، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾ (التوبة:٤٦)، ومن هذا المداد تأتي الإشارة النبوية الدقيقة، حينما سئل النبي ﷺ: «مَتَى السَّاعَةُ؟ فقال: وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لها؟»[4]، فالإعداد والعدة هي التي تصوغ المستقبل، لا فعل الأماني!! فإذا غابت «الإرادة» امتنع «الخروج»، وضاعت «العُدة» أو ضُيِّعت، وإذا تعاظمت «الإرادة» كان ذلك مفتاح «الخروج»، واستُثمرت «العدة» أو عُظِّمت، بعيداً عن أي وهم أو ظن قد يرسخ في الأذهان، فتعتقد أن «العطالة الحضارية» التي تعيشها الأمة، ليس لها من دون الله كاشفة، وأن سعي العاملين في

---

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص٣٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن، ٢٢٠٧/٤، حديث رقم: ٢٨٨٠.

(٣) راجع: جودت سعيد، الإنسان كلاً وعدلاً (دمشق: دار الفكر المعاصر).

(٤) صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر بن الخطاب، ١٣٤٩/٣، حديث رقم: ٣٤٨٥.

ضلال، وأن تغيير «الأمر الواقع» محال، مما يقطع عن الناس أسباب النهوض والتغيير، فهذا الوهم خروج عن مقتضيات «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض» وإغفال لهذه السنة الدقيقة المحكمة، التي تقضي أن الله لا يغير ما بقوم، حتى يقوموا هم أولاً بتغيير ما بأنفسهم، وأن القدرة على التغيير لا يمكن أن تَرِد على القوم من خارجهم، بل لابد أن تنبعث من داخلهم، من عزماتهم وإراداتهم واختيارهم، «فالإنسان لا يمكن أن يغير شيئاً في الخارج إن لم يغير شيئاً في نفسه، وحينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها «علماً»، ولا نقولها فقط تبركاً بآية، نقولها «علماً» ونعلم مقدارها من الصحة العلمية والمعيارية الدقيقة، إذاً لا يستطيع مسلم أو غير مسلم أن يغير ما حوله، إن لم يغير أولاً ما بنفسه، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها كقانون إنساني وضعه الله عز وجل في القرآن، كسنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر»[1].

- **سنن العطاء الإلهي**، فهو مبذول لكل البشر، للإنسان من حيث هو إنسان، وهذا قانون الله العادل في الخلق، لا يحابي أحداً، فبمقدار فعل الإنسان ووعيه وتفاعله وتفعيله لسنن الله الكونية، واستثمار مكوناتها في العمران، وبمقدار ما يكشف منها ويلتزم بها، بمقدار ما تعطيه هذه السنن من نتائج تتناسب وفعله الحضاري، من غير نظر إلى لونه، أو عرقه، أو حتى كفره بالذي سخر له الكون، وهذا من سنن العمران التي لا تتخلف ولا تتبدل، قال تعالى:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

(١) مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٦هـ) ص٥٢.

(الإسراء:٢٠)، وإن كان القرآن يقرر طرفاً آخر لسنة الله الجارية في العطاء، وهو: أن «العطاء الحضاري» إذا كان مقروناً بالإيمان بالله تعالى كان «بركة» و«امتداداً» في الزمان والمكان، ضمن مدارج الترقي والبناء والعمارة الحضارية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦)، ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن:١٦)، أما إذا غاب عن العطاء الإيمان بالله كان في النهاية «زخرفاً» و«زينة» ولابد من أن ينقلب إلى ضد مقاصده، إن عاجلاً أو آجلاً، هنا أو هناك.

- **سنن الابتلاء** (وما يتعالق معها من مفاهيم إسلامية من نحو: «الفتنة» التي تختبر إيمان الناس وصدقهم/ و«المصيبة» التي تذكر الناس بما كسبت أيديهم ومسؤوليتهم عن اختياراتهم الحضارية، و«الإنذار» الذي ينبه الناس إلى عقاب قريب، أو حساب مهين/ و«الصبر» الإيجابي الفعال الذي يدفع الإنسان إلى تجاوز المحن)[1]، وهي حال ملازمة للحركة الحضارية للإنسان ما كانت الحياة واستمرت، اختباراً وتذكيراً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام:١٦٥)، فالحياة ليست، كما يُظن، متاعاً دائماً، بل هي، في الحقيقة، نضال دائم، والإنسان فيها مبتلىً في سعيه، إما للصبر، والشكر، والأجر، وإما للتوجيه، والتأديب، وللتمحيص والتقويم، في

---

(١) وهي مفاهيم تحمل في طياتها قيماً تدعو إلى ضرورة العودة إلى منهج الاستخلاف الصحيح، وتذكر الإنسان بحقيقة بغيه الحضاري؛ ومن ثم نرى ضرورة إحلالها محل مفهوم «الأزمة» ببنائه المادي، الخالي من كل هذه القيم.

إطارٍ من فاعلية الأمة، وبحثها عن عناصر التمكين، وفي إطارٍ من مواجهة التحديات و«الضغوط الحضارية» التي تواجهها الأمة على مختلف الجهات (تحديات: البقاء، والبناء، والنماء)، (وتحديات: التنازع بين أحوال القوة والضعف، والعزة والوهن، والغُثائيَّة والتمكين)، (وتحديات: الفتن، والشهوات) باعتبار ذلك كله «بلاء» يجعل اليقظة الفعالة، والنشاط الحيوي، عمليتين حاضرتين في وعي المسلم وسعيه، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥).

- **سنن التدافع والتداول:** فالتدافع بين «منظومة قيم الحق» و«منظومة قيم الباطل» بين جملة القيم الإيجابية الفاعلة للحركة الحضارية، وما تشكله من إضافة عمرانية إلى الكون بما فيه صلاحه وإصلاحه، وجملة القيم السلبية التي تفسد الحركة الحضارية، وما تشكله من أنماط التخريب والطغيان والإفساد في الكون، هذا «التدافع» بين المنظومتين من سنن الله الممتدة في خلقه، القائمة إلى يوم القيامة، ولولا هذا «التدافع» لفسدت الأرض، وانتقض العمران، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١)، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠)، وفي هذا «التدافع» تبقى سنة الله في قيام الحضارات وتداولها﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، فالحضارة تاريخياً حركة متدافعة متداولة، ولكن من موازين هذا «التدافع» و«التداول» الدائمة في الحياة: أن «الدولة» وإن كانت مرة للمُبْطِل، فلابد أن تكون العاقبة للمصلح إذ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٨١)، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧)، ومن ثم كان الأمر الإلهي ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩)، إن قانون الله ماض، وسنته سارية ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: ٢١).

إن مفهوم «التدافع» و«التداول» الحضاري، هو البديل الإسلامي لمقولات راجت في الساحة العالمية من نحو: «صراع الحضارات» و«صدام الحضارات» و«حروب الثقافات» و«نهاية التاريخ» وهي مقولات تم استدعاؤها، في الشرق والغرب، لرؤية الأحداث من خلالها عند كثير من الناس، في الآونة الأخيرة (وخاصة بين الغرب والإسلام)، وكلها مقولات تعبر عن «رؤية» واحدة للعلاقة بين «الذات» و«الآخر»، هي رؤية «العداوة» و«التناحر» لكل رؤية تؤمن بالتجاوز وترفض الحتميات المادية من جهة، و«الطغيان» و«الاستئثار العالمي» من جهة أخرى.

إنها مقولات تعبر عن «رؤية» تتضخم فيها «الذات» لتصير المركز، وتمتد وفقاً لحركتها ومصالحها على كامل مساحة المعمورة، و«الآخر» فيها ليس أمامه إلا اللحاق أو الإلحاق بالركب الحضاري، إن استطاع في ظل معادلات ظالمة، أن

يحقق ذلك. بخلاف مفهوم «التدافع» و«التداول» باعتباره أصلاً دافعاً لعملية الحراك الحضاري، فهو حركة متنوعة الأشكال، قد تكون «المجاهدة» بمفهومها الإسلامي، أحد أشكالها- حينما يجور الآخر، ويحاول فرض رؤيته، تنميطاً واستتباعاً، أو تخريباً وتدليساً، وليس لمجرد اختلاف الملل أو تغاير الحضارات- ولكن «الإحسان» و«التراحم» و«التعارف» و«التعاون» من أشكالها أيضاً، وفق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)، ووفق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات:١٣)، فجملة ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ تمثل «مقصداً» من مقاصد الوجود البشري، في المنظور الإسلامي، مما يجعل «الصراع» بضوابطه وموازينه الشرعية، جزءاً من الوجود البشري، وليس محور الوجود كله، كما تروج له هذه المقولات.

إن مفهوم «التدافع» و«التداول» وفق هذه الأشكال، والمقاصد الإسلامية، ليس رؤية لإقصاء (الآخر)، أو استبعاده، أو القضاء عليه، بل يعبر «عن رؤية تأسيسية للعالم، يحتل فيها (الآخر) مساحة مهمة، لا تقوم على تصنيفه المؤبد في دائرة «العدو» إلا إذا اعتبر هو، أي: (الآخر) أن ذلك خياره في أن يكون «عدواً»؛ فعالمية الاستخلاف (التي يدعو إليها الإسلام) تقوم بالأساس على مراعاة حق (الغير)[1].

---

(١) سيف الدين عبد الفتاح العولمة والإسلام، ص١٣٢.

- **السنن التحذيرية** «سنن السقوط الحضاري»، وهي التي توضح جملة من الأفعال والصفات التي ينبغي أن تحذر منها الأمم، لما لها من آثار سلبية في سعيها الحضاري، فتصيبها بالضعف والوهن، أو تؤثر جملة في كيانها الحضاري ذاته، مما يؤذن بخرابها؛ ومن ثم تعد من أهم أنواع السنن؛ إذ تشكل نوعاً من «القلق الحضاري» و«الوقاية الحضارية» في آن واحد، فهي في بنائها تشير إلى أن[1]: الفعل السلبي سيؤدي حتماً إلى جملة من النتائج السلبية، وأن الفطنة لسلبية الفعل ونتائجه، لابد من أن تحرك عناصر: الاعتبار، وتدبر العاقبة، والفعل الإيجابي، وأن أول عناصر الفطنة في نطاق السنة التحذيرية، إنما يحرك أصول التفكير والاتعاظ والاعتبار، وتحقق «الوقاية الحضارية». مثل ما جاء في القرآن الكريم من التحذير من[2]: «فساد القمة»، و«الانغماس في الترف»، و«الاستبداد والطغيان»، و«التكبر والاستعلاء»، والتحذير من «الظلم» و«الركون» إلى الظالمين، وهو في النهاية ما يجعل من الأمم «قوماً بوراً» على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ (الفرقان:١٨)، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ (الفتح:١٢).

ويعتبر ما صح من «باب الفتن» و«النبوءات» في كتب السنة النبوية، والتي تتناول «سنن ظهور الإسلام» و«سنن غربته» و«أسباب نصر المسلمين» و«أسباب ضعفهم» و«شبكة العلاقات الاجتماعية» من المفاتيح العظيمة لفهم هذه السنن التحذيرية؛ إذ موضوعاتها متعلقة بمستقبل الأمة، ومواجهتها لتغيرات

---

(١) سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم، ص١٩٩.

(٢) ينظر في مكونات هذه السنة التحذيرية: محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، (الرياض: الدار السعودية للنشر، ١٨٩٤م) ص٣٣-٣٦.

شاملة، وتحذيرها من أن تكون هذه التغيرات، والمتغيرات، سبيلاً إلى تفريطها في شيء من شريعتها، ومنهاجها الذي جعلها الله لها، مثل قوله ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا**، فقال قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّة نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ من صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ منكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ في قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ**، فقال قَائِلٌ: يا رَسُولَ اللّه، وما الْوَهْنُ؟ قال: **حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[1]، ونحو قوله ﷺ: «**إذا تَبَايَعْتُمْ بالْعِينَة، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بالزَّرْعِ ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حتى تَرْجِعُوا إلى دِينِكُمْ**»[2]، فإن هذه الأحاديث، وغيرها من بابها، يمكن قراءتها على أنها تنبيه للمسلمين من أن يقعوا في مثل هذه الأفعال الدالة على فساد الزمان، بل يجب تتبعها بالمواجهة والإصلاح، أي: أنها «منبهات» و«محفزات» حضارية، تبصر بالمصائر التي سوف يصير إليها من يعيشون بعيداً عن الهدي الإلهي. فهي تقدم نقداً لواقع سيكون؛ تحذيراً وتخويفاً من الوقوع في براثن ذلك الواقع أو الرضا به، وتحفيزاً للمسلمين، وإثارة لفاعليتهم؛ للاستعداد للتعامل مع هذا الواقع، وتحقيق مقتضى الاعتبار من «الإنذار النبوي»[3]، فلا تنزلق

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، ١١١/٤، حديث رقم: ٤٢٩٧، وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٢٧٨/٥، حديث رقم: ٢٢٤٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، ٣٧٤/٣، حديث رقم:٣٤٦٢، والبيهقي في سننه الكبرى، ٣١٦/٥، حديث رقم: ١٠٤٨٤، وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٢٨/٢، حديث رقم:٤٨٢٥.

(٣) وذلك في إطار وظائف النبوة الأربعة: و«وظيفة الشهادة»، و«وظيفة البشارة» و«وظيفة النذارة» و«وظيفة الدعوة»، والفهم الصحيح لهذه الوظائف، وتنزيل أحاديث النبي ﷺ عليها، هو العاصم من الخلل؛ إذ «فهم وظيفة البشارة؛ لحفز الفعل الحضاري للإنسان لئلا ييأس، وفهم وظيفة النذارة؛ لدافعية الفعل الحضاري، لئلا يركن أو يغفل، وفهم وظيفة الدعوة التي تحرك فاعليات الإنسان المسلم في كل علاقاته وفاعلياته»، سيف الدين عبد الفتاح، الدراسات المستقبلية في عالم المسلمين، ص٤٤٣.

حركة المسلم إلى انحراف، أو تتوه عن الطريق؛ ذلك أن التعرف على «الفتن» لا يمنح الإنسان القدرة على تمييزها فحسب، وإنما يمنحه قدراً كبيراً من التحكم فيها، والتخفيف من آثارها السلبية، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، وإلا كان الوقوع فيها، أو بمعنى آخر: إن هذه الأحاديث، إذا أحسنا قراءتها بأبجدية صحيحة، فسوف تشكل لنا المناعة، وامتلاك الإمكان الحضاري، والعصمة من الوقوع في الفتن، والقدرة على المواجهة والإصلاح، وفي ظني أن هذا هو الغرض الأكبر منها،﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾.

وفي هذا السياق يستطيع العقل المسلم الواعي أن يقرأ أحاديث «الفتن» و«أشراط الساعة» و«التنبؤات» واستخلاص مجموعة من الصفات والأفعال الحضارية، في دلالاتها المباشرة وغير المباشرة، لحالة «القوة» و«الوهن» و«النصر» و«الهزيمة» وغيرها، وبذلك نشكل رؤية كلية لمنظومة التحديات الحضارية، مما يمكننا من رؤية الخريطة المستقبلية، وفقاً لأقوال الصادق المصدوق ﷺ، بعيداً عن مواقف اليأس والقنوط، وبعيداً عن القراءات المتأزمة، الصادة عن الفعل، المعطلة للفاعلية، والتي تقرأ هذه الأحاديث بأبجدية تقلب المعاني، فلا ترى فيها تحذيراً من براثن واقع ينبغي لنا أن نبصره ونجاهده، بل إخباراً عن وقائع حادثة لا محالة، وما علينا إلا انتظار وقوعها، ولو كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن الإنسان مسير، وليس مخيراً، وهذا هو المعنى الذي قصده علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حين قال: «ويحك لعلك ظننته قضاء لازماً، وقدراً حاتماً، لو كان ذلك لسقط الوعد والوعيد، ولبطل الثواب والعقاب، ولا أتت لائمة من الله لمذنب، ولا محمدة من

الله لمحسن، ولا كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المذنب، ذلك مقال إخوان عبدة الأوثان، وجنود الشيطان، وخصماء الرحمن»[1].

- **سنن التلازم**: وهي تشير إلى عدة قوانين متلازمة في حركة الحياة، نهوضاً وسقوطاً، مثل[2]:

- التلازم بين الطاعة والنصر، والعصيان والهزيمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ (محمد:٧-١١).

- **التلازم بين الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية**، امتلاكاً وتحصيلاً وإعداداً واستخداماً ومقاصد، والشهود الحضاري للأمة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ (الأنفال:٦٠).

---

(١) كنــز العمال، ١/١٨٠.

(٢) بسبب المساحة المتاحة، فقد تم الاكتفاء في هذه المتلازمات بإثبات الفكرة الرئيسة وأكثر النصوص دلالة عليها دون التفاصيل، وهو ما يمكن استدراكه في طبعات أخرى (الناشر).

- التلازم بين التنازع والفرقة، وفشل الأمم وهزيمتها، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦)، وقال ﷺ مبيناً تلازم هذه السنة واطرادها: «لاَ تَخْتَلِفُوا، فإنَّ مَن كَان قَبْلَكُمْ اخْتَلفُوا فَهَلَكُوا»[١].

- التلازم بين الاستكبار والاستلاب الحضاري، والاستضعاف والاستخفاف، قال تعالى، في حديثه عن فرعون واستلابه لقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (الزخرف:٥٤-٥٦).

- التلازم بين الظلم والطغيان، وهلاك الأمم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص:٥٨-٥٩).

- التلازم بين الانهيار الحضاري للأمم، وانحلالها الأخلاقي، فإنتاجية الأمم وبقاؤها يكون على قدر أخلاقيتها، مهما كانت لهم القوة والمنعة المادية، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاستقراض، باب: ما يذكر في الإشخاص والملازمة، ٢/٨٤٩، حديث رقم: ٢٢٧٩.

ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء:١٦-١٧).

- التلازم بين اختلال الموازين، وفساد الأعمال (الوهم الحضاري)، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٥).

- التلازم بين معاودة إخراج الأمة واسترداد فاعليتها والتمكين لها، وإدراكها أبعاد رسالتها، ومعرفة طريقها، وإقامة الحمايات والحراسات على هذا الطريق، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فهذه «السنن» و«المتلازمات الحيوية» وما يتوالد عنها من «سنن فرعية» إنما هي شيء قليل من كثير نفهم به حركة الحياة، ونقف به على جملة من طبائعها وظواهرها، وعوامل الاختلال فيها، ونحرك من خلاله إمكانات بحثية وتفسيرية لما تمر به أمتنا الآن، والمسلم اليقظ الواعي، في استعماره الإيماني للأرض، و«تحريكه الحياة» وفق منهج الله في أمره ونهيه، مطالب بأن يحيط علماً بهذه الظواهر، تدبراً واعتباراً، سواء ما تحدث عنه الوحي، قرآناً وسنة، أو ما اكتشفه السلف من المؤمنين، أو ما يمكن أن نكتشفه نحن، أو ما يمكن أن يكتشفه غيرنا مما يتفق مع مسيرة الحياة وسيرورتها؛ حتى يأتي سعيه متجانساً مع «حركة الحياة» دون «تمويه»، أو «استقالة»، أو «إحالة على الغير» ﴿ قُلْ هُوَ

مِّنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ إن هذه «السنن» و«المتلازمات» تمثل «ميزان الله» في الأرض، وهو ميزان لا يحيد عن مساره، ولا يخطئ غايته، إنه ميزان «العواقب» و«المآلات» التي لا تخطئها عين ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٢١).

وبذلك يتبن أن وظيفة القيم الحضارية في الإسلام، من خلال «فقه السنن» ليست فقط تصويب الحاضر، وتقويمه بقيم الدين، وإنما قراءة الماضي، وإعادة معايرته، والاعتبار به؛ حماية للحاضر «التقوى الحضارية»، وحسنَ بناءٍ وتقويم للمستقبل.

ثانيهما: وثاني الثمرتين المترتبتين على «البعد السُّنَني» في الاستعمار الإيماني للأرض، هو تعميق قيمة: «الائتمان على المستقبل»[1]، فالمسلم من

---

(١) شاع في الدراسات الحضارية، في الأونة الأخيرة، مصطلح: «استشراف المستقبل» للدلالة على وجوب مراعاة المستقبل، والنظر في مآلات الأفعال، والتخطيط الواعي للحركة الحضارية. وقد آثرت التعبير عن ذلك بـ«الائتمان على المستقبل»؛ إذ إن كلمة «الائتمان» تحمل في طياتها من الدلالات ما لا تحمله كلمة «الاستشراف» فالأخيرة في بنائها المعجمي تدل على معاني: النظر إلى الشيء، والبصر به، والتطلع إليه، والدنو منه، وتوقعه (ينظر: تاج العروس، ٥٠٥/٢٣ وما بعدها) أما كلمة «الائتمان» فهي مأخوذة من«الأمانة» أي: ما يؤتمن عليه الإنسان، وما يقتضيه ذلك من الحفاظ عليه، والقيام بحقه حتى يتم تأديته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (النساء:٥٨)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٢٧)، فيحمل بذلك مصطلح «الائتمان على المستقبل» ما يحمله مصطلح «استشراف المستقبل» من النظر إلى المستقبل والوعي به، بالإضافة إلى ما يزيد عليها من معاني: «الفاعلية» و«المسؤولية» و«المحاسبة» التي يقتضيها لفظ «الائتمان»، فيكون المستقبل وديعة يحاسب حاملها على التفريط فيها!! ولا شك أن هذه المعاني لها دلالتها في الحركة الحضارية، بالإضافة إلى ما تتعالق معه من مفاهيم: «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض» فيكون مصطلح «الائتمان على المستقبل» أكثر ارتباطا بـ«منظومة المفاهيم الإسلامية» من مصطلح «استشراف المستقبل» الخالي من معاني: «الفاعلية» و«المسؤولية» و«المحاسبة».

وبذلك يكون «الائتمان على المستقبل» مفهوما حضارياً إسلامياً، نحتاج إلى الوعي به وتفعيله في سعينا لتحريك الحياة، بعد أن ارتفعت صيحات تتبنى بأن العالم قد استنفد طاقات الحياة بصورة قد لا تدع للمستقبل شيئا، والله أعلم..

خلال قراءة هذه السنن وفقهها، والتحليل الإيماني لها[1]، يصبح مستوعباً لقوانين الحركة في الحياة، عارفاً بقوانين السقوط والنهوض، قادراً على تشكيل مستقبله وامتداد فعله؛ ذلك أن مفهوم «التدبر» و«الاعتبار» في البعد السنني، لا يشير إلى معايرة الحاضر بمعايير السنن الإلهية رصداً وتحليلاً وتفسيراً وتقويماً، فحسب، بل يتطلب، أيضاً، تصويب التوجه إلى المستقبل، بإدراك الغايات والمآلات، أي: العبور بالفعل إلى دائرة أكثر فهماً ووعياً وسعياً، فينظر المسلم - بمقتضى «السنن الإلهيَّة» و«المنظومة الحركيَّة» المرتبطة بها- في «المآلات» و«عواقب الأمور»، وكلها عناصر من أصول التفكير في «المستقبل»، فيبني حركته الحضارية من خلالها، فلا يكفي المسلمَ النظرُ، من خلال السنن، في عوامل الفساد المؤدية إلى «وهن» الأمم و«غُثائيتها» ومن ثم انهيارها، وعوامل الصلاح والقوة المؤدية إلى الحركة الفاعلة فيها ومن ثم بقاؤها وامتدادها، بل يجب أن يُتبع ذلك سعيًا وحركةً حضارية فاعلة بناءة، ضمن قيم «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض» فيكون تدبر السنن فعلاً مستقبليًا، يقدر للفعل عواقبه، ويبحث عن سننه الفاعلة، وعياً وسعياً؛ فإن عُدم هذا السعي، وذاك التفاعل البناء، عُد النظر في السنن عبثاً لا قيمة له؛ إذ الوقوف عند السنن الحاكمة، والاكتفاء بالنظر فيها، قصور منهجي، لا يقل خطراً عن إغفالها أو التغافل عنها.

وبذلك النظر في «السنن» و«الاعتبار بها» و«العمل وَفق مقتضياتها» يمنح الإسلام المسلمَ منهجية صادقة وراقية وفاعلة في التعرف على المستقبل، والوعي بحركته، والمشاركة في صنعه، دافعاً إياه نحو «رؤية» مستقبلية شديدة العمق

---

(١) بخلاف النظرية الاستشرافية الغربية، بفلسفتها المادية الخاصة، البعيدة عن الإيمان، والاعتبار بأيام الله؛ ومن ثم فإن علم «المستقبليات» فيها، يشوبه الكثير من النقص، والكثير من التحيز والطغيان، وخاصة في تلك النظرة الاستشرافية التي تضبط الصلة بين الداخل والخارج، والذات والغير..

والفاعلية، حيث القدرةُ على «استشراف المستقبل» و«فقه المآلات» التي سوف يصير إليها، و«مغالبة الأقدار».

ومعنى ذلك: أن المسلم، في المنظور الحضاري الإسلامي، ليس مطالباً باستشراف المستقبل رؤية وتخطيطاً فقط، بل هو مؤتمن عليه أيضاً!! قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ (الحشر:١٨)، ففي قوله تعالى: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، أمر بالنظر إلى ما يقدمه الإنسان لبناء مستقبله «لغد» ذلك «الغد» الذي قد يكون قريباً، وقد يمتد حتى اليوم الآخر، في حركة مستقبلية موصولة[1]. ولعل في حديث النبي ﷺ: «**إن قَامَت السَّاعَةُ وَبِيَد أَحَدِكُمْ فَسيلَةٌ فإن اسْتَطَاعَ ألاَّ يَقُومَ حتى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**، وفي رواية: **فَلْيَغْرِسْهَا**»[2] خير دليل على الشعور بالمسؤولية تجاه حركة المستقبل، يقول الإمام المُناوي في شرح الحديث، بعد أن ذكر خفاء الحكمة منه على بعضٍ من الأئمة الأعلام: «والحاصل: أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك، فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع، وإن لم يبق من الدنيا إلا صبابة»[3]، وكذلك الإشارة النبوية الدقيقة، حينما جاءه رجل فسأله: «مَتى السَّاعةُ؟»، فقال النبي ﷺ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لها؟**»[4] ففي ذلك إشارة إلى

---

(١) سيف الدين عبد الفتاح، الدراسات المستقبلية في عالم المسلمين، ص٤٤٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أي: بقية لا قيمة لها، فيض القدير، ٣٠/٣.

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر بن الخطاب، ١٣٤٩/٣، حديث رقم: ٣٤٨٥. وصحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب، ٢٠٣٢/٤، حديث رقم:٢٦٣٩.

أن العنـــاية بالمستقـــبل، إنما تكون بالإعـــداد والعدة له، وأن الإنـــسان المـــسلم مؤتمنٌ على ذلك!!

ويؤكد هذا الشعور بالمسؤولية تجاه حركة المستقبل في «منظومة القـــيم الإسلامية» كل ما أوردناه، سلفاً، من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، تـــؤطر حركة المسلم في تعامله مع الحياة والأحياء، أمراً بالتفاعل الإيجابي مع مفـــردات الكون ومعطياته، والانتفاع بها على مقتضى التقلل والاعتدال، ونهياً عن كـــل عبث بها إسرافاً وإفساداً، واعتبار المسلم «مؤتمنـــاً علـــى الكـــون» حاضـــراً ومستقبلاً، «مأموراً بالزهد والإيثار الكوني» للأجيال من بعده، بل إن الـــسنة النبوية لَتؤكد أن المسلم قادر على تشكيل مستقبله وامتداد فعلـــه حـــتى بعـــد الموت، وذلك بالولد الصالح، نبت المستقبل، والصـــدقة الجاريـــة، اســـتمرار الامتداد والفعل والأثر بعد الموت؛، والعلم المستدام الدائم العطاء، فقـــال ﷺ: «**إذا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَـــعَ عنـــه عَمَلُهُ إلا من ثَلاثَة: إلا من صَدَقَة جَارِيَة، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدِ صَالِحٍ يَدْعُو له**»[1].

إن مسؤولية المسلم تجاه حركة المستقبل، استشرافاً وائتماناً، ليست رجماً بالغيب المنهي عنه، ولا مؤسَّسة على عناصرَ معاندةٍ للقدر، ولا خرقاً للـــزمن والواقع، كما قد يُظن، بل هي مسؤولية تحمل، في جوهرها، عناصـــر حركـــة تفكيرية وعملية، تنطلق من الوعي بالسنن الفاعلة، والحاكمة لحركـــة الحيـــاة والأحياء، تدبراً واعتباراً، إلى السعي لتشكيل المستقبل، وفق «رؤية» الإســـلام للعالم، و«مقاصده» في عمارة الكون، و«قيمه» في تحريك الحيـــاة، في ســـياق «الاستخلاف» الذي يحدد مسار هذه الحركـــة، «والتزكيـــة» المتحكمـــة في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الوصية، ٣/١٢٥٥، حديث رقم:١٦٣١.

وسائلها، و«الاستعمار الإيماني للأرض» الذي يشكل المقصد الأساس لحركة المسلم على امتدادها في الأزمان، عبادةً لله، وتعبيدَ الدنيا له.

وهكذا، من خلال الاستعمار الإيماني للأرض، بأبعاده الأربعة، يحقق المسلم معنى «الاستقامة» التي أمر بها النبي ﷺ حينما سُئل عن قول جامع في الإسلام، فقال: «**قُل آمنتُ بالله، فاستقم**»[1]، وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما: «أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ أَرَادَ سَفَراً، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّه، أَوْصني، قَالَ: **اعْبُد اللَّهَ لا تُشْرِكْ به شَيْئاً**. قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّه، زِدْني، قَالَ: **إذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ**. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، زِدْني، قَالَ: **اسْتَقِمْ، وَلْيَحْسُنْ خُلُقُكَ**»[2] فـ«الاستقامة» هي انضباط حركة المسلم في هذه الحياة وفق منهج الله وشرعته، فتكون حركته، علماً وعملاً، منطلقة من معارف الوحي، ومنضبطة بمقاصده، ومناهج الاستمداد منه، فتكون كل أقواله وأفعاله، وأحواله ونياته، واقعة لله، وبالله، وعلى أمر الله[3]، وبهذا يمكن «للإسلام، وبربطه كل شيء بالله، أو بنظرته القائمة على ارتباط كل شيء بالله.. أن يكون خميرة تحرر ونضال ضد كل أشكال التسلط والعبودية، المفروضة على الإنسان، بحجة أطروحات مزيفة تبعده عن أصالته ومركزه»[4].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، باب : جامع أوصاف الإسلام، من حديث: «سُفْيَانَ بن عبد اللَّه الثَّقَفِيِّ، قَالَ: قلت: يا رَسُولَ اللَّه، قُلْ لي في الإسْلَامِ قَوْلاً لا أَسْأَلُ عنه أَحَداً بَعْدَكَ، وفي حديث أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ، قال: قُلْ آمَنْتُ بالله فَاسْتَقِمْ»؛ وأخرجه الترمذي ، باب: ما جاء في حفظ اللسان، وروايته: «قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ». ثم قَالَ: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقد رُوِيَ من غَيْرِ وَجْهٍ عن سُفْيَانَ بن عبد اللَّه الثَّقَفِيِّ.

(٢) صحيح ابن حبان (٢/٢٨٣، باب: ذكر الإخبار بأن على المرء تعقيب الإساءة بالإحسان ما قدر عليه في أسبابه، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين)؛ والمستدرك (١/١٢١، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد من رواية البصريين ولم يخرجاه).

(٣) مدارج السالكين، ٢/١٠٥.

(٤) روجيه غارودي، الإسلام دين المستقبل، ترجمة: عبد المجيد بارودي (بيروت: دار الإيمان) ص٦٩.

الخاتمة

القيم الحضارية في الإسلام
من إشكالية القراءة إلى إشكالية التفعيل

- القيم والواقع: خطأ القراءة، وخذلان التفعيل:

لا أبعد إذا قلت: إن هذا الكتاب قائم في كل بنائه على الإجابة عن سؤال واحد، ألا وهو: كيف نحرك الحياة، انتفاعاً واستثماراً، بحركات يحبها خالق الحياة، ووفق مراده في أمره ونهيه؟ والإجابة عن هذا السؤال تقتضي أمرين، يشيران إلى طبيعة «الإشكالية» التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم:

أولهما: ضرورة قراءة حركة الحياة، في مسيرتها وصيرورتها، بـ«أبجديات» إسلامية مأصولة، قادرة على تحديد عوامل «النهوض» و«السقوط»، والوقوف على مواطن «الإصابة» و«الانحراف»، والتعرف إلى أسبابهما، من خلال قيم الوحي المعصومة.

إذ إن جزءاً كبيراً من «كلالتنا الحضارية» - أو «عطالتنا الحضارية» أو «انحسارنا الحضاري»- اليوم، يعود إلى أن كثيراً من القراءات -في خضم استعجال التقدم الحضاري- إنما تتم بعيداً عن قيم الوحي، إما جهلاً به، وإما سوءَ فهمٍ للتعامل معه، وإما جنوحاً عنه، فتتخذ من قيم الحضارة الغربية، وكلياتها، وحداثتها، ومصطلحاتها، معياراً للقراءة والتمثُّل، ومقياساً للمقاربة والمحاكاة، ومن ثم محاكمة حركتنا في الحياة بقيم غير قيمنا، استتباعاً وتنميطاً، أو تخريباً وتدليساً، وتزداد الإشكالية خطورة حينما يصار إلى تقرير أن الطريق الوحيد لخروج الأمة مما تعانيه هو التمثل بقيم الآخرين، ومحاولة إيجاد الحلول في أوعيتهم الفكرية، وأنساقهم المعرفية،

وسعيهم في تحريك الحياة، احتجاجاً بعدم صلاحية قيمنا الإسلامية لاحتكـــام الواقـــع إليها، أو احتجاجاً بأن «مشروع الحداثة الإسلامي» هو بعينـــه «مـــشروع الحداثـــة الغربي» بعد إضافة بعض القيم إليه!![1]، فلم تزدد الأمة بذلك إلا تخلفـــاً وتراجعـــاً، وهدراً لطاقاتها، وعجزاً عن تمثل إمكاناتها، وعناصر القوة فيها، حتى أصبحت لا هـــي بمستوى إسلامها، ولا هي بمستوى عصرها. فالواقع خير شاهد على أن إسقاط قـــيم الإســـلام من «القراءة» و«البناء الحضاري» للأمة، لم «يهمِّـــش» وجـــود الأمـــة فحسب، بل قد «هشَّمه» أيضاً!!

وثانيهما: ضرورة تفعيل قيم الإسلام في حياة المسلم «الإيمان الحي»، بمعنى: تحويل النظرية إلى ممارسة، والفكر إلى فعل، والقيم إلى برامج، وتقـــديم المعيـــار العملي لتحكيم قيم الإسلام في الواقع، وتقويم سلوك المجتمع الإسلامي بها، وتحقيق مقاصد الدين من خلال أصولها ومتطلباتها، فيكون إيمان المسلم، وكذلك الأمـــة المسلمة، بقيم الوحي إيماناً حيّاً يصدقه العمل، وقولاً يصدقه الفعـــل. باختـــصار: لا يكون هذا التفعيل إلا إذا كان كل سعي للمسلم في «تحريك الحياة» على وفق القيم العملية لدينه، والتقيد بها في التعامل مع حركة الحياة والأحياء، باعتبارهـــا: «إطاراً مرجعياً» بحيث تصبح قيم الإسلام، وعطاءات الوحي، روحاً ســـارية في أفكار الأمة وأفعالها معاً، وعياً وسعياً، تحريكاً وتشغيلاً، تفاعلاً معها وفعلاً بها.

وهذا التفعيل هو ما عبر عنه ابن خلدون بـــ«التكييف» عند بيانه لحقيقـــة «التوحيد» في قوله: «إن المعتبر في هذا التوحيد، ليس هو الإيمان فقط الذي هـــو

---

(١) وهذا من «الأفكار القاتلة» على حد تعبير المفكر الكبير مالك بن نبي، والتي تـــدمر الوجـــود الحضاري للأمة في مسيرتها وصيرورتها. وفي إطار التقسيم لعالم الأفكار: «القاتلة» و«الميتة» و«المخذولة» ينظر: مالك بن نبي، في مهب المعركـــة، ط٣ (دمـــشق: دار الفكـــر، ١٩٨١م) ص١٢٤ وما بعدها.

تصديق حكمي؛ فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس»[1] فـ«تكيف» النفس بالتوحيد، معناه: تفعيلها لقيمه، وانطلاقها في «تحريك الحياة» من خلال مقتضياته، استخلافاً في الأرض، وتزكية للنفس، وتعميراً للأرض، وشهادة على الخلق.

القيم وآليات التفعيل:

لا شك أن هذا الواقع الذي نلاحظه في حياة الأمة الإسلامية، في تعاملها مع القيم التي تحرك الحياة، هو واقع، يتسم بـ«التهافت» من ناحية قراءة هذه القيم -في كثير من جوانبها- بـ«أبجدية» غريبة عن الإسلام ومنهجه في تأطير سعي المسلم وتعامله مع الحياة والأحياء، كما أنه واقع يتسم بـ«الانفصال» من ناحية تهميش العلاقة بين قيم الوحي المعصومة التي يؤمن بها المسلم، وسعيه في «تحريك الحياة».

وقد أدى هذا «التهافت» وذاك «الانفصال» إلى أن ترسبت في ثقافة الأمة المسلمة كثير من الآفات، التي اعتنى بفحصها وتحليلها الأستاذ مالك بن نبي، في سياق أبحاثه عن (مشكلات الحضارة)، وعدها من المعوقات الخطيرة الكامنة في المجتمع الإسلامي، والتي لا تزال تعترض بشدة سبيل استعادة المسلمين لعافيتهم، ونهوضهم لأداء دورهم وشهودهم الحضاري. لقد عمل مالك بن نبي، رحمه الله، على تحليل كثير من آثار هذا «التهافت» وذاك «الانفصال»، وأطلق عليها «الأفكار الميتة» و«المميتة» في ثقافة المجتمعات الإسلامية، انطلاقاً من نظريته الكبرى « Grand Theory» عن «القابلية للاستعمار» نظراً لبعدها عن قيم دينها، والتي من خلالها يمكنها «تحريك الحياة» واستعادة «شهودها الحضاري» كما بيَّن، رحمه الله، أنه إذا كان تطبيق قيم الإسلام في «تحريك الحياة» واجباً حتمي الأداء، فإن أداء ذلك

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٤٦٠.

الواجب لا يمكن أن يتحقق ضربة لازب، بل لا بد من التمهيد له بخطوات وفعاليات كثيرة، ولا يكفي الحديث عن هذه القيم وفوائدها، ووجوب تطبيقها، فهذا لا يكفي لإنجاح تجربة الإسلام في «تحريك الحياة» في هذا العصر الذي تطورت مؤسساته ودقت تخصصاتها، وتعقدت وظائفها، وتشابكت علاقاتها مع بعضها بعضاً.

ومن ثم فنحن في حاجة إلى بذل جهد فكري اجتهادي ضخم يحرك الأمة لإعادة الاعتبار للقيم الإسلامية، ولتجاوز ذلك الواقع في «تهافته» و«انفصاله»، واسترجاع «هُويَّة الأمة الحضارية»، وذلك بجعل قيم الإسلام في «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستقامة في العمران» روحاً سارية في كل سعي للأمة نحو تحريك الحياة، بكل امتداداتها التي تشكل كل عناصر الفاعليات والتفاعل الحضاري بين المسلم والكون، وذلك من خلال محاولة ذات أبعاد ثلاثة تتكامل؛ لإقامة قيم الإسلام في الحياة، وتفعيلها في الواقع، تنزيلاً، وحراسة، وتنمية، على النحو التالي:

أولاً: تنزيل القيم في حياة المسلم[1]:

بمعنى: ربط القيم بالواقع، من أجل تحقيق مناطاتها في واقعاته، وهذا يقتضي: «التأسيس القيمي» لكل جانب من جوانب حياة المسلم، والعمل على أن يخرج المسلم من النظر المجرد في القيم، ويدخل مباشرة في العمل بها، وتحقيقها في سلوكه، انتظاماً ومواظبة، حالاً ومآلاً[2]، بحيث تسري قيم الإسلام سرياناً في كل حركة من حركات حياته، وبحيث يصير تنزيل القيم في حياته، وتقويم حركته في البناء والعمران من خلالها، وصفاً راسخاً، لا ينفك عن سعيه في «تحريك

---

(١) وهو ما عبر عنه الإمام الشاطبي، بـ«إنزال العلم على مجاري العادات»، الموافقات، ١/٩٩، و«ظهور الفعل على مصداق القول» الموافقات، ٤/٢٥٤.

(٢) إذ من المقرر في أصولنا الفقهية: أنه لا يمكن الصيرورة إلى تنزيل راشد للأشياء، دون تدبير مآلي، ودون النظر في العواقب والمآلات، الموافقات، ٤/١٩٥.

الحياة» قولاً أو عملاً، إشارة أو حالاً، فلا يبقى جانب من جوانب حياة الإنسان المسلم خارجاً عن مراعاة قيم الإسلام فيه.

وهذا يقتضي الاستعانة بذوي العلم، وأهل الفكر، على وضع برامج «توضيحية» و«توجيهية» و«إعلامية» محكمة، في إبداع: «وسائل» و«أدوات» و«أوعية» عملية؛ لإذكاء «الشعور القيمي» عند المسلمين، أفراداً وجماعات، والاعتماد في ذلك على مراكز الدراسات والبحوث لتغذية هذه البرامج بالمعلومات والتحليلات اللازمة، ووضع الخطط التي تعين على تربية الأمة كلها، حكاماً ومحكومين، على معاني هذه القيم، وبعث روحها في وعيها، بحيث تُترجم إلى حركة دائمة، ومتراكمة، وفاعلة، ومؤثرة، فتخرج هذه القيم من حيز «المبدأ» إلى حيز «الممارسة» على أن يُراعى في بناء هذه البرامج:

١ – الحاجة إلى تجديد[1] «الخطاب العقدي»:

فـ«العقيدة» في الحقيقة، هي المحرِّك الحضاري الأهم، بما تؤديه من وظيفة محورية في تشكيل«الأمة»؛ ولكي يتأتى للمسلمين الخروج من وضع «الانهزامية الحضارية»، و«تغييب قيم الإسلام» عن سعيهم في «تحريك الحياة» لابد من تجديد

---

(١) لا يفهم من مصطلح«التجديد» هنا ما شاع في الآونة الأخيرة، وخاصة بعد أحداث سبتمبر، من ضرورة: «تجديد الخطاب الديني» للمسلمين، ويُعنى به غالبا: عرض الإسلام وقيمه وفق منطق (الآخر)، ومقتضيات خطابه هو، لا وفق منطق الإسلام، وحقائقه!! بل نستخدم مصطلح «التجديد» هنا بالمفهوم الإسلامي له، والذي يعنى به: فاعلية الأمة، ورجوعها إلى أصل دينها، وتحريك الحياة وفق قيمه ومقتضياتها، بعيدا عن دعاوى الانفصال بين علوم الدين والنص المؤسس كتابا وسنة من جهة، وبينها وبين حركة المجتمع في البناء والعمران، من جهة ثانية. والتجديد بهذا المفهوم جزء لا يتجزأ من البنية المعرفية في الإسلام؛ إذ هو السبيل لامتداد مظلة الإسلام، وثوابته إلى الميادين الجديدة، والضمان لبقاء أصوله وقيمه صالحة دائما لكل زمان ومكان، وذلك كله ضمن قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ على رَأْسِ كل مائَةِ سَنَةٍ من يُجَدِّدُ لها دِينَهَا»، أخرجه أبو داود في سننه، ١٠٩/٤، حديث رقم: ٤٢٩١؛ والحاكم في المستدرك، ٥٦٨/٤، حديث رقم: ٨٥٩٣.

مفهوم «العقيدة» بإخراجه مما علق في أذهان المسلمين، في عصور الجمود والانفصال، باعتبارها حديثاً عن الله، وصفاته، والنبوة، والوحي، وأصول الإيمان، وانحسار مفهومها في «الغيبيَّات» فقط، إلى مفهوم أرحب وأوسع يعتبر العقيدة هي: الرؤية التأسيسية الإسلامية، للإيمان بالله بكل مقتضياته، ولحركة الحياة بكل تفاعلاتها ومحرّكاتها، ولحركة الإنسان في الواقع، ولطبيعة الكون وأصول التعامل الحضاري فيه ومعه، ولغايات الخالق والمخلوقين في كافة نواحي الحياة (المبدأ والغاية).

وبذلك تصبح «العقيدة» مرجعيةَ كل سلوك في الحياة، وفاعليةَ التحرك في شتى مجالات النشاط البشري، ولها تأثيراتها في مجرى الأحداث في حياة الأمة، فيكون سعي المسلم، وكذلك الأمة المسلمة، في «تحريك الحياة» في إطارها، وبترشيد منها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣)، أي: يكون البعد العقدي للمسلم حركة فاعلة في حياته بكل أبعادها، وليس مجرد اعتقاد إيماني بارد، أو شقشقة كلامية، أو تصديقات ذهنية مجردة، منفصلة عن حركة الإنسان في الحياة، وحدود حركته، وعناصر وظيفته واستخلافه..

وفي هذا الإطار من «مرجعية» العقيدة لكل حركة المسلم في الحياة، يُعتبر الحديث عن القيم المحركة للحياة: «الاستخلاف»، و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض»، و«فقه السنن»، و«الشهود الحضاري للأمة».... إلخ يُعتبر كل ذلك من صميم العقيدة الإسلامية، ومن المفردات التي ينبغي إدخالها في «الخطاب العقدي»[1]؛ حتى يشعر المسلم أنه إذا أخل بتفعيل تلك القيم في حياته، جهلاً

---

(١) وكتابنا هذا بفصوله الثلاثة، قائم على بيان «التأصيل الشرعي» لذلك.

أو تقصيراً، فقد أخل بواجب من واجبات عقيدته، ومتطلب من متطلباتها، وأهمل مفردة من مفرداتها! وليس ثمة شك في أن اعتبار القيم المحركة للحياة، من صميم عقيدة المسلم، ومفردة من مفردات «الخطاب العقدي»، وتعميق وعي المسلم بذلك، له أثره الكبير في تحقيق عناصر الوصل بين «الواقع الكوني» و«الواقع الإنساني» مما يدفع المسلم للبحث عن «آليات» لتنزيل قيم الإسلام- والتي هي وفق هذا المفهوم جزء من عقيدته- على واقعه، والدفاع عن وجودها، والعمل وفق مقتضياتها في «تحريك الحياة»، كما أن له أثره الكبير في «تحرر» المسلم من كل القيم والمفاهيم المتوارثة من عصور «الجمود الحضاري» والتي تدعو إلى «كلالة النفس» و«الزهد» في تعمير الحياة، و«الانسحاب» من تحقيق معنى الخلافة في الأرض، والشهادة على الخلق، و«الاستكانة» إلى الكسل، و«التعايش» مع الذل، و«الخضوع» للهوى والشهوات. كما «تحرره» من كل القيم التي يُراد فرضها عليه، وتعمل على: «استلابه» وذوبانه في حضارة (الآخر) التي تمثل قيم الحضارة الغالبة، في إطار الحديث عن «عولمة القيم» و«القيم الكونية»، وفي سياق الحديث عن تزكية النسق القيمي الغربي، وتزكية سياقاته الفلسفية -بماديتها المحضة، ورؤيتها العلمانية، التي تتجه صوب «موت الإله» و«موت الإنسان» بل «وموت الطبيعة» أيضاً- وتهميش الأنساق القيمية الأخرى، استتباعاً وتنميطاً، أو تخريباً وتدليساً.

٢- الحاجة إلى تجديد «الخطاب الفقهي»:

فلابد من إنتاج «خطاب فقهي» يكون من مفرداته التأصيل لفقه يُعنى بقضايا الأمة كياناً وبناءً واستمراراً، والنظر في واقعها حالاً ومآلاً، وتحقق جوهرها ومناط خيريتها وفاعليتها، والتفكير بإيجاد الأوعية الشرعية لحركة الأمة ومعالجة مشكلاتها، ووضع الضوابط لبناء مؤسساتها، فقه يرتبط بالحياة في وجودها، وبالإنسان في فاعليته، وبالعمران في هيكله، فقه يُعنى بـ«عوامل البناء» و«عوامل

قيام الحضارات وانهيارها»، «وسنن التداول» و«الإبدال» الحضاري، وكذلك بـ«سنن التدافع» و«التوازن» و«العدل» الكوني، فقه يوجه «السلوك الحضاري» للمسلم في عمارة الأرض، والسير في مناكبها، ومراعاة سنن الله في بنائها، والتعامل مع المستقبل استشرافاً وائتماناً، فقه يكون من مفرداته العناية بالدخول الواعي والذكي، في هموم الإنسان ومشاكله، محليّاً (من قبيل ما يعانيه المسلم اليوم من «وهن» و«بوار» و«استلاب» في مسعاه الحضاري...إلخ) وكونيّاً (من قبيل الأطروحات التي تدور حول: العولمة، والحداثة، وحقوق الإنسان، ومشكلات البيئة، والأمن الدولي، والنظام العالمي، ومركزية الإنسان الغربي وعالمية قيمه، ونهاية التاريخ، وصدام الحضارات، وحروب الثقافات...إلخ) فينبغي أن يكون كل ذلك من مفردات خطابنا الفقهي؛ لمعرفتها أولاً، ثم الاجتهاد ثانياً، لوجدان حلول وظيفية وعملية لها، انطلاقاً من قيم الإسلام في: الخلافة في الأرض، والتعمير فيها، وقيم التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها، حفظاً وانتفاعاً واستثماراً، ووفق رؤية الإسلام ومقاصد شرعته في «تحريك الحياة» و«حفظ: الدين والنفس والنسل والعقل والمال»، وإصلاح الأرض وعمارتها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، وتعبيد الفعل البشري لله سبحانه، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متجهة إلى الله، صحةً في المقاصد، وسلامةً في الوسائل، وبصراً بالمآلات.

كما لابد من إنتاج «خطاب فقهي» يُكيِّف هذه القيم التي تمثل روح حضارتنا الإسلامية، على أنها دينٌ، وأن التمثُّل بها، وترجمتها إلى سلوك، والحركة بمقتضاها هو «مناط الشرعية»، وأن حملها في حركة الحياة، والالتزام بها، والسعي إلى ترجمتها إلى برامج، وإيجاد «الآليات» لتنزيلها على الواقع، والتبصر الواعي بمآلات تنزيلها، واتخاذها منهجاً في «تحريك الحياة» من الفروض الواجبة على الأمة، وأن التفريط في تمثلها في حركة الحياة حرام، والدفاع عنها جهاد،

وحراستها مسؤولية، يقول الإمام القرافي: «أحوال الأمة، والنظر في مصالح الملة، فإنه من أعم فروض الكفايات»[1] وكون تشغيل «القيم المحركة للحياة» وتفعيلها من «الفروض الكفائية» مما يعطي قيمة أكثر فاعلية لتلك «القيم» في الممارسة والصيانة والحماية؛ إذ إن مصطلح «فروض الكفاية» في بنائه الفقهي، يعني: التضامن والتكافل بين جميع أبناء الأمة؛ ليعين غير القادر، القادرين على تحقيق مراد الشارع ومقاصده في ذلك الفرض، وإلا أثمت الأمة جميعها؛ لأنه في الحقيقة «واجب على الكل سقط بفعل البعض»!! ولذلك كان القيام به له من الأجر والثواب عند الله أكثر من غيره من «الفروض»، يقول الإمام الجويني: «القيام بما هو من فروض الكفايات أحرى بإحراز الدرجات، وأعلى من فنون القربات من فرائض الأعيان؛ فإن ما تعين على المتعبد المكلف لو تركه، ولم يقابل أمر الشارع فيه بالارتسام والقيام، اختص المأثم به، ولو أقامه فهو المثاب، ولو فرض تعطيل فرض من فروض الكفايات لعم المأثم على الكافة، على اختلاف الرتب والدرجات، والقائم به كافٍ نفسه، وكافة المخاطبين الحرج والعقاب، وآمل أفضل الثواب، ولا يهون قدر من يحل محل المسلمين أجمعين في القيام بمهم من مهمات الدين»[2]. إن الشعور بهذه «الفرضية» هو الذي يجدد للإنسان، في كل يوم، حياته، من خلال تجديد طاقاته، وتحويلها إلى قوة فاعلة متجددة، تلاحق كل خطوات «الواقع» من أجل تركيزها على «قيم الإسلام»، وبذلك يتم تحويل «الفروض الكفائية» إلى محركات اجتماعية، ومحرضات نفسية؛ لأداء الرسالة و«تحريك الحياة» استخلافاً وتزكية واستعماراً للأرض، وفق قيم الإسلام.

---

(١) الفروق مع هوامشه، ٢/٢٧٦. وينظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ١/٤٣.

(٢) الإمام الجويني، غياث الأمم والتياث الظلم، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، ود. مصطفى حلمي، ط١ (الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٧٩م) ص٢٦١.

٣- الحاجة إلى تجديد «الخطاب القيمي»:

فالمتأمل في «خطابنا القيمي» يدرك أن هناك قصوراً واضحاً في مفرداته ووظيفته؛ لأنه خطاب يُعنى، في جزء كبير منه، بالمفردات التي توجه سلوك الإنسان نحو «الآخرة» مع إغفال تام للمفردات التي توجه سلوك الإنسان في «تحريك الحياة الدنيا» مع انسحاب تام عن تقويم ما يجري في العالم الآن من سعي «في تحريك الحياة» ومحاكمته إلى «منظومة القيم» الإسلامية، التي تعبر عن رؤية الإسلام للإنسان والكون والحياة. ومن ثم فنحن في حاجة، من أجل تنزيل قيم الإسلام الحضارية وتفعيلها في حياة المسلم، إلى تجديد «خطابنا القيمي» وذلك وفق «آليات» ثلاث:

أولها: «إعادة الاعتبار» في «خطابنا القيمي» للمفردات التي تعبر عن القيم المحركة للحياة: «الاستخلاف»، و«التزكية»، و«الاستعمار الإيماني للأرض»، و«الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون، حفظاً و انتفاعاً واستثماراً»، وبيان أن هذه القيم تقدم «للمسلم رؤية» لـ«تحريك الحياة» وفق مراد الله في أمره ونهيه، ولابد من مراعاتها؛ وصلاً لحركة الدنيا بالآخرة؛ حيث يجعل المسلم من الكون ساحته الحضارية، يحقق فيها قيم «الاستخلاف»، و«إعمار الأرض»، و«بناء الدنيا للآخرة» وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق:٦)، فهذا «الكدح الحضاري» الموصول بالله، ينبغي أن يكون من مرتكزات «خطابنا القيمي».

ثانيها: «تفكيك» «منظومة قيم الحداثة» الغربية، ونقدها بِجلِّها ودِقِّها، وتمييز ما فيها من «وجوه الحق» و«وجوه الضلال»، ومحاكمتها من خلال: «قيم الوحي المعصومة»، والنظر في عواقبها ومآلاتها في «تحريك الحياة»، وبيان آفاتها الفلسفية التي تنمو فيها وتستند إليها، وخاصة آفتي: «الانقطاع عن الغيب»، و«البعد عن قيم

الوحي المعصومة»، باعتبار أن الإنسان هو «مرجعية» ذاته، ومعيار قيمه. والاستفادة في هذا النقد، والتفكيك، بالدراسات التي قامت في الغرب نفسه، وهي كثيرة، والتي تتحدث عن «انتهاء الحداثة»، و«فشل قيمها»، و«عدميتها»، و«لا إنسانيتها»، وضرورة «تجاوز منظومتها القيمية»، كما تتحدث عن أزمتها المعرفية في العلوم الطبيعية، وخلل تعاملها مع مفردات الكون وعطاءاتها، إضافة إلى أن «المراجعات» الجديدة في «علم النفس» و«علم اللغة» تبين الخلل المعرفي في كثير من «النظريات المعرفية» التي أقامتها «الحداثة الغربية»[1].

فهذا التفكيك والنقد لابد من أن يكون من مفردات «خطابنا القيمي» ثم الانطلاق في هذا الخطاب إلى بيان الفروق بين قيم الحداثة الغربية، القائمة على: «المادية المنفصلة عن كل قيمة» و«الاستئثار» و«افتراس الحياة» وقيم الإسلام، التي تتحكم في سعي الإنسان في «التعامل مع الحياة والأحياء» من خلال مفاهيم: «الاستخلاف»، و«التزكية»، و«الاستعمار الإيماني للأرض»، و«الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها».

إذ لا شك أن في هذا النقد لقيم الحداثة الغربية، وبيان أزماتها في «تحريك الحياة» حالاً ومآلاً، ومعايرتها بقيم الإسلام، سبيلاً من أهم السبل لـ«التحرر القيمي» أي: وقاية المسلم من «الارتماء» في أحضان الحداثة الغربية، والوقوع في «تحيُّزاتها»، والتخلص من الإحساس بـ«مركزية» الغرب وقيمه، بحيث تستلبه استلاباً، بل يكون حراً في تعامله مع قيم هذه الحضارة، سواء أكان ذلك التعامل في جانب «الإفادة والاستصحاب» لما فيها من خير نافع، أم كان في جانب

---

(١) وفي هذا السياق، اقترح المفكر عبد الوهاب المسيري، تأسيس علم يسميه: «علم الأزمة» يدرس أزمة الحضارة الغربية، من جميع جوانبها، وخاصة «الجانب القيمي» فيها؛ للوقوف على «انحرافات الحضارة الغربية في قيمها»، وفشل «أنساقها المعرفية» في «تحريك الحياة»، ينظر: حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، الثقافة والمنهج، ص٣٣١.

«الاعتبار والتنائي» لما فيها من ضر وفساد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن في هذه «المعايرة» بثّاً لروح العزة والاستعلاء والقوة في نفس المسلم؛ وتحريكاً لعناصر الوعي بما يمتلكه من القيم العليا المزكية للإنسان، والبانية للعمران، والمفاهيم الراشدة في «تحريك الحياة» كما أقرها الوحي المعصوم، في أبعادها الإنسانية، والكونية، والتراحمية، فيستشعر في نفسه القدرة على «البعث الحضاري»، والقدرة على «استئناف العطاء»، ويتمكن المسلم من أداء دوره في تزكية الحياة، وترقية أحوال الأمة، و«الإسهام في تقويم المسار» الذي أخذ يسلكه «النظام العالمي» الجديد، بدلاً من «عقلية الوهن»، و«الانهزام النفسي» الذي تعيشه أمتنا اليوم.

ثالثها: «تقويم المشكلات والمتغيرات العالمية» ومساءلتها ومحاكمتها بقيم الإسلام، ومقاصده، في «تحريك الحياة»، وخاصة «مشكلة البيئة»، و«علاقة الإنسان بالأرض» وما تعانيه الأرض اليوم من: «التلويث»، و«التخريب»، و«العبث»، وفقدان «الرشد والتوازن»، وسيادة «منطق القوة»، و«الجشع» في التعامل مع معطيات الكون (من خلال عملية غزو إمبريالية للكون تتم لحساب الإنسان الغربي وحده، وإن كان يتأثر بنتائجها كل سكان الأرض!!) ذلك المنطق الذي يسحق «الآن الغابات، والمحيطات، والغلاف الجوي، والمياه العذبة المتجددة، والريح والمطر، والتنوع الثري للحياة ذاتها» حتى أصبحت البشرية اليوم، أكثر فاعلية وقدرة في مجالات التدمير منها مجتمعة في كل العصور التي مضت، وكانت النتيجة أن بدأت الأرض تموت!! بالإضافة إلى ما يسود العالم الآن من علاقات، تحكمها مقولات من نحو: «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» و«النظام العالمي الجديد»... إلخ وهي مقولات تحمل في طياتها ما يمكن أن نسميه بـ«صناعة العدو» و«البغي الحضاري» الذي يعمل على «استلاب الآخر» من قيمه وذاته، استتباعاً وتنميطاً، أو تخريباً وتدليساً.

وفي هذا الإطار يبرز أن «منظومة القيم» في الإسلام، تمتلك برنامجاً كاملاً، وقادراً على أن يسهم بقوة في علاج كثير من مشكلات الحضارة الإنسانية المعاصرة، التي تنكبت طريق الوحي، وتمركزت حول ذاها، تدمرها ومن حولها، إنساناً وطبيعة، فالإسلام قادر على إحلال عامل «الرشد» في مسير الحضارة الإنسانية، بدل عامل «البغي»، وما أحوجها إلى ذلك!! من خلال قيمه التي تقوم على: «التوازن والتجرد»، و«أداء الحقوق»، و«مراعاة الحرمات ورفيع الأذواق»، و«أخلاق البذل والإيثار»، و«اصطناع المعروف»، و«ابتغاء الفضل وبذله»، و«التعارف»، و«التراحم»، و«محاربة الطغيان الحضاري» و«الاستثار العمراني»، وكذلك قيم الائتمان الكوني وما تحمله من معان ودلالات مستبطنة في تعاليم الوحي قرآناً وسنة، من حيث وجوب التزام الإنسان، مادياً وأخلاقياً، نحو كل الموجودات والأشياء في الكون، فيما له هو منها، وما لها هي منه، وما يضيفه هذا المفهوم من وعي حضاري في «تحريك الحياة» تحريكاً يقوم على: «الزهد والإيثار الكوني» «تقللاً» و«اعتدالاً» في التعامل مع مقدرات الكون، وموارده، تعامل القيِّم الراعي المحكوم بمقاصد الشرع، لا تعامل الشهواني المستهتر، المحكوم بمقتضيات الشهوة.

ثمة إذن يقين في أن تضمين هذه القيم في خطابنا، وتشغيلها في الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها واقع العالم الآن، وتفعيلها في مواجهة المشكلات التي يعاني منها إنسان «منظومة الحداثة الغربية» لا يمثل إمكاناً لنقد قيم (الآخر) في «تحريك الحياة» بعد أن أدخلت «منظومة الحداثة» الغربية الإنسانَ في أزمة مع الكون ومستقبله، فحسب، بل يقدم أيضاً نقداً لواقع المسلمين، ومدى تفريطهم حينما غيبوا في خطابهم ، بوعي أو من دون وعي، هذه القيم التي تقدم رؤية معرفية «شاملة» و«راشدة» لـ«تحريك الحياة».

وهكذا، فإن هذه «الآليات» الثلاث: «إعادة الاعتبار لقيم تحريك الحياة في الإسلام»، و«نقد قيم الحداثة الغربية»، و«تقويم الأحداث العالمية بقيم

الإسلام، ومحاكمتها إليها» مما يجب العناية به، وإدخاله، في مفردات «خطابنا القيمي»؛ إذ إنها «آليات» تمكننا من «الوعي بالذات» وما نملكه من قيم قادرة على «تحريك الحياة» بمنهجية «راشدة»، كما تمكننا من «رؤية الآخر»، و«ترتيب علاقتنا به»، و«وعينا» بما يملكه من قيم تحمل «انحرافات كثيرة» في منهجها نحو «تحريك الحياة»، مما يدفع المسلم إلى العمل جاهداً على تنزيل هذه القيم في واقعه، بل والعمل على «تكوين رأي عام كوني» لصالح قيم الإسلام؛ حتى نبقي على قيمنا، وعسى أن نصحح، يوماً، ما فسد من قيمهم.

ثانياً: حراسة القيم:

وهي «آلية» ذات أهمية كبيرة، في عملية «تفعيل» القيم الإسلامية؛ إذ لا يكفي في تفعيل القيم في حياة المسلم «تنزيلها» على واقعه، فحسب، بل لابد من «حراسة» هذا التنزيل، والدفاع عنه، وحمايته مما يطرأ عليه من «آفات» وخاصة آفتي:

- «الجمود»، إذ قد تكتفي الأمة بالقيم التي بذلت جهداً في تنزيلها، فلا تتطلع إلى تجديد «آليات» هذا التنزيل، ولا تقويمه بالنظر في واقعه، والتدبر في عواقبه ومآلاته، فتبقى عاجزة عن إيجاد «البرامج» الجديدة، والاجتهاد في «تطبيقها»، مما قد يصيب هذه القيم بـ«الجمود»، و«انطفاء الفاعلية»، و«العجز عن النمو والاستمرار».

- «الانفصال»، إذ متى ما طال جمود الأمة على قيمها، أدى ذلك إلى انفصال واقعها المتجدد، وحاضرها المعيش عن تلك القيم «الانفصام النكد» كما حدث للأمة من قبل، حينما جمدت على قيمها، ولم تجتهد في تجديد «آليات» تنزيلها، ولم تعمل على تنميتها، حتى آل أمر الأمة إلى ما نحن عليه اليوم من «غياب للقيم» أو «انحراف في الممارسة»!!

و«الجمود» و«الانفصال» آفتان، توقفان حركية القيم، وتفقدانها فعاليتها في الفكر والروح والحركة، وتعطلان «آليات» وتجنب ذلك اقتضى حركة واعية، وتتطلب فقهاً ومراقبة، في «منهاجية» تقوم على أمرين، هما:

١ - «فقه الواقع الحضاري» الذي يحتوي الوجود الدنيوي للأمة، بكل أسئلته، وسماته، وبكل امتداداته التاريخية والمستقبلية، وبكل تنوعاته، بالغة التعقيد والتركيب والتشابه، والاجتهاد في تطوير «آليات» يتم من خلالها تفعيل قيم الإسلام في تقويم ذلك الواقع، وتزكيته، والارتقاء به إلى «الحياة الطيبة» والاجتهاد في تنزيل هذه القيم تنزيلاً صحيحاً، بـ«نفَسٍ مقاصدي» يروم الموازنة بين الأفعال، والترجيح بين المصالح والمفاسد، وفي ضوء وعي شديد بوجوب «اعتبار الواقع لا تحكيمه، ورده الرد الجميل إلى قيم الإسلام»[1]، ووجوب «اعتبار الأولويات واستصحابها في عملية تنزيل القيم»، ووجوب «اعتبار مآلات تنزيل هذه القيم وعواقبها» حتى لا تُجلب مفسدة عوض المصلحة المقصودة، أو تُفوَّت مصلحة أكبر من أجل مصلحة أدنى!! إننا نستطيع أن نقرر في يقين: إن واقعاً لا يتم تفعيل القيم فيه، أو الارتقاء به إليها، يفرز جملة من الممارسات، إما تفرض الأمر الواقع، وتوحي بالاستسلام له مهما كان ظالماً، وإما تفرض الادعاء بعدم صلاحية هذه القيم لاحتكام الواقع إليها، وتوحي بضرورة جلب قيمٍ غيرها، وهذا يعني: أن «حراسة القيم» في حياة المسلم، تقتضي اجتهاداً مفتوحاً على «الواقع» حالاً واستقبالاً؛ إذ هو اجتهاد

---

(١) بعيداً عما اشتهر في الأونة الأخيرة، في «خطابنا الثقافي» من مفهوم:«الواقعية» وهو مفهوم ليس في المفاهيم أشد مخالفة لمقتضى التغيير والنهوض، ولا أقوى على جلب الضرر لأهله منه؛ إذ يراد به: بسط هيمنة الواقع بكل انحرافات، والإكراه على قبوله. أما المقصود بـ«فقه الواقع» في«خطابنا الشرعي»، فهو:الاشتغال بوصف الواقع، ونقده، والتعامل معه، والعمل الدؤوب على تغيره، إن عاجلا وإن آجلا، والاجتهاد في رده إلى قيم الإسلام، وتحكيمها فيه، إذا ما انحرف عن المعيار، من خلال حركة واعية متبصرة، بالحال والمآل، دائمة الارتباط بالواقع، غير غافلة عنه، ولا عن ضروراته وإكراهاته. ينظر: إعلام الموقعين، ١/٨٨-٨٩، و٤/٢٢٠.

لا يمكن أن ينقطع، بل يظل مستمراً إلى يوم الدين، كما تقتضي اجتهاداً مستمراً في إبداع «الآليات» التي يتم من خلالها تفعيل القيم في هذا الواقع، ثم تبقى، بعد ذلك، قضية معالجة الواقع وتزكيته، وتنزيل القيم بكل ما تحتاج إليه، مجال سجال وحوار وتشاور وتعاون بين طبقات الأمة وقادة الرأي والخبرة فيها، في كل مجالات: النظر العمل والمهن والحرف والخدمات، وجميع وجوه الارتفاق والمصالح.

٢- «فقه التوجه إلى السلوك الحضاري» للأمة، ومراقبته، وتوجيه انحرافاته، ورده إلى المعيار، والمثابرة على هذا التوجه، وهذه المراقبة، فمما لا شك فيه أن «معاودة إخراج الأمة» و«استرداد فاعليتها» و«شهودها الحضاري» منوط بالتوجه نحو سلوكها ومراقبته، ومعايرته بقيم دينها، وهذا يقتضي أن تكون الأمة المسلمة، في حالة مراقبة دائمة لذاتها، ولأعمالها، في حركة ذات اتجاهين متوازيين متكاملين، حركة في داخل الأمة نفسها من أجل تنميتها وتطهيرها والصعود بها في مراتب الكمال ومدارج الخير، وحركة في الكون، من أجل النظر في مفرداته وعطاءاتها؛ لاستثمارها والتفاعل معها، وهذا يعني:

- «تعميق الإحساس بالمسؤولية»، مسؤولية المسلم عن الأمة بل عن الإنسانية كلها، وكذلك مسؤولية الأمة عن الفرد، بل عن الإنسانية كلها، وعن وجوب «تنزيل هذه القيم» في الحياة، وذلك من خلال: الاجتهاد في إيجاد «الآليات» و«البرامج» الفردية والمؤسساتية، والتي من خلالها يتم تنزيل هذه القيم في حياة الفرد والأمة. والاجتهاد في إيجاد «الآليات»، و«وسائل الرقابة العامة»، و«تطوير الأساليب والأوعية الشرعية» التي «تصوب المسيرة» وتمنع من الاختلال في «تنزيل هذه القيم». وهذا ما يجعل النفس أبداً قلقة متحفزة لبذل جهد مع الباذلين، وفي حالة الاستنفار والاستعداد للدفاع عن هذه القيم،

وحراستها، والوعي المستمر بتجديد «برامج» و«آليات» تنـزيلها، بما يحفظ كيانها، ويعمل على استمرارها.

- «ضرورة المناصحة والمراجعة»، أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وتحديداً لمواطن الخلل والتقصير، ووقوفاً على الانحرافات التي تقع فيها الأمة في أثناء سعيها لـ«تحريك الحياة» وما يقتضيه ذلك من «التفاعل» و«الحوار المفتوح» و«التجديد المستمر» الذي ينفي «نوابت السوء» ويعيد للقيم عطاءها، وتفعيلها؛ وغياب هذه المناصحة من أهم عوامل «عطالتنا الحضارية» ويقول رسول الله ﷺ: «**وَالَّذي نَفْسي بيده لَتَأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوف، وَلَتَنهَوُنَّ عن الْمُنْكَرِ، أو لَيُوشكَنَّ الله أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً منه، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**»[1]. ومعلوم أن «التوجه إلى السلوك» و«مراقبته» على هذا النحو، يجعل الأمة دائمة الاندفاع في «تحريك الحياة» وفق قيم: «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض» اندفاعاً فاعلاً لا يدخله «الوهن» و«الفتور»، أو «الجمود» و«الانفصال».

ثالثاً: تنمية القيم:

فليس أقدر على «تنـزيل القيم»، و«حراستها» في حياة المسلم، من «تنمية هذه القيم» إنتاجاً وإبداعاً، من خلال ربط قيمنا بواقعنا الحي، والتعرف على مدى قدرتنا على إبداع جديد القيم التي يتطلبها راهن هذا الواقع، وعلى استنباط القيم التي نواجه بها مصاعب مستقبلنا، وبذل الجهد في تحقيقها والتحقق بها، وهذا يحتاج إلى أمرين:

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، ٤٦٨/٤، حديث رقم: ٢١٦٩، وقال: «هذا حديث حسن»؛ وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٣٨٨/٥، حديث رقم: ٢٣٣٧٥، وفي روايته: «**أو لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ قَوْماً، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ**».

- الكف عن الاستمرار في الحديث عن استيراد «قيم النموذج الغربي»، وتكرار ما قال به بعض علمائنا ومفكرينا من أن «مشروع الحداثة الإسلامي» هو بعينه مشروع «الحداثة الغربية» بعد إضافة بعض القيم إليه، عد أن توهم هؤلاء أن «الحداثة الغربية» واقع لا يزول، وأنها نافعة لا ضرر منها، وكاملة لا نقص فيها!! وكذلك الكف عن البحث عن (الآخر) بقيمه ومقولاته، في قيمنا ومقولاتنا؛ لتأكيد أنها موجودة في الإسلام، بل وسبق الإسلام إليها، وكأنه «المعيار» لكل حركات الحياة، وكأننا لا نجد صورتنا إلا فيه!! بل أصبح من المتعين على مفكرينا وعلمائنا، بعد أزمة «الحداثة الغربية»، أن يأتوا بمشروعهم «الحداثي» وفق رؤية الإسلام الشاملة، ومقاصده التي تربط الإنسان بخالقه، من جهة، وتربط الإنسان بالكون ومفرداته من جهة ثانية، وبأخيه الإنسان من جهة ثالثة، ومن هنا يأتي الحديث عن الإنتاج والإبداع، بدلاً من التلقي والتقليد؛ إذ لا تنمية بغير تميُّز، ولا إبداع بغير خصوصية.

- الانخراط الواعي في قضايا الأمة، بل في قضايا الإنسانية كلها، والعمل على إبداع قيم جديدة، تعالج هذه القضايا وفق رؤية الإسلام، ومقاصده في «تحريك الحياة» حالاً ومآلاً، بل أن نعيد إبداع قيم نافعة تم تناسيها (مثل قيم: الزهد والإيثار الكوني، والتعارف والتراحم، والائتمان على المستقبل...إلخ) وتأكيد على ضرورة بناء مفاهيم قيمية مستقاة من الوحي، قرآناً وسنة، واعتبار «منظومة المفاهيم الإسلامية»- بعد أن حاول الكثيرون تنحية الإسلام عن كونه مصدراً تأسيسيّاً في بناء المفاهيم- تشكل «القبلة الفكرية»، إن صح التعبير، التي يجب التوجه إليها، فالوحي يعد مصدراً هائلاً لمفاهيم تشكل نماذج معيارية

وقياسية، تتميز بكونها «منظومة» متكاملة للحكم على الأشياء والوقائع والمستقبل، فعلى سبيل المثال، نجد من القيم التي يتعين إبداعها اليوم في «تحريك الحياة»، ونشر الوعي بمفاهيمها، على مستوى البشرية كلها، قيم: «التسخير الكوني»، و«التكريم الإنساني»، و«السعي الحي»، و«الحركة المسؤولة»، و«التزكية»، و«مراعاة حق النفس، بتمام التخلق وتمام التعقل وتمام التعبد» و«مراعاة حق الغير، عدلاً وإحساناً وتراحماً ومجاهدة»، و«العلم النافع»، و«العمل الصالح»، و«ابتغاء الفضل»، و«الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون، حفظاً وانتفاعاً واستثماراً»، و«القوامة الكونية»، و«الإيثار الكوني»، و«الائتمان على المستقبل»، و«الرُّشد»، و«البغي»، و«الوهن»، و«التدبر والاعتبار»، و«الابتلاء الحضاري»، و«التدافع»، و«التذكير بأيام الله»....إلخ .

فمثل هذه القيم -والتي لا نجد لها مثيلاً في القيم الكونية المزعومة- يمكن أن تكون بمنزلة «المقاصد الإنسانية» الكبرى، التي ينبغي أن يسترشد بها العالم في سعيه نحو «تحريك الحياة»، والتي إن فعَّلها لأدى ذلك إلى دفع «الآفات» التي دخلت على اختياراته الحضارية، من جهة، ولأدى إلى تغيير حركة الحياة على وجه الأرض، صلاحاً في الحال، وفلاحاً في المآل، من جهة ثانية. وهذا يدفعنا إلى أن ننشئ من المفاهيم الحضارية ما لم تنشئه الحضارة الغربية، ونوفر لها «المشروعية» عن طريق إسنادها إلى أدلة صحيحة من ثقافتنا الإسلامية، وإشاعتها في مجالنا التداولي، وأن نوفر لها «الإنتاجية» عن طريق تفعيلها، ومحاكمة حركة الحياة والأحياء من منظورها، واستخراج نتائج مثمرة منها، وبيان نفعها في تحريك الحياة.

وبعد،

فقد آن الأوان لكي نعيد الاعتبار إلى قيم الإسلام، وتفعيلها في حياتنا، تنزيلاً، وحراسة، وتنمية، وأن نصوغ، في ضوء هذه القيم، خطاباً إسلامياً يكون على مستوى سؤالات الإنسان المعاصر، وأن نخوض معركة في بناء مفاهيم حضارية وفق رؤية ديننا في «تحريك الحياة» من خلال قيم: «الاستخلاف»، و«التزكية»، و«الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها»، وتحويل هذه القيم إلى «مفردات شرعية» تحكم الواقع الإنساني، أفراداً وجماعات. وهذه هي «الحداثة» الجديدة التي يمكن أن يقدمها الإسلام للبشرية كلها، حداثة تهدف إلى «ترقية الوجود»؛ إذ إنها تبلغ النهاية في وصل الإنسان بربه، تعبداً وتعقلاً وتخلقاً، كما تبلغ الكمال في وصل الإنسان بأخيه الإنسان، تعارفاً وتراحماً وإحساناً. كما تبلغ المنتهى في التعامل مع مفردات الكون، انتفاعاً واستثماراً وائتماناً، فلا تتصارع مع الكون، ولا تتسلط عليه، وإنما تخاطبه، بل تتوادد معه وتراحمه، حتى يبوح لها بأخباره وأسراره!! وبذلك، وحده، تحقق الأمة «شهودها الحضاري» لا أن نترك قيمنا تعاني غربة الزمان والمكان، ثم نجعل الإشكال فيها، والحقيقة أن هذا إشكال المسلم، لا إشكال قيمه، وقديماً قالت العرب في كلامها: «مَن رام التفلُّت، طال منه التلفُّت، ويوشك أن تُرهقه المتاهات، وتتلفه العوائق»!! وصدق الله إذ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

وكـــــلاء التـــوزيــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــــر	دار الثقافـــــــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس:٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــرين	مكتبـــــــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب:١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب:٣٣٧١ – عمان١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ -٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤- صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ - الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــع والترجمـــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦ – الرباط
الجزائـــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة –الجزائر
إنكلتـــرا	دار الرعايـــــة الإســـلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.